روبير فوريسون

ترجمة وتقديم

أمير العمري

كتابات في المراجعة التاريخية

أكذوبة المحرقة اليهودية

روافد للنشر والتوزيع

أكذوبة المحرقة اليهودية – روبير فوريسون

تقديم وترجمة/ أمير العمري

القاهرة – 2017

رقم الإيداع: 1605/ 2017

الترقيم الدولي: 4 – 295 – 751 – 977 - 978

حقوق النشر محفوظة

روافد للنشر والتوزيع

روافد للنشر والتوزيع

القاهرة ج. م. ع

+2 01222235071

rwafead@gmail.com

www.rwafead.com

تصميم الغلاف: نور إسلام

مقدمة

روبير فوريسون والمراجعة التاريخية

يَضمُّ هذا الكتاب مجموعةً مِن أهمّ الدراسات والأبحاث والمقالات، التي كتبها البروفيسور روبير فوريسون Robert Faurisson، ونَشر مُعظمها في كتابه الضخم "كتابات مراجعة" الذي صَدر بالفرنسيَّة عام 1999م. ومنها المدخل الذي يُقدّم فيه مدرسة "المراجَعَة التاريخيَّة"، ويُلقي أضواءً شاملةً عليها. كاشفًا للقارئ للمرة الأولى منذ نهاية الحرب العالميَّة الثانية عن تفاصيل دقيقةٍ، حول ما يعتبره الأكذوبة الأكبر في عصرنا وهي أُكذُوبة "غُرَف الغَاز" النازيَّة، وهو المجال الذي تفرغ فوريسون لدراسته منذ أواخر سبعينيَّات القرن الماضي.

إنَّ مُعظَم؛ إنْ لم تكنْ كلّ كُتب وكتابات روبير فوريسون ممنوعة في فرنسا، ومحظورًا تداولها في مُعظَم الدول الأوروبيَّة (الديموقراطيَّة)، طِبْقًا للقوانين المقيّدة لحُرّيَّة البحث والتفكير في موضوعٍ واحدٍ فقط، يتعلق بجماعةٍ بشريَّةٍ صغيرة العدَد نسبيًّا في العَالَم كلّه، هي الجماعة اليهوديَّة. والموضوع المقصود هو موضوع "الهُولُوكُوسْت"، أو الإبادة الجماعيَّة المزعومة التي تعرّض لها اليهود، إبّان الحِقْبة النازيَّة في ألمانيا قبْل أكثر مِن نصف قرْن. وهُو "حدَثٌ" نُحتتْ الجماعات

والمنظَّمات اليهوديَّة في العالم في جَعله الحدَث الأكثر أهميَّةً في القرن العشرين، بَل ومِن المتوقع أنْ يَمتدَّ تأثيره لفترةٍ طويلةٍ في القرن الحالِي أيضًا.

مَا دَفعَنا إلى اختيار المواد التي يَضمُّها هذا الكِتاب، أنَّها تَفتح نافذةً على أفكار وأبحاث فوريسون مِن زوايا مُتعدّدة، خاصةً أنَّه كتبها على فتراتٍ مختلفةٍ، بما في ذلك المقالة -أو بالأحرى الكلمة- التي كان يعتزم توجيهها إلى القَادة العَرب، أثناء مشاركته في مؤتمر "الصُّهيونيَّة والمراجَعَة التاريخيَّة" Zionism and Revisionis، الذي كان مُقرّرًا له أنْ ينعقد في بيروت في مارس 2001م. غير أنَّ الضغوط الهائلة التي مارستَها المنظَّمات الصهيونيَّة، في الولايات المتَّحِدة والعَالَم كلّه على الحكومة اللبنانيَّة، إضافةً إلى الضغوط المباشرة مِن جانب وزارة الخارجيَّة الأمريكيَّة، تضامنًا مع المنظَّمات الصهيونيَّة، أدَّتْ إلى إلغاء انعقاد المؤتمر في اللحظة الأخيرة، وبعد أنْ بدأ توافد المشارِكين. وكلُّها قُصَّةٌ سيّئة السمْعة، يَعرفها مَن تابعوا الضجَّة التي أحدثَتْها -في ذلك الوقْت- القِوَى والجماعات والمنظَّمات الصهيونيَّة داخِل وخارِج إسرائيل.

ومِن حُسن الحظّ؛ أنَّ الكثير مِن كتابات فوريسون مُتاحةٌ حاليًا لكلّ مَن يرغب على شبَكة الإنترنتّ، مع غيرها مِن الكتابات الهامّة لمراجِعِي التاريخ مِن خلال بعْض المواقع الإلكترونيَّة، وأهمُّها موْقع "معهد المراجَعَة التاريخيَّة" (في لوس أنجيليس، كاليفورنيا) وهو المعْهد

الذي ظلَّ يُوالي نشر مُعْظم كتابات فوريسون باللُّغة الإنجليزيَّة، في الدوريَّة التي يُصْدِرها منذ عام 1979م.

وليس المقصود مِن نَشر هذا الكِتاب، الدعوة إلى اعتناق كلّ ما يَرِد فيه مِن أفكارٍ وآراءٍ واستنْتاجَات. ولكنَّ الهدَف الأساسيّ؛ هو لَفْتُ الانتباه إلى أهميَّة الاطِّلاع على وجهة النظر الأخرى "المحظُورة"، رغم اعتمادها – خلافًا للكتابات الشَائِعة في موضوع "الهُولُوكُوسْت" – على البحْث العلميّ الدقِيق، والمعايَنة المباشرة للمَواقِع، والاعتماد على المنْطق الاستدلَاليّ، وعلى عُلوم الكِيمياء والفِيزياء والبحْث التاريخيّ العمِيق. في وقتٍ لا تَكفُّ فيه الصحافة العالميَّة وأجهزة الإعلام المرئيَّة والمسمُوعَة في الغرْب لحظةً واحدةً، عن تَردِيد فكرةٍ واحدةٍ هائلةٍ عن "غُرَف الغَاز" النازيَّة المخيفة، التي قُتِلَ داخلها سُتَّة ملايين يهوديّ، دُونَ أنْ يَشرح أحدٌ كَيف كان مُمْكِنًا أنْ يحْدث هذا عِلميًّا وعَمليًّا، وليس استنادًا إلى ما تَرْويه عشرات الأفلام مِن قصَصٍ مثيرةٍ للمشاعر، تُصوّر مِن وِجهَة نَظْرٍ أحاديّةٍ، الصراع الذي دَار وراح ضحيَّته أكثر مِن أربعين مليونًا مِن البشَر، باعتباره صرَاعًا بين جَانبٍ همجيّ كان يَستخْدم أقصى ما وصَلتْ إليه تكنولوجيا القتل في عصره، ضِدَّ جنسٍ كاملٍ مِن اليهود الأبرياء وجانبٍ آخر إنسانيّ كان يُدافِع طوال الوقْت عن قِيَم الديموقراطيَّة والعدْل وحقُوق الإنسان ونُصْرة المظلوم. وكأنَّ الحرب العالميَّة الثانية ما زالتْ قائمةً حتّى اليوم، وكأنَّ الحُلفَاء الذين حارَبوا ألمانيا النازيَّة، ما زالوا في حَاجةٍ إلى آلة

الدعاية العاطفيَّة والمعنويَّة، في حَربهم الوهميَّة ضِدَّ عَدوٍّ اندَحَر وانتهَى أمره منذ زمنٍ بعيد.

لماذا؟ ولمصلحة مَن؟ هذا الإصرار على مُواصَلة ترديد الدعايات وتضخيم المبالغات والتباكي على ما وَقَع في الماضي. في وقتٍ نرى ويَرى العالم كلّه مِن حولنا إسرائيل تَشُنُّ أعنف هُجومٍ عسكريٍّ مُسلَّحٍ، ليلاً ونهارًا ضِدَّ شعبٍ صغيرٍ أَعْزَل، لا يفعل أكثر مِن أنَّه يُطالب بحقّه في الحياة. هذه الحرب هي في الحقيقة؛ حرب تجويعٍ وتخريبٍ وطردٍ واستبعادٍ وهَدمِ مَنازِلٍ واغتيالاتٍ مُنظّمةٍ وقتلٍ عشوائيٍّ بكلّ أنواعِ الأسلحة. أو بمعنى أصحّ؛ "حَرب إبَادة" حقيقيّةٍ يشنُّها طرفٌ مُحتلٌ ضِدَّ شَعبٍ خاضعٍ للاحتِلال. ودون أنْ تُحرّك "الديموقراطيّات الغربيَّة" ساكنًا منذ أكثر مِن ستين عامًا، ودون أنْ تهتمَّ أجهزة الإعلام في الغرب بتلك الإبَادة الجديدة الممتدة في القرن الحادي والعشرين. في وقتٍ يتزايد اهتمامها بالتركيز على "الهُولُوكُوسْت"، وكأنَّها تُبرّر ما يتعرض له الشعب الفلسطينيّ، بما تزعم المنظمات الصهيونيَّة التي تُسيطر على أجهزة الإعلام نفْسِها، أنه وَقَع لليهود في أوروبّا على أيدي النازيّين، ودون أنْ يتجرأ أحدٌ على رفع صوته، مُحذّرًا مِن الفاشيَّة الأشدّ والأعنف، التي لا تزال تَضرب وتَحرق وتُدمّر يَوْمًا بعد يومٍ في فلسطين وغيرها.

لقد كان "الهُولُوكُوسْت" وما زال وسوف يستمر، الأساس الأخلاقيّ الذي تقوم عليه دولة إسرائيل الصهيونيَّة، كما سيتضح في

هذا الكتاب. وفي نهاية أُسطورة "الهُولُوكُوسْت" نهايةٌ للصهيونيَّة، التي قامت على أكثر النظريّات العنصريَّة والأفكار التدميريَّة في التاريخ: تدمير حضارة وثقافة ووجود شَعبٍ كاملٍ، ومحاولة زرع شَعبٍ آخر مكانه، تحميها في هذا كلُّ القوى الكبرى في العَالَم، منذ نشأتها وحتّى اليوم. ورغم أهميَّة الموضوع الذي يُناقشه البروفيسور فوريسون في الكتابات التي يَضمُّها هذا الكتاب، إلّا أنَّه ليس كتابًا في السياسة؛ بَل في البحث التاريخي الذي يتجاوز كثيرًا كلّ ما سبقه في هذا المجال مِن دراساتٍ وأبحاث.

مَن هو إذن روبير فوريسون؟ وكيفَ أَمكَن له أنْ يثير كلّ ما أثاره مِن ضَجّةٍ في فرنسا والعالم؟ وما هو منهجه في "المراجَعَة التاريخيَّة" التي يعتبرها نقيضًا للأيديولوجيَّة؟ وكيف يُمكن قراءة أعماله؟ وما هو الثمن الذي كان يتعين عليه أنْ يدفعه، بعد أن تجرأ على تحدي ذلك "التّابُو" الأكبر في عَصْرنا، كما لم يفعلْ أحدٌ مِن قبل؟

وُلِد روبير فوريسون في بلدة شيبرتون جنوب انجلترا عام 1929م. لأبٍ فرنسيّ وأُمّ اسكتلنديَّة. وقَضى فترةً مِن طفولته في سنغَافُورة واليَابَان، ثُمّ عاد مع أسرته إلى فرنسا. حيث دَرَس بالمدارس الكاثوليكيَّة في الفترة مِن 1937م إلى 1946م. وبعد ذلك التحق بجامعة "السُّوربُون" حيث دَرَس الآدَاب اللاتينيَّة واليونانيَّة والفرنسيَّة، وحصَل عَلى أعْلى درجةٍ علميةٍ تَمنحها الجامعات الفرنسيَّة في دراسة هذه اللغات عام 1956م. وفي عام 1972م حصَل فوريسون عَلى

شهادة الدُكْتُوراة في الآدَاب والعُلُوم الإنسَانيَّة. وتَخصّص في نَقد وتحليل الوثائق والنصوص. وقد تأثر فوريسون كثيرًا بقراءة كتابَات وكُتْب المؤرخ الفرنسيّ بول راسينييه بَدْءًا من عام 1960م.

ويُعتبَر راسينييه المؤَسِّس الحقيقيّ لتيار "المراجَعَة التاريخيَّة" في فرنسا والعَالَم، وهو أستاذٌ في التاريخ والجغرافيا ومِن دُعَاة السلام. وكان قد انضمَّ في شبابه إلى صفوف الحزب الشيُوعيّ الفرنسيّ، ثُمَّ هَجَره عام 1936م وانضمّ للحزب الاشتراكيّ. وبعد اندلاع الحرب العالميَّة الثانية، ثُمَّ وقوع فرنسا في قبضة الاحتلال الألمانيّ، التحق راسينييه بصفوف المقاومَة الفرنسيَّة ضِدَّ الاحتلال الألمانيّ. واعتقلته قُوّات "الجسْتَابو" النازيّة عام 1943م. وقامت بترحيله إلى معسكر الاعتقال الشهير في "بوخنفالد" ثُمَّ إلى معسكر "دورا" في ألمانيا، حيث ظلَّ حتّى نهاية الحرب. وبعْد عودته إلى وطنه مَنحَتْه الدولة مِيداليَّة الشجاعة، تقديرًا لدوره في المقاومة ضِدَّ الألمان. ثُمَّ انتُخِب عُضوًا في الجمعيَّة الوطنيَّة الفرنسيَّة (البرلمان) كنائبٍ عن الحزب الاشتراكيّ. ثُمَّ تقاعد عن العمل البرلمانيّ وتَفرّغ للبحث التاريخيّ وتَألِيف الكُتُب.

بعد عودته إلى فرنسا، دُهِشَ راسينييه كثيرًا لِمَا استَمَع إليه مِن قصصٍ متنوّعةٍ، أخذ يُردّدها زملاءٌ له كانوا معه في معسكرات الاعتقال. ثُمّ رَأى وَقَرأ الكثير مما نشرته الصحافة مِن قصصٍ هائلةٍ، تدور حول "الإبَادة الجمَاعيَّة" التي تعَرَّض لها اليهود على أيدي

النازيّين في "غُرَف الغَاز" كما زَعمُوا. وكان راسينييه يَعْرِف الحقيقة، فقد رآهَا بعينيه في معسكرات الاعتقال، واستمع إلى قصصٍ حقيقيَّة، مِن عشراتٍ مِن السجناء مِن اليهود وغير اليهود، الذين وَفَدوا على المعسكَرَيْن اللذَيْن قَضَى فيهما نَحْو ثلاث سنوات. وفي ضوْء ذلك قَرَّر راسينييه العودة إلى ألمانيا، لكي يَبحث بنفْسه عن الحقيقة، ويُجْري مِن الأبحاث ما يُمكِّنه مِن تأسيس الحقيقة، فيما يتعلق بمعسكرات الاعتقال الألمانيَّة وما يُقَال عن "غُرَف الغَاز". وقد أصدَر كتابه الأول "رحلة القطار" عام 1948م، وفيه يروي قصّة اعتقاله. ثُمّ كتابه الثاني الأهمّ "أُكذوبة عُولِيس" عام 1950م، وفِيه يَكشِف المبالغات والأكاذيب التي تردَّدت، حول إعدام ملايين الأشخاص في "غُرَف الغَاز"، التي لم يكن لها وجود حَسْبَما توصّل.

ويَرى راسينييه في كتابه هذا، أنَّ "عوليس" بطل "الأدويسة" عندما عاد مِن رحلاته الطويلة أخيرًا إلى بلاده، وَجَد أنَّ ما لديه مِن قصَصٍ يَرويها لأصدقائه لا يمكن أنْ تُلفِت انتباهَهم أو تُثير إعجَابَهم، لذا فقد لجَأَ إلى اختراع الكثير مِن القِصَص والمبالغات، لكي يَستدرَّ العطف ويُثير الإعجاب. وبهذه المقارنة يشير راسينييه إلى المبالغات العديدة التي تمتلئ بها القصَص عن الفظائع المرعبة، التي تَعرَّض لها اليهود في معسكرات الاعتقال، خلال الحرب العالميَّة. ويكشف راسينييه في كتبه التالية.. "عُولِيس يَخُونه أصدقاؤه" 1960م. و"محاكمة أيخمان الحقيقيَّة" 1962م. و"دِرامَا اليهود

الأوروبيِّين" 1964م. و"المسؤولون عن الحرب العالميَّة الثانية" 1967م.. رؤيته التاريخيَّة التي تعمقت ووصلت إلى حَدِّ إعلانه بشجاعةٍ -رغْم كلّ ما تعرَّض له مِن ضغوطٍ وهجومٍ وتهديدات- أنَّه "لمْ تكن هناك قَطّ غُرف غَاز أو إبَادة في معسكر أوشفتز-بيركناو".

ومِن تأثره الكبير بكتابات راسينييه، انطلق فوريسون إلى استكمال البحث في الموضوع، خاصةً بعد اطّلاعه على الرسالة التي بَعث بها البروفيسور مارتن بروزات Brozat، مدير معهد ميونيخ للتاريخ المعاصر عام 1960م. فقد بَعَث هذا المؤرِّخ الرسميّ -المعروف بموقفه الذي يَتبنى تمامًا نظريَّة "الإبادة الجماعيَّة" و"غُرَف الغَاز"- برسالةٍ إلى مجلة "دي زايت" الألمانيَّة الأسبوعيَّة في 19 أغسطس1960م، يقول فيها: "إنَّه ثَبَت عدَم وجود غُرَف غازٍ في كلّ المعسكرات النازيَّة، التي كانت تقع داخل أراضي الرايخ القديم، باستثناء ما وُجِد منها في بعض الأماكن في بولندا". وكان عنوان رسالة بروزات "لا إبادة بالغاز في داخاو"، إشارةً إلى ذلك المعسكر الرهيب الذي كان مِحْورًا لمئات الشهادات، التي قدَّمها شُهود مِن اليهود ومِن المسؤولِين النازيّين على السواء. بَل إنَّ المسؤولِين الألمان عن معسكر داخاو وغيره مِن المعسكرات في الأراضِي الألمانيَّة، أُدِينُوا وأُعْدِموا في محاكماتٍ رسميةٍ علنيةٍ، نَظَّمها الحُلفاء وأحاطوها بأكبر قَدْرٍ مِن الدعاية!

كان مِن الطبيعيّ أنْ يُفكّر فوريسون على النحو التالي: إذا لَمْ تكن المعسكرات الموجودة في ألمانيا قد عَرفَتْ وجود "غُرَف الغاز"، فما هي حقيقة تلك المباني التي ظلّ الحُلفَاء يحتفظون بها ويَعْرِضُونها للسيَّاح طوال الوقت مُؤكّدِين أنَّها "غُرَف غاز"؟ وإذا كانت تلك الغُرَف زائفةً، فما الذي يمنع أنْ تكون الغُرَف الأخرى الرهيبة، الموجودة في معسكر "أوشفتز" في بولندا مثلاً زائفةً أيضًا؟ وعَلى أيّ أساسٍ بَنَى بروزات تأكيداته دون أنْ يردَّ عليه أحدٌ في ألمانيا بما يَدْحض مزاعمه؟ خاصةً وأنَّه مِن المؤرخِين الرسمِيِين للمؤسسة الحاكمة المتعاوِنة بالكامل مع الحُلفَاء. وهل أَنْزل الحُلفَاء عقابهم بأبرياء؟ وهل كانت الشهادات التي صُوِّرت لنا على أنَّها "اعترافاتٌ" صريحةٌ مُجرَّد تلفيقاتٍ وأكاذيبٍ، ولماذا؟ وما هي الحقيقة في أمر مُعسْكرٍ واحدٍ داخل الأراضي الألمانيَّة هو معسكر "بيرجن-بيلسن"؟ الذي ذاعت قصص ما وقع فيه مِن إبادة في "غُرَف الغَاز"، لدرجة نشر صُورٍ في الصحف لجنودٍ أمريكيِين أمام غُرفَة الغَاز المزعومة في هذا المعسكر وغيره، وأيضًا لقطات الجريدة السينمائيَّة المصوَّرة التي شاهدها ملايين المشاهدين في العَالَم بعد الحرب، والتي تُصوِّر أكوامًا مِن الجثث عُثِر عليها داخل المعسكر بعد تحريره. هذه الأسئلة وغيرها، دَفعتْ فوريسون إلى دراسة الأمر بنفْسه، فذهب إلى أوشفتز- بيركناو وماجدنيك وغير ذلك مِن المعسكرات، وكان أول شخصٍ في العَالَم يَعْثر على الخرائط الأصليَّة لتصميم مباني المحْرَقتين الأولى والثانية في

أوشفتز، التي زُعِمَ أنَّهما كانتا تحتويان على "غُرَف الغَاز"، وأَثبَتت الخرائط التي نَشرَها أنَّ تلك الغُرَف التي أُشيرَ إليها باعتبارها غُرَف غازٍ داخل تلك المنشآت الهَائِلة، لم تكن في الحقيقة إلَّا مُستَودعاتٍ أو غُرَفًا باردةً لحفظ الجثَث، أي ما نُسمِّيه غُرَف "المشرَحة".

وقد واصل فوريسون أبحاثه على الغاز الذي كان الألمان يستخدمونه في تطهير الثكنات، كإجراءٍ وِقائيٍّ ضِدَّ انتشار وباء الطاعون، وهو غاز الهيدروسيانيك (أو سيانيد الهيدروجين) الذي ينتج عن المبيد الحشريّ المعروف باسم "زيكلون ب"، والذي يُصرُّ أصحاب نظريَّة الإبادة على أنَّه الغاز الذي استخدمه الألمان في قتل ملايين الضحايا. وقد اطَّلع فوريسون على خصائص هذا الغاز واستخداماته، وطُرِق استخدامه في التطهير واحتياطات الأمن الشديدة التي يجب تَوفُّرها، حسب وثائق وزارة الدفاع الفرنسيَّة (لم يكن هذا الغاز قاصرًا على الألمان). ثُمَّ ذَهَب إلى بالتيمور في الولايات المتَّحدة، لكي يُجْرِي أبحاثه على "غُرَف الغَاز" الموجودة في السجون الأمريكيَّة، والتي تُستَخدم في إعدام المجرمين. وقَضَى فوريسون أربع سنوات (من 1974م إلى 1978م) في دراسة الوثائق المتوفِّرة، في مركز الوثائق اليهوديَّة المعاصرة في باريس، إلى أنْ أصدر مدير المركز قرارًا بحظْر دخوله، بعد أنْ أصبح نشاطه معروفًا في ضوء الأحداث الشهيرة التي سنأتي على ذكرها.

في أبريل عام 1974م، بعث فوريسون الذي كان يعمل في ذلك الوقت أستاذًا مساعدًا للأدب في جامعة السوربون، خطاباتٍ إلى عددٍ من المؤرخين والباحثين المتخصصين، تضم عدّة أسئلةٍ.. من بينها السؤال التالي: "هل تبدو لك "غُرَف الغَاز" الهتلريَّة أسطورةٌ أم حقيقة؟"، شارحًا الأسباب التي تجعله يتشكَّك في صحتها. وقد وجّه فوريسون نسخةً من خطابه هذا، إلى مدير معهد التوثيق اليهودي في تل أبيب، فهو لم يكن يعرف أنَّ الرجل كان قد مات مؤخرًا. ووصلت الرسالة إلى إحدى الصحف الإسرائيليَّة، التي نَشَرتْهَا ونَشَرتْ تعليقًا عليها، ثُمّ التقطتها صحيفةٌ أسبوعيّةٌ يهوديّةٌ في فرنسا، فأقامت ضجّةً كبيرةً ضِدَّ فوريسون، وصَلَت إلى المسؤولين في الجامعة التي يعمل بها. خاصةً وأنه استَخدَم الورَق الرسميّ للجامعة في كتابة خِطابه. وصَوّرت الصحافة الباريسيَّة ما حدث، كما لو كان فوريسون قد كتب "مقالا" يُعلن فيه "إنكاره" للهُولُوكُوسْت، في حين أنَّه لمْ يكنْ أكثر مِن خِطابٍ شخْصيّ.

في ضْوء ذلك، أَصْدر مجلس الجامعة قرارًا بتوبيخ فوريسون دون السماح له بالدفاع عن نفْسه، وأَرسَل المجلس استنكارًا إلى الصحيفة يُعلِن فيه تَبرّء الجامعة مِن سلوكه. وجَاءت المشكلة الكُبرى الثانِية التي عُرِفَت في فرنسا كلّها باسم "قضيَّة فوريسون" في أواخر عام 1978م، وكان في ذلك الوقت قدْ أَصبَح أستاذًا مُساعِدًا في جامعة "ليون"، تَرفُض الجامعة تَرقِيتَه إلى دَرَجة أُستَاذ، عِقابًا له على مَوْقفه

في موضوع "الخِطَاب" الشهير قبل سنوات. في أكتوبر 1978م، نَشرَت صحيفة "الاكسبريس" اليوميَّة الفرنسيَّة مُقابَلةً مع لويس داركير الذي كان مَسؤولاً عن الشؤون اليهوديَّة في حُكومة فِيشي (التي تَعاونتْ مع النازيِّين أثناء احتِلال فرنسا). وكان هذا الرجل قدْ تَقاعَد منذ نهاية الحرْب في إسبانيا. في هذه المقابَلة، وردًّا على سؤالٍ بشأن "غُرَف الغَاز"، صَرَّح داركير بأنَّ أحدًا "لَم يُقتَل بالغَاز في مُعسْكر أوشفتز إلَّا القَمْل". وقَدْ أقام هذا التصريح الدُّنيَا ولمْ يُقعِدْها، فكَيْف تَنشُر صحيفةٌ مُحتَرَمةٌ حديثًا لرَجُلٍ مِن هذا النوع، لا يُمكن للقضاء الفرنسيّ أو للجماعات المتحمِّسَة للانتقام أنْ تَنَال مِنه بسَبب وجُوده خارج فرنسا. وهُنا اتّجهتْ أنظار المنظَّمات اليهوديَّة، التي لديَّها دائمًا القُدْرة على تحريك الجمَاعات اليهوديَّة والشباب المتَعصِّب المستَعدّ للانقِضَاض والتخْريب، إلى روبير فوريسون.

لقدْ تذكَّروا بالطَّبع قِصَّة ذلك الخِطاب الذي يُدِي فيه تشكُّكه في "غُرَف الغَاز". وفي الوقت نفْسه كان فوريسون فريسةً سهلةً، فهُو يُقيم في الأراضي الفرنسيَّة ومِن الممكن اصطِيَاده وجَعْله عِبْرةً لِغَيْره. وعلى الفور اتَّجهتْ إلى جامعة ليون جماعاتٍ مِن الغَوْغاء والمخَرِّبين المحتَرِفِين مِن اليهود الصهاينة المتعصِّبين، مُعظَمهم يَتنكَّرون في ثياب الطلاب، مُتظَاهِرين ضِدَّ فوريسون مُطَالبِين بطَرْده، واعتَدَى بَعْضهم عليه بالضَّرْب. وهذا السلوك سَيُصبح حدَثًا شِبْه يوميٍّ فيما بعد في حياة فوريسون، بَل وبدرجةٍ أكبر كثيرًا مِن ذلك.

ويَروي سيرج ثيون Serge Thion تفصيلاً في كتابه "الحقيقة التاريخيَّة أو الحقيقة السياسيَّة؟" (1985م) ظُرُوف ومُلابَسَات "قضيَّة فوريسون"، فيقول إنَّه بعد أنْ نَشرتْ "الاكسبريس" مُقابَلة داركير، التَقَطتْ صحيفة "لوماتان دو باري" الخيْط، فكلَّفتْ مُراسِلها في ليون بإجراء مُقابلةٍ مع فوريسون، غير أنَّ الأخير أَصَر على أنَّه لا يُمكن له أنْ يَقْبل إلَّا بالإجابة كِتابةً عن الأسئلة التي يَودُّ المراسل طَرْحها عليه، وأنَّ على الصحيفة أنْ تَتعهد بنَشر نَصّ الإجابات كاملةً، على أنْ يُؤخَذ رأي فوريسون في عنوان الموضوع. وتَصوَّر فوريسون أنَّه تَوصَّل إلى اتفاقٍ مع الصحفيّ، أو هكذا أَوحَى إليه الصحفيّ المراسل، فَتَرَك نفْسه "يُدَرْدِش" معه، واستَدْرَجه الأخير للإجابة عن أسئلته، مُصوِّرًا له أنَّ هذا كلّه ليس سِوى مُقدِّمةٍ للأسئلة المكتوبة. لكنّ ما حدَث أنَّ الصحفيّ غَافَل فوريسون وسجَّل له ما قَالَه، ثُمَّ تَلاعب بالحديث المسجَّل ونَشَره، مع إغفال الكثير مِن إجابات فوريسون، بَل وأَضَاف إليها ما لَمْ يُصرِّحْ به الرجل، ووَضَع عنوانًا له مثيرًا، هُو: "داركير لَيس وحْده. البعْض يَصف كلماته عن معسكرات الإبادة النازيَّة بأنَّها مجنونة، وروبير فوريسون المدرِّس في جامعة ليون يُؤيِّده"!

والحقيقة أنَّ إجابة فوريسون عن سؤالٍ بخصوص تصريحات داركير، كانتْ كالتالي: إنَّ أمر السيد داركير لا يَهمّني، إنَّه مِن نوع الرجال الذين سأظلُّ أُنَاضِل ضِدَّهم طِيلة حياتي". بالطبع استغلَّت

الصحف الفرنسيَّة الأخرى ما نُشِر، وشنَّت هُجومًا عنيفًا على فوريسون، وأَخذتْ تَخترع أشياءَ لَمْ يُصرِّحْ بها لِلَفْتِ الأنظار، وهُنا كان على فوريسون أنْ يَرُدَّ، فأَرسَل إلى "لوماتان" رَدًّا قال فيه "إنَّني أُصرِّح فقط بمُقابلاتٍ مَكتُوبة. لقدْ حذَّرتُ مُراسِلَكم بقُوَّة، لكنَّه قام بقَطْع ولَصْق أشياء مِن كتاباتي، وفضلاً عن هذا صوَّرني باعتباري مُعَادِيًا للساميَّة. إنَّني لستُ مُهتَمًّا، لا بالاشتراكيَّة الوطنيَّة التي ماتتْ في 30 أبريل 1945م، ولا بـ"النوستالجيا" النازيَّة الجديدة. وبوجهٍ خاصٍّ؛ لا أهتمُّ بالعرْض الفضائحيّ لدُكَّان الجنس النازيّ كما يَحدث في أجهزة الإعلام، ولا حتَّى بالمؤرِّخِين الرسميِّين. لقد قَضيتُ أربع سنواتٍ في دراسة فرضيَّة بول راسينييه (وهُو مُناضِلٌ حقيقيٌّ شُجَاع ضِدَّ النازيَّة، ومُعتقَلٌ سابقٌ في معسكراتها)، وقَضيتُ أربع سنواتٍ أُخرَى في القيام بأبحاثي الشخصيَّة في المعسكرات، إلى أنْ اقتنعتُ بأنَّ "غُرَف الغاز" الهِتْلريَّة لم يكنْ لها وجُود. هلْ مِن الضروريّ حَجْب هذه الأخبار، أو يَجب نَشْر الأخبار الجيِّدة في النهَايَة؟".

لكنَّ الصحيفة لَمْ تَنشرْ الردَّ بالطبع. وهُنا لجَأ فوريسون إلى القضاء، وصَدَر حكمٌ يُدِين الصحيفة، بِسبَب ما أقدمتْ عليه مِن نَشْر افتراءاتٍ وتشويهٍ لا أسَاس له. ولكنَّ الغريب أنَّ حَيْثيَّات الحُكْم التي تُنشَر عادةً بشكلٍ طبيعيٍّ بناءًا على طَلَب المدَّعي، لمْ تُنشَرْ في هذه الحالة، فقَدْ حَظَرت المحكمة نَشْرها بِسبَب "الظروف الخاصَّة للقضيَّة" كما جَاء في تبرير المحْكَمة!

ومِن جَانبها، نَشرتْ صحيفة "لوموند" تصريحًا لرئيس جامعة ليون، يُعلِّق فيه على ما جاء في "المقَابَلة" المزعومة التي نشرتها "لوماتان"، ويُشكِّك في كفاءة فوريسون الأكاديميَّة، ويُعلِن أنَّ الجامعة لَا تَستطِيع أنْ تَضمَن سلامته. وجاء ردُّ فوريسون على هذا قاسيًا، فَاتَّهَمَ رئيس الجامعة بتحريض زملائه الأساتذة على توقيع عريضة ضِدَّه، أَصْدَر على إثْرِها أمرًا بإيقافه عن التدريس".

وانتهز فوريسون الفُرْصة ودَعَا إلى فتْح مُناقشةٍ علنيَّةٍ حَوْل حقيقة "غُرَف الغَاز"، وإعادة النظَر في التاريخ الرسميّ المنشور، مُدَلِّلاً على المبالغات العديدة التي تَسُود الرواية الرسميَّة لموضوع "الهُولُوكُوسْت". وقدْ أَدَّى هذا المقال، وكان بعنوان "إشاعة أوشفتز"، إلى عاصفةٍ مِن الردُود والمقالات التي تَعْزِف كلُّها على نغمةٍ واحدةٍ، وانتهى الأمْر بالطَّبع إلى ساحة القضاء، ثُمَّ امتنعتْ "لوموند" وغيرها مِن الصحُف عن نَشْر الردود، التي ظلّ فوريسون يُواصِل كِتابتها وإرسالها. ها هو أستاذٌ جامعيٌّ يَجِد نفْسه فريسةً لمجتمعٍ مِن الكُتَّاب اليهود، الذين يَتمسَّحُون بالفِكْر الاشتراكيّ والدفاع عن حقُوق الأقلِّيَّات ومُناهَضَة العنصريَّة والعداء للساميَّة، ثُمَّ يُصبح مَطرودًا مِن عمله، تُشوَّه سُمْعَته ويُسَاء إليه يوميًّا، ويَتعرَّض للاعتداء بالضرْب، ورَشِّ الأحماض في وجْهه وكَسْر فَكِّه، مِمَّا جعله يَلزَم المستشفى لمدَّة أربعِين يومًا، ثُمَّ أَخَذ ينتقل مِن قضيَّةٍ إلى أُخرى مِن القضايا التي تَرفعها ضِدَّه المنظَّمات

اليهوديَّة الصهيونيَّة، تارةً بتُهْمة "الإساءة إلى ذِكْرى الضحايا اليهود"، وتارةً أُخرى بتُهْمة نَشْر كِتابَاتٍ "تُحرِّض على العداء للساميَّة".

ومِن قضيَّةٍ إلى أُخرى، تَستَمع المحاكم لشهادات شهود الزُّور، وتَتراجع أمام التزيِيف وحَمْلات النُّبَاح في الصحافة، ويَصْدر الحُكْم وراء الحُكَم على فوريسون إمَّا بالسجْن مع وقف التنفِيذ، أو بَدْفع غراماتٍ ماليّةٍ باهظَة، وإذا حَكمتْ المحْكَمة لصالِحه، فإنَّها لا تَحكم له إلَّا بتعويضٍ رمزيٍّ (فرنك فرنسيّ واحد ليس أكثر، قَبْل ظهور اليورو بالطبع!)، وتَحْظر نَشْر حيثيَّات الحُكْم علانيَّة. وقد بَلغَ الأمر بعد ذلك في عام 1990م، إلى حَدِّ إصدار قانونٍ خاصٍّ في فرنسا يُجرِّم الاجتهاد الفكريّ في تفسير الهُولُوكُوسْت. وكَان هذا القانون تحدِيدًا مُوجَّهًا إلى فوريسون وزملائه، وسَوْف يُشير إليه فوريسون مِرارًا في صُلْب مَواد هذا الكتاب.

روبير فوريسون ليس مِن النازيِّين الجُدد كما تَتَّهمه الدعاية الصهيونيَّة. فهو لا يُكِنُّ أيَّ احترامٍ للنازيَّة أو الاشتراكيَّة الوطنيَّة، ويَعتبر أنَّها أيديولوجيَّة اعتمدتْ على شخصٍ واحدٍ ديكتاتورٍ هو هِتْلر، كما أنَّها انتهتْ مُباشرةً بانتحاره عام 1945م، ويقول إنَّ المراجِعين لا يُمكن أنْ يَكونُوا مِن الجنون بحيْث يَحلمُون بعودة النازيَّة مُجدَّدًا. ويُعْلن فوريسون أنَّه يَعتبَر نفْسه رجلاً "لا سياسيّ" apolitical، أيّ أنَّه لا يَعتنق أيديولوجيَّة سياسيَّة محدَّدة، ولم يسبقْ له أنْ كان عُضْوًا في أيّ حزبٍ مِن الأحزاب القائِمة في الساحة السياسيَّة الفرنسيَّة، وأنَّ

اهتمامه الأساسيّ يَنصَبُّ على دراسة التاريخ، تاريخ الحرب العالميَّة الثانية، مُعِيدًا النظَر في الكثير مِمَّا أحَاط بها مِن قصَصٍ وحكاياتٍ بلغتْ في رأيه مُستوى "الأُسْطورة الدينيَّة" في موضوع "الهُولُوكُوسْت". وهو يَرى أنَّ أساس "الهُولُوكُوسْت" يَكمُن في "غُرَف الغَاز"، وأنَّ المجتمعات الأوروبيَّة الحديثة التي تَسْمح بالبَحْث الحرِّ في أيِّ قضيَّةٍ، تَحْظر -بضغوطٍ شديدةٍ مِن المنظَّمات اليهوديَّة في العَالَم التي تَملِك القُوَّة والنفُوذ- التعرُّض للرواية الشائعة فيما يَتعلق بموضوع "الهُولُوكُوسْت"، وأنَّ هذه المجتمعات تَخشَى ظهور الحقيقة، لأنَّ مَعنَى هذا أنَّها خاضت الحرب العالميَّة الثانية مِن أجْل توسيع نفوذها وسيْطرتها، وليس مِن أجْل هزيمة الفاشيَّة والنازيَّة ودفاعًا عن قِيم الديموقراطيَّة. أمَّا المنظَّمات اليهوديَّة فهي تَشنُّ أعنَف هجومٍ ضِدَّ "المراجِعِين"، حِمايةً لمكتسباتٍ سياسيَّةٍ وماليَّةٍ هائلةٍ تَتعلق بوجود دولة إسرائيل نفْسها. وليس مِن الصحيح أنَّ مُراجِعِي التاريخ مِن النازيِّين الجُدُد أو مِن أقصى اليمين السياسيّ، فهُناك مِن بينهم، مَن لديه مُيولٌ يساريَّةٌ واضِحةٌ ومَعرُوفة، ومِنهم باحثون وكُتَّاب مِن المدافعين عن الحرِّيَّات المدنيَّة، مِثْل الفرنسيّ سيرج ثيون، والأسترالي جون بينيت رئيس اتحاد الحرِّيَّات المدنيَّة، وعضو الكونْجرس الأمريكيّ السابِق بيت ماكلوسكي، ومُفكِّرون مِثْل روجيه جارودي، الذي اقتَرب كثيرًا مِن الفِكْر المراجِع وكان عليه أنْ يَدفع الثَّمَن أيضًا، وإنْ كان فوريسون يَعتقد أنَّ جارودي اضطر إلى التراجع عن موقفه، أمام الحملة القاسية

التي تَعرَّض لها في فرنسا، كما سَنرى في استِعْراض فوريسون لقضيَّة جارودي في هذا الكتاب، ومِنهم أيضًا بعض الكُتَّاب اليهود مثل جون ساك، وجوزيف جينسبرج، وهافيف شايبر. وكما رَأَيْنا، فقد كان بول راسينييه مُؤسِّس تيار المراجَعَة التاريخيَّة مِن اليسَار.

وكان أكثر مَن دَافَع عن فوريسون عند بروز قضيَّته المعروفة في فرنسا في أواخر السبعينيَّات، التروتسكيّ السابق بيير جيلوم، والتروتسكيّ -ربما حتَّى الآن- جان جابرييل كوهين بندت (شقيق زعيم الطلاب في مظاهرات 1968م المعروفة في باريس)، وقد أيَّده أيضًا كُتَّابٌ مشهودٌ لهم بالاستقامة والنزاهة والحُكْم السديد، مِثْل كلود كارنو ، وفنسنت مونتيف، وجان لوي تريستاني.

روبير فوريسون باحثٌ مِن طرازٍ فريدٍ حقًّا، فهو لا يَلجَأ في منْهجه إلى اللفِّ والدوران، أو الاستنتاجات السهلة المألُوفة، بل يَبذل جُهْدًا خارقًا في البحث الميدانيّ، ثُمَّ يَعكف على تفسِير الوثائق والشَّهَادات استنادًا إلى الكلمات التي كُتِبَت بها، فَهُو لا يُؤْمِن بالتفسير النفْسيّ، أو بالإحالة إلى الظروف التي كَتَب فيها الكَاتِب ما كَتَبَه، أو ظروف نَشْأَة المؤلِّف وحياته، بل يتعامل مُباشَرَة مع الكلمات ومعناها المبَاشر. وقد أَطْلَق فوريسون على مَنْهجه في تحليل الوثائق، اسم طريقة أجاكس Ajax Method (نِسبةً إلى أجاكس، وهو بطلٌ يونانيٌّ أسطوريٌّ مِن أبطال الحروب الطُّرْواديَّة)، وهي تَعْتمد على التعامل المبَاشِر مع النَّصّ، وتَرَى -كما يقول- ضَرورة النَّظر إلى

الكلمات قبل النَّظَر إلى روح الكلمات. ويَرى فوريسون أنَّ للنصوص مَعنىً واحِدًا، وإلَّا فلَنْ يكون لها معنىً على الإطلاق، وأنَّنا إذا عَزلْنا كلمةً ما عن سِياق النَّصّ قد نرى لها مَعانٍ عِدَّة، ولكِن بمُجرَّد وَضْعها في جملةٍ فسُرعان ما تفقِد معانِيها المتعدِّدة. ويدعو فوريسون في دراسَاتِه الأدبيَّة إلى ضرورة عَدْم الخَلْط بين "المعنى" و"الإحساس"، فقد يُولِّد نفْس النَّصّ مشاعر شديدة التنَاقض، ومِن الممْكن أنْ يَكتسِبَ شعورٌ ما مَعنَى. ولكنَّ هذا يَختلف عن مَنْح نَصٌّ ما عَشرَات المعانِي في وقْتٍ واحد. يقول فوريسون: "إنَّني عندما أُطَالبُ تلاميذِي بنَقْد نَصٌّ تاريخيٌّ عن نابليون مَثَلا، فإنَّني أَطْلب مِنهم ألَّا يَأخذوا في اعتبارهم رأيَهم الخَاص في نابليون، أو ما يَعرفونه عنه. ويُطلِق طلابيّ على هذه الطريقة (طريقة أجاكس) لأنَّها تَكْحَت وتُنظِّف وتُلمّع".

ولعلَّ مِن أسباب الحَمْلة العنيفة التي تَعرَّض لها فوريسون في فرنسا في أواخر السبعينيَّات، أنَّه كان قد كَلَّف طلَّابه في الجامعة بالبحث في حقيقة ما يُعْرَف بـ "مُذكّرات آن فرانك"، وهي المذّكّرات الذائعة الانتشار، التي تُرجِمتْ إلى العديد مِن اللغات في العَالَم وأَنتَجتْ هوليوود فِيلمًا شهيرًا عنها. والمفترَض أنَّ "آن فرانك" -وهي فتاةٌ يهوديَّةٌ هولنديَّةٌ صغيرةٌ لا يَتجَاوز عُمْرها 14 سنة- أُعتُقِلت وقَضَت فترةً في مُعسْكَرات الاعتقال، كَتبتْ خِلالها يوميَّاتها قَبل أنْ تَلقَى حتْفها (زعمًا) في "غُرَف الغَاز". وقد أَثبتَ فوريسون في كِتابٍ

خاصّ نَشرَه عن هذا الموضوع، كيف تمَّ تزييف مُذكِّرات آن فرانك، وكيف أنَّه كانَ مِن المستحيل أنْ تَكتبْ طِفلةٌ في هذا العمر في ذلك الوَقْت ما كَتَبتْ، بل إنَّه تَوصَّل حتَّى إلى أنَّ نَوْع الحِبْر الذي كُتِبتْ به المذكِّرات المزعومة لمْ يَكُن قد ظَهَر بعد في ذلك الوقْت. ورغمَ أهميَّة ما كَتَبَه فوريسون عن اكتِشَافَاتِه فِيمَا يَتعلَّق بمُذَكِّرات آن فرانك، فَقدْ رأيتُ مِن غير المنَاسِب تقديم تَرجمةٍ لما نَشَره في هذا المجال، نَظرًا لصعوبة مُتابعة القارئ لها دون العودة إلى المقارنة مع النَّصّ المنشور مِن المذكِّرات والنصوص التالية التي أُدخلتْ عليها تعديلاتٍ كثيرةٍ في طبعَاتها المتعدِّدة، وما تَعرضتْ له مِن قضايا أمام المحاكم تَورطتْ فيها أطرافٌ كثيرة، ونَصُّ آن فرانك الذي كتبه فوريسون وتحليله للمُذكِّرات المنشورة، هو نَصٌّ طويلٌ يَستحِقُّ أنْ يُنشرَ في كتابٍ مُنْفَصِل.

وسيُلاحظ القارئ في مُعْظم الدراسات والمقالات التي يَضمُّها هذا الكتاب، الشَّوْط الكبير الذي قَطَعَته المراجَعَة التاريخيَّة، بفَضل الدور البارز لروبير فوريسون، في مَجال إعادة النظَر في القضيَّة مَثار الاهتمام، الأمْر الذي انعَكَس بِقُوَّةٍ على تَراجُع الكثير مِن الدعاوي والمبالغَات والأكاذيب، التي ظلَّت تَخْضَع لها طَويلاً كِتابَات المؤرِخين الرسميِّين، مِن اليهود وغير اليهود، الذينَ اضطروا عامًا بعد عامٍ، إلى تَعْدِيل أرقَامِهم وبَيانَاتِهم وروايَاتِهم، ولكن دُون التخلي في أيّ وقتٍ بالطبع عن اعتناق الأُسْطورة والتأكيد عليها.

يقول روبير فوريسون: "قد تَستطيع المرَاجَعَة أنْ تُقوِّم التاريخ، لكنَّها لا تَستطيع تقويم الطبيعة البشريَّة. مِن ناحيةٍ أُخرى، سوف يُؤكِّد المستقبل أنَّ مَوقِف الُمراجِعِين في كِتابة التاريخ كان مَوقِفًا صحيحًا، فهناك الكثير مِن الشوَاهِد بالفعْل. على أنَّ تَقدُّم المراجَعَة أمرٌ يَصعب تغيِيره. ولَا مَنَاص مِن أنْ تَجِدَ المراجَعَة مكانًا لها في التاريخ، باعتبارها أكْبر مُغَامَرةٍ فِكريَّةٍ ظَهرتْ في القرْن العشرِين.

أمير العمري

مدخل إلى فهم المراجعة التاريخية

هذه مقدمة روبير فوريسون لكتابهِ "كتابات مراجعة" الذي صدَرَ في طبعةٍ خاصةٍ في فرنسا عام 1999م، ويضمُّ الكثير مِن مقالاته التي نُشرَت فيما بعد في الموقع المخصَّص لمعهد المراجَعَة التاريخيَّة. وقد أدخل فوريسون عليها فيما بعد بعض التعديلات، في الطبعة التي ظهرت باللغة الإنجليزيَّة في يناير-فبراير 2000م، في دوريَّة "جورنال أوف هيستوريكال ريفيو" الصادرة عن المعهد نفْسه، وهي الطبعة التي اعتمدنا عليها هنا.

الملحُوظَة التالية لم يَكتبْها مُرَاجعٌ تاريخيٌّ، بَل مُناهِضٌ للمراجَعَة التاريخيَّة:

"مُنْكِر الهُولُوكُوسْت، المرَاجِع، الإنكاريّ negationist. الكلُّ يعرف ما تعنيه هذه الكلمات القاسية: أي الاستبعاد مِن الحضارة الإنسانيَّة. إنَّ أيَّ شخصٍ يقع ضحيَّةً لمثل هذا التوصيف يصبح رجلاً منتهيًا. تُدمَّر حياته المدنيَّة وكذلك سمعته المهنيَّة. إنَّ مُنَاظَرَةً تدور أمام الرأيّ العام في دولةٍ يُوصَمُ فيها الباحث الأكاديميّ بالتهمَة المفزِعة، أيِّ إنكار ما وَقَع في مُعسْكر أوشفتز، تكفي لتدميره أخلاقيًّا في ظرْف ثانيةٍ واحدةٍ فقط" [1].

ضِدّ القانون

هذا الكتاب ليس مِن الممكن توزيعه علانيةً في بلدِي فرنسا، ففي فرنسا يُحْظَر التساؤل حول "الهُولُوكُوسْت"، فبعد أنْ صَدَر في فرنسا قانونٌ خاصٌ بـ "حُريَّة الصحافة" في 13 يوليو عام 1990م، أصبَح مِن المحظور مناقشة الثالوث المقدَّس للهُولُوكُوسْت: الإبادة المزعومة لليهود، و"غُرَف الغاز" النازيَّة، ورقم الستّة ملايين المزعوم مِن الضحايا اليهود في الحرب العالميّة الثانية. وأَصبحَ مصير كلّ مَن يتشكّك في أحدِ أضلاع هذا المثلَّث، يتراوح مِن السجن لمدَّة سنةٍ إلى دفْع غرامةٍ ماليّةٍ مِن 2000 إلى 300 ألف فرنك فرنسيّ، إضافةً إلى نفقاتٍ وغراماتٍ ماليّةٍ أخرى باهظة. إنَّ هذا القانون يَحْظر -على نحوٍ أكثر تحديدًا- التشكّك في مصداقيَّة جانبٍ أو آخر، مِمَّا أصبح يُعرَف منذ عام 1945م بـ"الجرائم ضِدَّ الإنسانيَّة"، التي أُقرَّت عام 1946م على أيدِي قُضاة المحكمة العسكريَّة الدوليَّة في نُورِمبِرج، وهي المحكمة الاستثنائية التي شكَّلها المنتصرون في الحرب لمحاكمة المهزومِين. وقد ظلَّ مسموحًا بالطبع بمناقشة "شوا" Shoah (الذي يُعرف أيضًا بالهُولُوكُوسْت) في إطار الحدود الضيّقة للمعتقدات الرسميَّة فقط. ولكن يُحْظَر السماح بالمناظرات أو المجادلات التي يمكن أنْ تُؤدّي إلى إسقاط قصَّة "شوا" كلّيًّا أو جزئيًّا، أو ببساطةٍ كلُّ ما يُؤدّي إلى التشكُّك في صحَّتها. ودعُونا نُكرّر أنَّ الشكَّ يَظلُّ محظورًا ويُعاقَب عليه حتّى لو كانت الأدلّة مُتوفّرة.

في فرنسا، وُلِدت فكرة هذا القانون المستوحى مِن قانونٍ إسرائيليّ"2" عام 1986م، على أيدِي بعضّ المؤرّخِين مِن أصلٍ يهوديّ مِن بَينهم بيير فيدال ناكيه وجورج ويللرز وفرانسوا بوداريدا، الذِين تربطهم علاقةٌ وثيقةٌ بالحَاخَام الأكبر في فرنسا رينيه صامويل سينات "3". وتَمَّ إقرار القانون عام 1990م، بناءً على مُبَادرة مِن رئيس الوزراء الأسْبق لوران فابيوس، الذي كان وقتَها عُضْوًا في الحكومة الاشتراكيَّة ورئيسًا للجمعيَّة الوطنيَّة (البرلمان)، وهو نفْسُه يهوديٌّ متعَصّبٌ للقضيَّة اليهوديَّة. وفي نَفْس الفترة (مايو 1990م) استَغلّت وسائل الإعلام حادِثة نبْش مقبرةٍ يهوديّةٍ في كاربنترا في منطقة بروفانس، لإِسكَات أيّ اعتراضٍ مِن جانب بعْض نُوَّاب المعارضة على صُدور القانون. وفي باريس خَرَج نحْو مائتي ألف شخْصٍ في مَسيرةٍ وهُم يَرفَعون الأعلام الإسرائيليَّة، احتجاجًا على "عَودة ظهُور الوحْش الضارِي" (أي العدَاء للسَّامِيَّة- المترجِم). وأَخَذ الجَرَس الكبير في كنيسة نُوتردَام يُقرَع كما لو كان قد وَقَع حدثٌ جَلَل أو مأساويٌّ في تاريخ فرنسا. وبمُجرَّد أنْ دَخَل القانون السجِلّ الرسميّ القانونيّ (نُشِر في الجريدة الرسميَّة بتاريخ 14 يوليو، وهو يوم عطلةٍ رسميَّة. وفي نفْس العدَد نُشِر ترشيح بيير فيدال ناكيه لنَيْل وسام الشرف Legion d'honneur) لَمْ تتمّ الإشارة إلى حادِثة كاربنترا إلَّا مِن بعيد، كمجرَّد إشارةٍ للتذكِير. لقد بَقِي فقط قانون "فابيوس–جيسو" Fabius-Gayssot.

وتَحْت ضُغوطٍ مِن المنظَّمات اليهوديَّة المحليَّة والعالميَّة صَدَرتْ في دُوَل أخرى منذ ذلك الحِين، قوانين تَحْظر أيّ تشكّكٍ في الهُولُوكُوسْت على غِرار القانون الإسرائيليّ والفرنسيّ. كانَ هذا ما حَدَث في ألمانيا والنمسا وبلجيكا وسويسرا وأسبانيا وليتْوَانيا. وقدْ تَعهَّدت دُوَلٌ غربيَّة أخرى (خصوصًا المملكة المتَّحِدة وكندا) للمنظَّمات اليهوديَّة، بالاقتداء بالآخرِين بشكْلٍ أو بآخَر. ولكنَّ الواقع أنَّه لم تكن هناك ضرورةٌ مُلّحةٌ لصدور هذا القانون الاستثنائي لخنْق المراجَعَة التاريخيَّة، ففِي فرنسا كما في غيرها، يُحاكَم المتشكِّكون في الهُولُوكُوسْت بمُوجب قوانين أخرى، طبقًا لمقتضَيَات كلّ قضيّةٍ، فهناك قوانين لمكافحة العُنصُريَّة ومعاداة الساميَّة، وتشويهِ سُمْعة أُنَاسٍ على قيْد الحياة، والإساءة إلى ذِكرى الموتَى، ومحاولة تبرير الجرائم ونشْر المعلومات المضَلِّلَة، وأيضًا لمعاقبة كلّ ما يُؤدّي إلى وقوع الضرر الشخصيّ وهو ما يُوفّر أساسًا للحُكْم بتعويض المتضرّرِين ماليًّا.

وتَضْمَن الشُّرطة والقضاء في فرنسا الحصَانة للتفسير الرسميّ لتاريخ الحرب العالميَّة الثانية. وطِبْقًا لهذا التفسير الحَاخَاميّ، يُعتبَر "الهُولُوكُوسْت" الحدَث الأكبر في تِلك الحرب، والمقصود الإبادة الجماعيَّة لليهود التي يُقَال إنَّ الألمان قاموا بتنفيذها في الفترة من 1941م إلى 1945م (رغم غياب أيّ وثيقةٍ تُحدّد لنا فترةً زمنيَّةً دقيقةً للحدَث. ولسببٍ وجِيهٍ –كما لو كان الأمر مُجرَّد خيالٍ– يُقدِّم المؤرِّخون الرسْميون فقط تواريخ متنوّعة بقَدْر ما هي تقريبيَّة).

مفكرة مُراجِع

مِن عام 1974م حتّى يَومنا هذا، فُرِض عَليَّ أنْ أخوض الكثير مِن المعَارك القضائيَّة، لدرجة أنَّني لم أعُد أجد الوقت الكافي لكتابة خُلاصَة ما تَوصَّلت إليه مِن أبحاث، وهو ما ينتظره الناس مِن بروفيسور كَرَّس جهوده عبر سنواتٍ عديدةٍ، لبحث نُقطةٍ واحدةٍ في تاريخ الحرب العالميَّة الثانية أيّ "الهُولُوكُوسْت" أو "شوا" Shoah.

وقد واجهتُ عامًا بعد عامٍ، الكثير مِن الدعاوِي القضائيَّة ذات العواقب الوخيمة التي عطَّلت خُطَّطي لنشر هذا العمل. وبعيدًا عن قضاياي الشخصيَّة، كان يتعين عليَّ أنْ أُخصّص جانبًا كبيرًا مِن وقتي، للظهور أمام مَحاكِمِهم المحترَمة لكيّ أدافع عن المراجِعِين الآخرِين في فرنسا والخارج. وحتّى اليوم، وأنا أكتب هذه المقدِّمة، هناك قضيَّتان مرفوعتان ضِدّي (واحدة في فرنسا والثانية في هولندا)، في حِين يَتعيَّن عليَّ التدخُّل شخصيًّا بشكلٍ مباشرٍ أو غير مباشر، في قضايا أخرى ضِدَّ مراجِعِي التاريخ revisionists في سويسرا وكندا وأستراليا على التوالي. وبسبب ضِيق الوقت فقد اعتذرتُ عن عدم إمكاني تقديم العَوْن إلى آخرين، منهم اثنان مِن المراجِعِين اليابانيِين.

يتبع خصومنا في شتّى أرجاء العالم تكتيكًا واحدًا يتمثل في اللجوء إلى المحاكم لشلّ المراجِعِين وتعطيلهم عن استكمال الأبحاث التي يقومون بها، إنْ لم يكن لاستصدار أحكام عليهم بالسجن أو لإرغامهم على دفع غرامات ماليَّة باهظة. ويعني السجن بالنسبة

لأولئك الذين تصدر ضِدَّهم أحكام، التوقف التام عن مواصلة نشاطهم، بينما يجد الذين تصدر ضِدَّهم أحكام بدفع غرامات ماليَّة أنفْسهم وهم يسعون بشكل محموم من أجل تدبير الأموال التي يجب دفعها تفاديًا لتهديد المدَّعين عليهم بإشهار إفلاسهم والحجز على ممتلكاتهم وتجميد حساباتهم المصرفيَّة. ومن هذه الزاوية كانت حياتي خلال الربع قرن الأخيرِ صعبة، وهي ما تزال كذلك، وأغلب الظن أنَّها ستظل كذلك.

ودعونا نضيف أنَّ مما زاد الطين بِلَّة، أنَّ مفهومي في البحث التاريخي كان دائمًا يتعارض مع مفاهيم ذلك النوع من المؤرخين "الورقيين". فأنا أعتبر أنَّ من الضروري أنْ أنزل إلى الحقل بنفْسي: إمَّا حقل البحث المادي أو حقل الخصم. ولم أكن لأصبح مؤهلاً للحديث عن معسكرات داخاو وماجدنيك وأوشفتز وتريبلنكا قبل أنْ أقوم بزيارتها لكي أتفحص المباني والبشر هناك. ولم يكن ممكنًا أنْ أستمع إلى تقارير عن أفعال المناهضين للمراجَعَة التاريخيَّة (التظاهرات والمؤتمرات والاجتماعات) دون أنْ أحضرها أو أكلف مراقبًا بالقيام بالمهمة، وهو أمر محفوف بالمخاطر غير أنه يتيح للمرء الحصول على المعلومات من مصدر جيد. ولَدَيَّ الكثير من الأصدقاء والمعارف الذين يقومون بكتابة عددٍ هائل من الخطابات والتقارير. إنني أهرع إلى ساحة المعركة في كلّ مناسبة. ولكي أسوق لكم مثالاً واحدًا فإنَّني أجد من الصواب أنْ أقول إنه إذا كان المؤتمر الدولي الكبير

لمناقشة "الهُولُوكُوسْت" الذي انعقد في أوكسفورد عام 1988م تحت رعاية البليونير روبرت ماكسويل (المعروف أيضًا ببوب الكاذب) قد أُجهض بشكل يدعو للرثاء باعتراف راعيه نفْسه"4"، فقد تم ذلك بفضل العمليَّة التي تمت تحت قيادتي شخصيًّا في عين المكان بمساعدة مراجِعَة فرنسيَّة تتمتع بالشجاعة والجرأة والاخلاص: أنَّ ما قامت به هي بمفردها يستحق بالتأكيد عدة كتب. ولكن هل سيفهم ناشرو الكتب الغزيرة ما أقول؟ ويجب أنْ أضيف إلى الساعات والأيام التي قضيتها في إعداد الدفوع القانونيَّة وغيرها من الأفعال المتعددة المتفرقة، تلك الساعات والأيام العديدة التي قضيتها في المستشفى أتعافي من عواقب الاعتداء البدني الذي تعرضت له على أيدي جماعات الميليشيا اليهوديَّة (في فرنسا تُحظر تمامًا الميليشيات المسلحة باستثناء ميليشيا الطائفة اليهوديَّة).

وأخيرًا، كان يتعين على أنْ أنظم أو أوجه أو أتعاون، في فرنسا وفي الخارج، في عدة نشاطات وأعمال ذات طبيعة مراجَعَة، وأن أنعش أولئك الذين خارت قواهم وأدفع في اتجاه استمرار الفعل، أستجيب لدعوات المساندة وأحذر من الاستجابة للاستفزازات ومن الوقوع في الأخطاء والانحراف عن الطريق. وفضلاً عن هذا كلّه، أشد من عزم النفوس الضعيفة عند بعض المراجِعِين الذين يتعرضون لإغراءات شديدة من أجل عقد المساومات مع الخصوم، وأحيانًا حتَّى التراجع عن الطريق. والأمثلة على أنصاف المراجِعِين الذين

سقطوا معلنين توبتهم علانية ليست بكلّ أسف قليلة. إنني لن أكون أول من يرميهم بحجر. فأنا أعرف من خلال التجربة أننا جميعا عرضة للشعور بالخوف بسبب عدم تكافؤ المبارزة: فوسائلنا هزيلة مقارنة بالوسائل الهائلة التي يملكها خصومنا.

المراجَعة التاريخيّة

المراجَعَة منهج وليست أيديولوجيَّة. إنّها تتطلب بالنسبة لكلّ الأبحاث، العودة إلى نقطة البدء، إلى فحص يتبعه إعادة فحص، إلى إعادة القراءة واعادة الكتابة، والتقويم الذي يعقبه تقويم، وإلى إعادة التوجيه والمراجَعَة وإعادة البحث: إنّها في جوهرها، نقيض للأيديولوجيَّة. إنّها لا تنكر ولكنها تُثبت بشكل أكثر دقة. والمراجِعُون ليسوا "منكرين" deniers أو "إنكاريين" negationists (وهي كلمة يتبناها خصوم المراجَعَة في فرنسا ولم تدخل بعد قواميس اللغة الإنجليزيَّة). إنهم يحاولون البحث عن الأشياء، واكتشافها.

ومن الممكن مراجَعَة عشرات الأنشطة في كلّ جوانب الحياة اليوميَّة والعشرات من حقول المعرفة التاريخيَّة والعلميَّة والبحث الأدبي. المراجَعَة لا تشكّك بالضرورة في الأفكار السائدة، ولكنها غالبا ما تؤدي، بشكل ما، إلى التخفيف منها. إنّها تسعى إلى فرز الحقيقي من الزائف. وبينما يمكن اعتبار التاريخ في جوهره مراجع، فإنّ الأيديولوجيَّة عدوّ للتاريخ. ولأن الأيديولوجيَّة تصل إلى أقصى

درجات قوتها في حالة الحرب أو المواجهة حين تلجأ إلى ضخ الأكاذيب بغزارة لتغذية آلة الدعاية، يجد المؤرخ الذي يبحث في هذه المنطقة من الضروري أنْ يضاعف من حذره خلال بحثه عن "الحقيقة"، ولا شكّ أنه سيدرك أنه عندما تؤدي حرب ما إلى وقوع عشرات الملايين من الضحايا فإنَّ الضحيَّة الأولى لهذه الحرب هي الحقيقة المثبتة: الحقيقة التي يجب البحث عنها وإعادة توثيقها.

إنَّ تاريخ الحرب العالميَّة الثانية هو عبارة عن جانب واحد من الحقيقة يختلط بالكثير من الأكاذيب.

التاريخ الرسمي: بين الحقيقة والتضليل وتراجعاته المتتالية أمام تقدم المراجعة التاريخيّة

من الصحيح القول إن ألمانيا الاشتراكيَّة الوطنيَّة (النازيَّة) أنشأت معسكرات اعتقال concentration camps. وقد فعلت ذلك، سواء بعد أو في نفْس الوقت مع عدد من الدول الأخرى التي كانت على قناعة بأن معسكراتها ستكون أكثر إنسانيَّة من السجون التقليديَّة. لقد كان هتلر يتمثل في تلك المعسكرات ما تصوره نابليون بونابرت في فكرة إنشاء مستعمرات للعقاب وإعادة التأهيل: أي تحقيق التقدم الإنساني. ولكن من الزائف القول إنَّ ألمانيا شيدت "معسكرات إبادة" extermination camps (وهو تعبير من ابتكار الحلفاء).

من الصحيح القول إنَّ الألمان قاموا بإنتاج شاحنات تعمل بالغاز Gaswagen ولكن من الزائف القول إنهم صنعوا شاحنات للقتل بالغاز السام (واذا كانت واحدة فقط من تلك الشاحنات قد وُجدت، لكانت قد أصبحت تعرض اليوم في أحد المتاحف العديدة المسماة "متاحف الهُولُوكُوسْت" ولو حتَّى في شكل "اسكتش" ذي صبغة علميَّة).

من الصحيح القول إنَّ الألمان استخدموا غاز زيكلون ب (المصنوع من قاعدة حمض الهيدرسيانيك والمستخدم منذ عام 1922م) وذلك لأغراض الصحة الوقائيَّة عن طريق تطهير أعداد كبيرة من المدنيين والجنود والسجناء ونزلاء المعسكرات. ولكن الألمان لم يستخدموا الزيكلون ب قط لقتل أي شخص، فضلاً عن القتل الجماعي لكتل بشريَّة دفعة واحدة. وبسبب الكميات الهائلة اللازمة من غاز سيانيد الهيدروجين لتحقيق مهمة من هذا النوع، فإنَّ قتل السجناء بالغاز الذي يزعم البعض أنه حدث في معسكر "أوشفتز" وغيره من المعسكرات، كان أساسا، أمرا مستحيلا. وسوف أشرح هذه النقطة تفصيلاً في صلب مواد هذا الكتاب.

من الصحيح القول إنَّ الألمان وضعوا تصورا لتحقيق "الحل النهائي للمشكلة اليهوديَّة" لكن الحل كان جغرافيا وليس إجراميا. لقد كان مشروعا لإقناع اليهود، أو لإرغامهم بالقوة إذا لزم الأمر، على مغادرة ألمانيا والدول الأوروبيَّة الواقعة تحت سيطرتها، ثم فيما بعد

وبالتعاون مع الصهاينة، في تأسيس وطن قومي لليهود في مدغشقر أو في أي مكان آخر. وقد تعاون الكثير من الصهاينة مع ألمانيا النازيَّة لتحقيق هذا الحل.

من الصحيح القول إنَّ اجتماعا عقد للمسؤولين الألمان في فيلا في ضاحيَة "فانسي"، إحدَى ضواحي برلين، في العشرين من يناير عام 1942م لمناقشة المسألة اليهوديَّة. ولكن موضوع المناقشة كان التهجير الإجباري أو ترحيل اليهود وكذلك إقامة كيان يهودي في المستقبل، وليس خطة لإبادة اليهود.

من الصحيح القول إنَّ بعض معسكرات الاعتقال الألمانيَّة كانت توجد فيها محارق لحرق الجثث. ولكن الغرض من وجود هذه المحارق كان مقاومة انتشار الأوبئة وليس حرق البشر أحياء والتخلص من الجثث كما يتجرأ البعض على القول.

من الصحيح القول إنَّ كثيرا من اليهود عانوا ويلات الحرب، من الاعتقال إلى الترحيل والتجميع في معسكرات الاعتقال الجماعيَّة أو سُخّروا في العمل داخل معسكرات العمل الشاق وداخل الجيتو، ومن الصحيح القول بوقوع بعض عمليات الإعدام لأسباب مختلفة، وإن اليهود تعرضوا لأعمال إنتقاميَّة عنيفة أو حتَّى لمذابح. ولكن من الصحيح أيضًا أنَّ كلّ صنوف المعاناة هذه تعرضت لها أمم أو جماعات أخرى خلال الحرب خصوصا في ألمانيا ودول الحلفاء

(باستثناء الجيتو وهو أولاً وأخيرًا من ابتكار اليهود أنفسهم) "6". إنَّ من الجدير بالتصديق ولو ظاهريا، من جانب غير المصابين بشلل نصفي في الذاكرة، والذين يسعون إلى التعرف عن قرب على كلا الجانبين في الحرب العالميَّة الثانية (الجانب الذي يعرض علينا باستمرار والجانب الخفي) أنَّ معاناة المهزومين خلال الحرب وبعدها -سواءً في العدد أو في النوعيَّة- أكبر كثيرًا مِن معاناة اليهود والمنتصرين، خاصّةً فيما يتعلق بأعداد الذين خَضعوا للترحيل الإجباريّ مِن بلادهم.

مِن الزائف القول -كما تجرأ البعض منذ مدة طويلة- بوجود أي أمرٍ صدر مِن هتلر أو مِن أتباعه بإبادة اليهود. وقد حُوكم جنودٌ وضبّاطٌ ألمانٌ أمام مَحاكمٍ عسكريَّةٍ ألمانيَّةٍ أثناء الحرب وصدَرت ضِدَّهم أحكامٌ بالإعدام أحيانًا لقتلهم يهود.

إنَّه لأمرٌ جيدٌ أنَّ الإباديّين the exterminationists (أي أولئك الذين يُؤمنون بنظريَّة الإبادة الجماعيَّة لليهود) انتهوا إلى الشعور بالقلق لدرجة أنَّهم أقروا بعدم العثور مطلقًا على أيِّ أثَرٍ لخُطَّة أو توجيهٍ أو وثيقةٍ لها علاقة بسياسة الإبادة الجسديَّة لليهود، وإنَّهم للسبب نفْسه، أقروا أخيرًا بعدم وجود أيِّ أثرٍ لميزانيَّة لتنفيذ خُطَّة مِن هذا النوع أو لمؤسّسةٍ مسؤولةٍ عن إدارة مشروعٍ كهذا.

إنَّه لأمرٌ جيدٌ أنَّ الإباديّين قد أذعنوا أخيرًا للمُراجِعين، مُقرينَ بأنَّ القضاة في مُحاكمات نورمبرج (1945م - 1946م) قبلوا

كحقيقةٍ مُطلقةٍ بعض القصص المختَلقَة تمامًا، مِثل قصَّة الصابون المصنوع مِن شحم اليهود وعواكس المصابيح الكهربائيَّة المصنوعة من الجلد البشري وقصَّة "الرؤوس المنكمشة" والإبادة بالغاز في معسكر "داخاو". وإنَّه لأمرٌ جيدٌ على نحوٍ خاصٍّ، أنْ يعترف الإباديّون أخيرًا بأنَّ الجانب الأهمّ والأكثر إثارةً ورعبًا في تلك المحاكمات (المقصود جلسة 15 أبريل 1946م التي شوهد فيها قائد معسكر أوشفتز السابق رودلف هيس Hoess وهو يعترف علانيَة بقتل ملايين اليهود في معسكره بالغاز) كان مجرد نتيجة للتعذيب البدني الذي تعرض له. إنَّ هذا الاعتراف الذي قُدم لسنوات عديدة وفي مجلدات تاريخيَّة كثيرة باعتباره "الدليل" الأول على إبادة اليهود، قد أصبح اليوم في طي النسيان، على الأقل عند المؤرخين.

من حسن الطالع أنَّ المؤرخين الإباديّين قد اعترفوا أخيرًا بأن الشهادة الشهيرة لضابط الإس. إس الألماني كيرت جيريشتاين، وهي عنصر أساسي في دعاواهم، خالية من المعْنَى. وإنه لأمر يدعو للاشمئزاز أنْ تسحب الجامعة الفرنسيَّة شهادة الدكتوراه من الباحث المراجِع هنري روكو الذي أثبت هذه الحقيقة بالتفصيل في أطروحته عام 1985م.

إنَّه لمن المؤسف أن يتجرأ المؤرخ راؤول هيلبرج، مطران الإباديّين، على أن يكتب في الطبعة الأولى من كتابه "تدمير اليهود الأوروبيين" (1961م) أن هتلر أصدر أمرين بإبادة اليهود، ثم يعلن فيما بعد،

بدءًا من عام 1983م، أن الإبادة حدثت من تلقاء نفْسها، أي دون أي أمر أو خطة ولكن عن طريق "تلاقي العقول على نحو فريد، أي عن طريق القراءة الإجماعيَّة للعقل" من جانب البيروقراطيَّة الألمانيَّة. وهكذا استبدل هيلبرج تأكيداته المجانيَّة بتفسير خرافي يتمثل في "التخاطر" telepathy أي الاتصال العقلي الخفي بين عقل هتلر وعقول المسؤولين في جهاز الدولة البيروقراطي على إبادة اليهود.

إنه لأمر جيد أن يتَخلّى الإباديّون أخيرًا (أو منذ وقت قريب) في ساحة الممارسة العمليَّة، عن التهمة التي تقوم على "الشهادات" التي زعمت وجود غرف غاز في معسكرات رافنسبروك وهارثيم وستروثوف- ناتزويلر وستوتوف- دانزيج وبرجن- بيلسن.

إنَّه لأمر جيد أن يُعترف أخيرًا (في يناير 1995م) بأن أكثر "غُرَف الغَاز" شهرة في العالم، أي تلك الموجودة في معسكر "أوشفتز"-1 ليست سِوى نموذج مزيف (فبركة).

إنه لمن حسن الطالع أن يُعترف أخيرًا بأن "كلّ شيّءٍ في تلك الغُرفَة مزيف" وأن أشعر أنا شخصيا بالغبطة بعد أن أري مؤرخا من مؤرخي المؤسسة الرسميَّة يكتب: "في أواخر السبعينيات استغل روبير فوريسون ذلك التزييف استغلالاً جيدا في حين تخاذلت إدارة متحف "أوشفتز" عن الإقرار به" "7". وأشعر بالغبطة أكثر عندما أتذكر أن

المحاكم الفرنسيَّة قد أصدرت أحكاما بإدانتي، أساسا بسبب ما ذكرته في هذا المجال.

إنه لأمر جيد أن يكشف المؤرخ نفْسه في المقال المشار إليه، أن شخصيَّة يهوديَّة بارزة مثل ثيو كلين، رأي في "غُرفَة الغَاز" هذه مجرد "خدعة".

إنه أيضًا لأمر جيد أن يكشف المؤرخ نفْسه في المقال نفْسه، أولا: أن سلطات متحف أوشفتز تدرك أنَّها خدعت ملايين الزوار (وقد بلغ عددهم خمسمائة الف شخص سنويا في أوائل التسعينيات). وثانيا: أنَّها رغم ذلك سوف تستمر في تضليل الزوار في المستقبل، لأن "إعلان حقيقة غُرفَة الغَاز هذه"- حسب تصريح المدير المساعد للمتحف: "هو أمر شديد التعقيد". وسوف نعود إلى هذا الموضوع فيما بعد "8".

إنه لمن حسن الطالع أن يعلن مؤرخان من أصل يهودي، هما الكندي روبرت يان فان بيلت والأمريكيَّة ديبورا دورك، أخيرًا وفي عام 1996م إدانتهما لبعض أعمال التزييف الهائلة التي تمت في متحف معسكر أوشفتز والضحك على ذقون الزوار.

من جهة أخرى، إنه لأمر جدير بالازدراء أن تُبقي منظمة "اليونسكو" (منظمة الأمم المتحدة للتربية والثقافة والعلوم) على رعايتها (كما ظلت تفعل دائما منذ عام 1979م) لموقع مثل

أوشفتز، يضم "غُرفَة الغَاز" الزائفة (ولنترك جانبا التزييفات الهائلة الأخرى) وهو دجل لا خلاف عليه حاليًا. إن اليونسكو (التي تتخذ من باريس مقرا لها ويرأسها فريدريك مايور) لا تملك حق استخدام اشتراكات العضويَّة التي تدفعها الدول الأعضاء، من أجل الترويج لبضاعة مغشوشة، وهو ما يتنافي تمامًا مع الاهتمامات "التعليميَّة" و"العلميَّة" و"الثقافيَّة" للمنظمة.

إنه لمن حسن الطالع أن يسقط جان كلود بريساك، بعد ما حصل عليه من إشادة رفعته إلى عنان السماء، ويفقد مصداقيته تمامًا. فبعد ما قدمه له الثنائي كلارسفيلد من تأييد ودعم، وجد هذا الصيدلي أن من الحكمة أن يتخذ موقفا وسيطا بين الذين يؤمنون بـ"غُرَف الغَاز" والمكذبين لها. فعند بريساك نجد أن المرأة التي يُجري لها فحصًا، لا هي بحامل ولا هي غير حامل، ولكنها نصف حامل، وبمرور الوقت، يقل حملها تدريجيًا. إن هذا الكاتب صاحب الكتابات العديدة التي يُفترض أنَّها عن "غُرَف الغَاز" النازيَّة، لم يَنشرْ في كتاباته صورةً واحدةً مُحدّدةً أو رَسْمًا واحدًا لغُرفَة واحدةٍ من تلك المجازر الكيميائيَّة، هذا الكاتب البائس تَوجّه في التاسع من مايو عام 1995م إلى القاعة السابعة عشرة من المحكمة التصحيحيَّة في باريس لكي يقدم عرضًا يكشف عن عجزه التام عن الرد على أسئلة القاضي المتعلقة بالكيفيَّة التي كانت تُدار بها تحديدًا تلك الآلة الجهنميَّة للقتل الجماعي. وبعد ثلاث سنوات، اضطر إلى كتابة العبارة التاليَة: "وهكذا. وطبقا

لشهادات أعضاء سابقين في فرق القتل النازيَّة في الجيش الألماني يُعتقد على سبيل اليقين التام أن أحد ضباط الإس. إس في بيركناو، قام بتصوير فيلم عن عمليات القتل في "غُرَف الغاز". فلماذا لا يتم العثور عليه مصادفة (في تاريخ لاحق) في إحدَى غرف قبو في منزل أحد ضباط الإس. إس السابقين؟"[10] .

إنه لمن حسن الطالع أن أطلال "غُرفَة الغَاز" التي تشكّل جزءا من المحرقة رقم 2 في معسكر بيركناو (المعروف أيضًا باسم أوشفتز-2) يمكن أن توضح بشكل حي مجسد أنه لم يقع هناك هُولُوكُوسْت، سواء في هذا المعسكر أو في أي معسكر آخر. وفي الحقيقة، وطبقا للبيانات التي أدلي بها المتهمون الألمان وردودهم على أسئلة الادعاء، وطبقا للصور الفوتوغرافيَّة التي أضيفت عليها بعض "الرتوش" بواسطة الحلفاء، كان من المفترض أن توجد أربعة ثقوب في سقف غُرفَة الغَاز هذه، ينفذ من خلالها غاز الزيكلون. ولكن وكما يلاحظ أي شخص في الموقع، فإنَّ هذه الثقوب الأربعة لم يسبق أن كان لها وجود على الاطلاق. ولأن أوشفتز يعتبر عاصمة "الهُولُوكُوسْت" وهذه المحرقة المنهارة توجد في قلب عمليَّة إبادة اليهود في أوشفتز، كان بوسعي أن أقول في عام 1994م (ويبدو أن التعبير حقق بعض التقدم في تفكير الناس): "لا ثقوب.. لا هُولُوكُوسْت"

.No holes.. No Holocaust

كذلك من حسن الطالع أن انهمار "الشهادات الحيَّة" التي تؤكد وقوع عمليات قتل جماعي بالغاز قد انكشفت وفقدت مصداقيتها، ولنفْس السبب أصبح من المثير للأسي أن الكثير من الألمان الذين حوكموا على أيدي خصومهم المنتصرين، أدينوا وحكم على بعضهم بالإعدام على جرائم لم يكن بوسعهم ارتكابها.

إنه لأمر جيد في ضوء المحاكمات العديدة التي تمت بشكل إستعراضي أن أصبح "الإباديّون" أنفسهم يتشكّكون في مصداقيَّة الكثير من تلك الشهادات. وكان يمكن أن تتضح حقيقة هذه الشهادات المزيفة إذا ما كانت خطورة الموضوع المطروح أمام القضاء قد دفعت القضاة إلى إصدار أمر بتقصي الحقائق الماديَّة في الواقع، بما في ذلك معاينة السلاح المفترض للجريمة المفترضة. ولكن خلال آلاف القضايا المتعلقة بأوشفتز أو المعسكرات الأخرى، لم يحدث أن أمرت أي محكمة بإجراء مثل هذا التحقيق (الاستثناء الوحيد وغير المعروف هو التحقيق الذي أُجْرِيَ في معسكر ستروتوف- نازويلر في الإلزاس، والذي حُجبت نتائجه إلى أن أمطت أنا اللثام عنها). ومع ذلك فقد كان معروفا أن عددا لا بأس به من الشهادات كانت تقتضي التثبت منها واختبارها في ضوء الحقائق الماديَّة، أما في غياب هذين الشرطين، فإنَّ هذه الشهادات لا يمكن الاعتداد بها كدليل.

إنه لمن حسن الطالع أن التاريخ الرسمي قام بإعادة النظر في اتجاه التقليل بنسب كبيرة من الأعداد المفترضة للضحايا. وقد اقتضي

الأمر أكثر من أربعين عاما من ضغوط المراجِعِين التاريخيِّين إلى أن قامت السلطات اليهوديَّة والمسؤولون عن متحف أوشفتز باستبعاد تسع عشرة لوحة مكتوبة بتسع عشرة لغة، تقول إن عدد الضحايا اليهود في أوشفتز بلغ أربعة ملايين شخص. ثم اقتضي الأمر بعد ذلك خمس سنوات من المناقشات العنيفة إلى أن تم التوصل إلى رقم مليون ونصف مليون من الضحايا، وهو رقم سرعان ما تم التشكيك فيه من جانب الكتّاب الإباديّين مثل جان كلود بريساك، ربيب الثنائي س. كلارسيفيلد، الذي يقدم الآن من جانبه، رقما لا يزيد على: من 600 ألف إلى 800 ألف ضحيَّة من اليهود وغير اليهود طوال فترة وجود معسكر أوشفتز. ومما يؤسف له أن هذه الرغبة في الوصول إلى الرقم الحقيقي لم يتبعها الوصول إلى الرقم الأقرب إلى الاحتمال وهو 150 ألف شخص قضوا نحبهم أساسا من جراء انتشار الأوبئة في نحو أربعين معسكرا آخر هناك. ومن المثير للأسي أنه لا يزال يعرض في المدارس الفرنسيَّة فيلم "ليل وضباب" Night and Mist الذي يتردد فيه أن عدد ضحايا أوشفتز بلغ تسعة ملايين شخص. هذا الفيلم يروج لأسطورة "الصابون المصنوع من جثث اليهود" وعواكس مصابيح الإضاءة المصنوعة من الجلد البشري والآثار العميقة التي حفرتها أظافر الضحايا على جدران "غُرَف الغَاز"، ويزعم كذلك أن "لا شيّء يميز غُرفَة الغَاز عن أي ثكنة عاديَّة"!

لقد كان أمرا جيدا أن يكتب فجأة أرنو ماير، وهو أستاذ في جامعة برينسيتون من أصل يهودي، في عام 1988م يقول: "إنَّ مصادر دراسة "غُرَف الغَاز" نادرة ولا يُعتد بها". ولكننا نطرح هنا هذا التساؤل: ولماذا ظل هو يواصل الكتابة سنوات عديدة قبل ذلك مؤكدا أن هذه المصادر لا حصر لها وأنَّها جديرة بالثقة، ولماذا ظل يصب الزيت الساخن على مُراجِعِي التاريخ رغم أنهم ظلوا يكتبون منذ عام 1950م ما اكتشفه أرنو ماير عام 1988م؟

لقد كان أمرا جيدا بوجه خاص أن يأتي المؤرخ الفرنسي جاك بايناك، الذي تخصص في وصف المراجِعِين بكونهم مزورين في "لوموند" وغيرها، لكي يعترف عام 1996م، بأنه لا يوجد في النهاية، أي دليل على وجود "غُرَف الغَاز". لقد كان، كما أوضح هو: "من المؤلم أن يقول المرء ذلك كما أن من المؤلم سماعه". ولكن عند المراجِعِين فإنَّ الحقيقة حلوة للقول وحلوة للسمع.

وأخيرًا، من حسن الطالع أن الإباديّين قد سمحوا لأنفسهم بالتقليل من شأن الضلع الثالث في مثلث "الهُولُوكُوسْت": أي رقم الستة ملايين يهودي. والمسؤول عن ظهور هذا الرقم للمرة الأولى هو الحاخام"[12] مايكل دوف ويسماندل (1903م-1956م). هذا الحاخام الذي نشأ في سلوفاكيا كان المروج الرئيسي لأكذوبة أوشفتز. واستنادًا إلى شهادات قدمها له رودلف فيربا وألفريد فيتزلر، قام ويسماندل بتنظيم حملة دعائيَّة مكثفة موجهة إلى دول الحلفاء

وسويسرا والفاتيكان. وفي خطاب بتاريخ 31 مايو 1944م (أي قبل نهاية الحرب في أوروبا بسنة) لم يتردد ويسماندل في أن يكتب: "حتَّى الآن تم القضاء على ستة ملايين يهودي من أوروبا وروسيا" "13".

إن رقم الستة ملايين هذا تم العثور عليه في مكان آخر قبل وقت طويل من نهاية الحرب في كتابات اليهودي السوفييتي إيليا اهرنبورج (1891م- 1967م)، الذي ربما كان من أكثر رجال الدعاية إثارة للكراهيَّة خلال الحرب العالميَّة الثانية"14". وفي عام 1979م قال الإباديّ the Exterminationist مارتن بروزات Broszat خلال محاكمة مُراجِع ألمانيّ إنَّ هذا الرقم رمزي (أي مزيف). وفي عام 1961م، قدَّر راؤول هيلبرج وهو أهم المؤرخين التقليديين، عدد الضحايا اليهود بخمسة ملايين ومائة ألف قتيل. وفي عام 1953 كان مؤرخ آخر من هؤلاء المؤرخين قد قدَّر عددهم ما بين 4،2 و 4،6 مليون. ولكن الحقيقة أن أحدا من هؤلاء المؤرخين لم يقدم أرقامه بعد القيام بإجراء تحقيق أو تقصٍ للحقائق. لقد ظل الأمر دائما يخضع لتخمينات المؤرخ نفْسه. وقد قدم المراجِع بول راسنييه من جانبه، رقما يدور "حول المليون" من الموتَى اليهود ولكنه فعل ذلك كما أوضح- استنادًا إلى الأعداد التي ذكرها الجانب المضاد، وكان هذا الرقم بالتالي نتاجا لتخمينه الشخصي. وتبقي الحقيقة أن كثيرا من اليهود الأوروبيين قد تلاشوا، كما نجا كثيرون منهم.

وباستخدام الوسائل الحديثة لعلم الحساب يجب أن يكون ممكنا أن نقرر في كلتا الحالتين معْنَى كلمة "كثيرون". لكن المصادر الثلاثة التي يمكن الحصول منها على المعلومات هي عمليا، مغلقة أمام الباحثين المستقلين أو أن ما هو متوفر منها محدود للغاية. وهذه المصادر. هي:

أولا: المؤسسة الهائلة للتوثيق التي يتولي تجميعها مركز خدمة التتبع الدولي (ITS) في أرولسن- والديك في ألمانيا. ومعلومات هذا المركز متاحة لَديّ منظمة الصليب الأحمر الدولي في سويسرا. وتتولي الحراسة المشددة على معلومات المركز عشر دول من بينها إسرائيل.

ثانيا: الوثائق الموجودة في حوذة بولندا وروسيا والتي لم يتوفر منها أمام الباحثين سِوى جزء محدود: سجلات الوفيات في بعض المعسكرات وسجلات المحارق.. الخ

ثالثا وأخيرًا: أسماء ملايين الناجين اليهود الذين تلقوا أو ما زالوا يتلقون، معونات ماليَّة أو تعويضات، سواء في إسرائيل أو في العديد من الدول، ويمثلهم المجلس اليهودي العالمي في نيويورك. ويوضح مجرد تعدد أسماء هؤلاء الناجين مدي ما وصلت إلي هطائفة معينة في زعمها بأنَّها "أبيدت" بينما الحقيقة أنَّها لم تتعرض للإبادة على الإطلاق.

بعد مرور إثنتين وخمسين سنة على نهاية الحرب العالميَّة الثانية ما تزال دولة إسرائيل تُقَدِّر الرقم الرسميّ للناجين من "الهُولُوكُوسْت" في

العالم بنحو تسعمائة ألف (الأرقام الحقيقيَّة التي صُرح بها هي من 834،000 إلى 960،000)"15".

ونتيجة لحسابات قام بها الإحصائي السويدي كارل نوردلينج الذي قمت بعرض تقديرات الحكومة الإسرائيليَّة عليه، يمكن الافتراض أنه مع وجود تسعمائة ألف شخص من الناجين على قيد الحياة في عام 1997م، أنه في نهاية الحرب العالميَّة الثانية عام 1945م كان يوجد في أوروبا أكثر قليلاً من ثلاثة ملايين يهودي من "الناجين". وحتَّى اليوم لا تزال منظمات "الناجين" تتكاثر تحت أسماء متنوعة، وتجمع في عضويتها ما يُسمَّى برجال المقاومة resistants من اليهود إلى جانب ما يعرف بأطفال أوشفتز السابقين (أي الأطفال اليهود الذين ولدوا في ذلك المعسكر وأقاموا هناك مع آبائهم في بدايات عمرهم) واليهود الذين عملوا في معسكرات العمل الإجباري، أو بشكل أكثر بساطة، اليهود الذين تخفوا أو هربوا من الاعتقال والترحيل إلى المعسكرات. ولم يعد الملايين من المنتفعين من "المعجزات" يشكّلون اليوم أي "معجزة"، ولكنهم أصبحوا نتاجا لظاهرة. وتنشر في الصحافة الأمريكيَّة تقارير وأخبار كثيرة عن عودة أفراد من الأسرة الواحدة إلى ذويهم والتقائهم بهم، وكلّهم من الناجين من "الهُولُوكُوسْت"، بعد أن كنا نعرف على وجه اليقين من أجهزة الإعلام نفْسها، أن أفراد الأسرة جميعا قد هلكوا في "الهُولُوكُوسْت".

والخلاصة أنه بالرغم من الجمود والقوانين التي تحظر إعادة النظر في موضوع "الهُولُوكُوسْت" فقد أدي البحث في تاريخ الحرب العالميَّة الثانية إلى تحقيق تقدم في السنوات الأخيرة، غير أن الحقائق ظلت محجوبة عن الجمهور العام. وسوف يُصدم هذا الجمهور إذا ما عرف أن جانبا كبيرا من أكثر الأفكار التي يعتنقها تماسكا والتي وصلت إلى مستوى الأساطير الشعبيَّة، تَمَّ التخلّي عنها مِن جانب مُعظم المؤرخين المتشددين. ومِن هنا يمكن القول إن هناك مستويين لفكرة "الهُولُوكُوسْت": من ناحية هناك ما يعتقده عامة الناس بشكل عام، ومن ناحية أخرى هناك ما يعرفه المورخون التقليديون. الطرف الأول لا يبدو أنه يهتز، أما الثاني فإنَّه يوشك على الانهيار اذا ما أخذنا في الاعتبار الاصلاحات المتعجلة التي أدخلها هؤلاء المؤرخين على أفكارهم.

لقد أصبح تراجع المؤرخين المتشددين أمام المراجِعِين، عاما بعد عام -خاصة منذ عام 1979م- متعددًا وعلى مستوىً كيفي، بحيث أصبح المؤرخون المتشبددون يجدون أنفسهم في مأزق حقيقي، فلم يعد لديهم شيّء ذو قيمة يقولونه في جوهر موضوع "الهُولُوكُوسْت"، ولذا، فقد سلموا العصا إلى السينمائيين والروائيين وصناع المسرح. وحتَّى المسؤولين عن متاحف الهُولُوكُوسْت يجدون أنفسهم في مأزق، فقد اتخذ المسؤولون عن متحف واشنطن للهُولُوكُوسْت "قرارا" بعدم تقديم "أي عرض مجسد لـ"غُرَف الغاز""

للجمهور حسب ما صرح به المدير العلمي للمتحف مايكل برنباوم أمامي وأمام أربعة من الشهود في أغسطس عام 1994م. وفي دليل المتحف الذي وضعه برنباوم في مائتي صفحة لا يظهر أي صورة أو رسم لـ"غُرَف الغَاز" ولا حتَّى إحدَى تلك الخيالات الزائفة المضللة البائسة التي يعرضها على زوار المتحف"16". ويحظر المتحف على الزوار التقاط الصور. ولم يعد هناك اليوم أمام كلود لانزمان، صاحب فيلم "شوا" وهو فيلم بارز في افتقاده التام إلى المحتوى التاريخي أو العلمي، أي خيار، إلَّا أن يعبر عن استنكاره لحقيقة أن "المراجِعِين قد أصبحوا يحتلون الساحة" "17".

أما إيلي فيزل Ellie Wiesel فيدعو الجميع إلى توخي الحذر، فهو يوصي بألَّا نحاول أن نَرَى عن قرب ما حدث -طبقا لمزاعمه- في "غُرَف الغَاز". يقول فيزل: "فلنترك "غُرَف الغَاز" مغلقة أمام العيون الفضوليَّة، لنتركها للخيال""18".

لقد تحول مؤرخو الهُولُوكُوسْت إلى منظرين وإلى فلاسفة "مفكرين". ويجب ألَّا تحجب الخلافات الداخليَّة الدائرة فيما بينهم، بين "القصديين"

Intentionalists، و"الانتفاعيين" functionalists، أو بين المؤيدين والمعارضين للفرضيات التي يطرحها مؤرخ مثل دانييل جولدهاجن حول الميل الفطري لَدَى الألمان لتبني العداء للساميَّة والجرائم العنصريَّة، يجب ألَّا تحجب عنا حقيقة بحوثهم التاريخيَّة.

نجاحات المُراجعين وإخفاقاتهم

في عام 1998م أمكن تقييم إنجازات المراجِعِين باختصار على النحو التالي: نجاح كبير على جبهة البحث العلمي والتاريخي (وهو ما اعترف به خصومنا في عام 1996م) وفشل على جبهة الإعلام (فقد أحكم خصومنا السيطرة على وسائل الإعلام فيما عدا شبكة الإنترنت التي ظلت متاحة حتَّى الآن).

في الثمانينيات وبداية التسعينيات حاول الكتاب المناهضون للمُراجَعَة أن يتبارزوا مع المراجِعِين على ساحة علم التاريخ. لقد حاول كلّ من بيير فيدال ناكيه ونادين فريسكو وجورج ويللر وأد البرت راكيرل وهيرمان لانجبين ويوجين كوجون وأرنو ماير وسيرج كلارسفيلد، كلّ على حدة، إقناع أجهزة الإعلام بالتوصل إلى إجابات شافية ترد على ما يطرحه المراجِعُون من وثائق ودراسات. وحتَّى مايكل برينباوم، وحتَّى المسؤولين عن متحف الهُولُوكُوسْت التذكاري، أرادوا في عام 1993م وبدايات 1994م التقاط القفاز الذي ألقيت به في وجوههم عندما تحديتهم أن يعرضوا ولو غُرفَة واحدة من "غُرَف الغَاز" النازيَّة، أو مجرد دليل واحد من اختيارهم، على وقوع إبادة جماعيَّة لليهود. لكن فشلهم كان ذريعا لدرجة أنهم اضطروا إلى التخلّي تدريجيا عن القتال على تلك الجبهة. وحديثا جدا، في عام 1998م، نشر مايكل برينباوم (بالاشتراك مع أبراهام بيك) كتابا ضخما بعنوان "الهُولُوكُوسْت والتاريخ"[19]. ولكن في هذا

الكتاب، بدلاً من دراسة ما يُسمّيه بـ "الهُولُوكُوسْت" على المستوى التاريخي (وهو ما حاول أرنو ماير أن يفعله في كتاب له عام 1988م)، فإنَّه يوضح لنا دون وعي منه، أن "الهُولُوكُوسْت" شيّء و"التاريخ" شيّء آخر مختلف تمامًا. وفضلاً عن هذا، لا يحتوي الكتاب على أي دليل مادي ملموس، فهو لا يقدم صورا ولا رسومات ولاِ حتَّى محاولة بسيطة لتجسيد أي شيّء على الاطلاق، لكنه يقدم فقط صورة لكومة من الأحذية. ويُفترض أن لهذه الكومة من الأحذية دلالة بصريَّة معينة كما نَرَى في متحف الهُولُوكُوسْت التذكاري في واشنطن حيث يقولون لنا بالصوت المسجل: "إننا الأحذية، ونحن آخر الشهود". (المقصود لقطة كومة الأحذية الضخمة التي تظهر في الكثير من المطبوعات اليهوديَّة والأفلام عن الهُولُوكُوسْت والمفترض أن هذه الاحذية هي أحذية اليهود، خلعوها قبل دخولهم "غُرَف الغَاز" النازيَّة – المترجم).

والكتاب عبارة عن تجميع لخمسين مقالة كتبت ونشرت تحت إشراف الحاخام برينباوم، وفيها يتقاعس حتَّى راؤول هيلبرج، وحتَّى يهودا باور، وحتَّى فرانشيسك بايبر، عن بذل أي جهد حقيقي في مجال البحث العلمي، ويتجاهلون بالتالي ما حاوله أرنو ماير في الماضي القريب، من إعادة "الهُولُوكُوسْت" إلى مملكة التاريخ."20". لقد انتصر اللا عقل على محاولات التعقل. أخيرا انتصر إيلي فيزل

وكلود لانزمان وستيفن سبيلبرج (في فيلم "قائمة شندلر") على أقرانهم الذين حاولوا "إثبات" وقوع "الهُولُوكُوسْت" بشكل عقلاني.

سوف يدرك الجميع في المستقبل، أي متأخرا، أنه في سبتمبر 1996م قُرعت الأجراس بعد أن تلاشت آمال أولئك الذين أرادوا مكافحة المراجَعَة على المستوى التاريخي والعلمي. لقد أغلق مقالان كتبهما المؤرخ السويسري المناهض للمُراجَعَة التاريخيَّة جاك باييناك BAYNAC في صحيفة يوميَّة سويسريَّة، وبشكل نهائي، فصل محاولات الرد العاقل على طروحات المراجِعِين"[21].

في منتصف وأواخر السبعينيات، قدمت إسهامي الشخصي في تطور المراجَعَة، فقد اكتشفت وقمت بصياغة ما أصبح يُعرف منذ ذلك الحين باسم الطرح الفيزيائي والكيميائي، أي ببساطة، الأسباب الفيزيائيَّة والكيميائيَّة لاستحالة وجود "غُرَف الغَاز" النازيَّة. في ذلك الوقت شعرت بالغبطة لأنني قدمت للعالم فرضيَّة حاسمة لم يكن أحد قادرا على تخيلها، سواء كان عالما ألمانيا (وألمانيا لا ينقصها العلماء) أو مهندسا أمريكيا (وفي الولايات المتحدة مهندسون يدركون ولا شكّ -إذا ما أخذنا في الاعتبار التعقيدات الكثيرة المحيطة بصنع "غُرَف الغَاز" التي تستخدم في الإعدام بالسجون- استحالة صنع "غُرَف الغَاز" النازيَّة المزعومة بسبب عوامل فيزيائيَّة وكيميائيَّة معينة). وإذا كانت عرّافة ما قد تنبأت في تلك الفترة، في أجواء الخلافات الشديدة التي أثارها اكتشافي، بأن خصومي سوف يعترفون أخيرًا في

عام 1994م أو 1996م -كما فعل جاك بايناك بعد محاولات عديدة لإثبات أنني كنت مخطئا- بعدم توفر أي دليل على وجود غرفة واحدة من "غُرَف الغَاز" النازيَّة، لكان لابد وأن أشعر بالغبطة. وكنت ولاشكّ قد توصلت إلى الإستنتاج بأن أسطورة "الهُولُوكُوسْت" لا يمكنها أن تتحمل ضربة مباشرة كهذه، وأن أجهزة الإعلام عندئذ سوف تَتخلّى عن ترديد الأكذوبة الكُبْرَى، وأن من الطبيعي أن تتداعي قوي القمع ضِدَّ المراجَعَة التاريخيَّة من تلقاء نفْسها.

ولو كنت قد افترضت هذا لكنت قد ارتكبت خطأ كبيرا، سواء في التشخيص أو في التنبؤ بقُدْرة العلاج على تحقيق الشفاء، فالمعتقدات الخرافيَّة لا تتغذي على العلم ولكن على خرافات أخرى. إن منطقة الدين والأيديولوجيَّة والوهم والإعلام والسينما الخياليَّة يمكنها أن تحتفظ بمسافة تبعدها عن الواقع العلمي. وحتَّى فولتير لم ينجح أبدا في "سحق خصمه التافه". وبالتالي يمكن القول إن المراجِعِين، مثلهم في ذلك مثل فولتير في إدانته لعبثيَّة القصص العبرانيَّة، محكوم عليهم- رغم الطبيعة العلميَّة لأبحاثهم، بالإخفاق في مواجهة الخرافات البدائيَّة الصادرة من المعبد اليهودي، في حين لن ينجح "المعبد اليهودي" أبدا في كفاحه ضِدَّ المراجِعِين.

سوف تستمر دعاية "الهُولُوكُوسْت" و"تجارة شوا" في الإزدهار. ويبقي على المراجِعِين اليوم أن يشرحوا كيف وُلدت هذه المعتقدات

والأساطير ونمت وازدهرت قبل أن تختفي ذات يوم، مفسحة الطريق، ليس أمام العقل، ولكن أمام معتقدات أخرى وأساطير أخرى.

كيف يُخدع الناس وكيف يخدعون أنفسهم طواعية؟ دعاية "الهولوكوست"

يمكن خداع الجمهور بسهولة عن طريق التلاعب بالصور. في أبريل 1945م، بعد فتح معسكرات الاعتقال الألمانيَّة، أسرع الصحفيون البريطانيون والأمريكيون، إلى تصوير الفظائع الحقيقيَّة التي استخدمت فيما بعد- إذا كان من الممكن استخدام هذا التعبير- لكي تصبح حقيقيَّة أكثر من الحقيقة نفْسها. وفي تعبير أثير لَدَى الإعلاميين تمت عمليَّة "التهيئة". لقد قدمت إلينا تفاصيل ما وقع في "تيمشوارا" قبل وقوعها (يقصد فوريسون من هذه العبارة الساخرة الإشارة إلى المبالغات الهائلة في الإعلام الغربي في وصف ما وقع من أعمال قتل ومذابح جماعيَّة للناس في مدينة تيمشوارا في رومانيا خلال ثورة الشعب الروماني ضِدَّ حكم تشاوشيسكو عام 1989م وهي المبالغات التي عادت بعض أجهزة الإعلام الغربيَّة نفْسها فكشفت فيما بعد عن كذبها ومبالغاتها العديدة -المترجم).

من جهة، عرضت علينا جثث حقيقيَّة ومحارق حقيقيَّة، ومن جهة أخرى وبفضل بعض التعليقات المصاحبة الخادعة والمونتاج

السينمائي، تم إنجاز ما أستطيع وصفه في عبارة واحدة تنزع القناع عن هذا الدجل كلّه:

لقد جَعَلونا نَرَى جثث الموتَى كما لو كانت لأناس قُتلوا، أما المحارق فقد شاهدناها باعتبارها "غُرَف الغَاز" المخصصة للقتل الجماعي.

وهكذا ولد الخلط الذي ما يزال منتشرا بشدة اليوم، بين المحرقة المخصصة لحرق الجثث crematorium وكان لها وجود بالفعل (ولكن ليس في معسكر بيرجن- بيلسن)، وبين "غُرَف الغَاز" النازيَّة التي استخدمت كما يقال، في قتل مجموعات بشريَّة ضخمة من الرجال والنساء، والتي لم يكن لها في حقيقة الأمر وجود، بل ويستحيل وجودها.

نشأت أسطورة "غُرَف الغَاز" النازيَّة والخلط بينها وبين المحارق، في الأصل في شكلها الإعلامي، من خلال الصور الصحفيَّة المأخوذة لمعسكر بيرجن- بيلسن، الذي يعترف غلاة مؤرخي الهُولُوكُوسْت المتشددين بأنه لم يعرف "غُرَف الغَاز" المخصصة للقتل الجماعي، بل ولا حتَّى مجرد محرقة بسيطة.

"غُرَف الغاز" التي لم تُعرض أبدا ولم يرها أحد

في مارس 1992م في مؤتمر صحفي في ستوكهولم وجهت تحديا لممثلي الصحف ومحطات التليفزيون. هذا التحدي يتلخص في تسع كلمات: "دعوني أشاهد أو ارسموا لي غُرفَة من "غُرَف الغَاز"".

وفي اليوم التالي ظهرت تقارير الصحفيين عن المؤتمر لكنها أغفلت تمامًا أي ذكر للموضوع الأساسي في هذا التحدي. لقد بحثوا عن الصور ولم يعثروا لها على أثر.

يتخيل بلايين الناس خلال الخمسين عاما الأخيرة أو يفترضون أنهم شاهدوا "غُرَف الغَاز" النازيَّة في الكتب أو في الأفلام التسجيليَّة. ويعتقد الكثيرون أنهم شاهدوا ولو صورة واحدة في حياتهم لغُرفَة غاز. وقد زار البعض معسكر أوشفتز أو غيره من المعسكرات حيث قال لهم المرشدون السياحيون إن مبني معينا كان غُرفَة غاز. وقد قيل لهم إن أمامهم، حسب ما تقتضي الحالة، غُرفَة غاز "في حالتها الأصليَّة" أو "نموذجا مجسدا" لها (وهذا التعبير الأخير أي "نموذج مجسد" يَفترض أن يكون النموذج منقولاً بالحرف عن شيّءٍ أصليٍّ له وجود) وأحيانًا يَجعَلونهم يَرون بعض الأطلال ويقولون لهم "إنَّها بقايا غُرفَة غاز"[22]. ورغم هذا، وفي كلّ هذه الحالات، فإنَّهم يكونون قد خُدعوا أو في أفضل الأحوال، خَدعوا أنفسهم. هذه الظاهرة يمكن تفسيرها ببساطة، فمعظم الناس يتخيلون أن غُرفَة الغاز هي عبارة عن غُرفَة عاديَّة يوجد في داخلها الغاز، وهو ما

يكشف الخلط بين الإعدام بالغاز والانتحار بالغاز. فالقتل بالغاز، كما يحدث في بعض السجون الأمريكيَّة في حالة إعدام شخص واحد، عمليَّة معقدة للغاية، فمن الضروري توفر الوسائل التي تضمن قتل المجرم المحكوم عليه بالإعدام فقط دون أن تتسبب عمليَّة الإعدام بالغاز في وقوع حادث أو تعريض الحراس أو المسؤولين للخطر، خاصة في المرحلة النهائيَّة، عند دخول الحراس الغُرفَة لإخراج الجثة الملوثة. ولا ينتبه معظم زوار المتاحف وكذلك القراء وجمهور السينما بل وحتَّى معظم المؤرخين لهذا الفرق. ويستغل المسؤولون عن المتاحف هذا الجهل العام، فلكي يعرضوا غُرفَة من "غُرَف الغَاز" النازيَّة فإنَّهم يتصورون أنه يكفي أن يعرضوا على العيون المحدقة، مبني كئيبا أو غُرفَة باردة لحفظ الجثث (مشرحة)، أو غُرفَة يوجد فيها دُش (يستحسن أن تكون تحت سطح الأرض)، أو ملجأ من الغارات الجويَّة (نَرَى فتحة مغطاة بالزجاج في منتصف بابه) وهكذا تكتمل الخدعة. ويستطيع المخادعون أيضًا الاكتفاء بأشياء أبسط كثيرا، فمن الممكن الاكتفاء بعرض مجرد باب أو جدار أو سطح مبني ما لغُرفَة الغاز المزعومة. ويستطيع مسؤولون آخرون أكثر حكمة الاكتفاء حتَّى بأقل من هذا، مثل كومة من الشعر أو حزمة من الأحذية وكومة من النظارات الطبيَّة، ويزعمون أن هذه الأشياء هي الآثار الوحيدة التي عثر عليها من ضحايا "غُرَف الغَاز"، وطبيعي أن يتجنبوا الإشارة إلى أنه خلال الحرب العالميَّة الثانية ونتيجة للحصار

المفروض على أوروبا، التي كانت تعاني بشدة من النقص الشديد في المواد الخام، بدأ على وجه السرعة تنفيذ برنامج لجمع كلّ الأشياء التي يمكن إعادة تصنيعها بما في ذلك الشعر الذي استُخدم على سبيل المثال في صناعة بعض أنواع المنسوجات.

شهود "الهُولُوكُوسْت": شهادات غير مثبتة

وقد نشأ خلط آخر يتعلق بالشهود. إننا نواجه مجموعات من الذين يؤكدون أنهم شهود على الإبادة الجماعيَّة لليهود. ويزعم هؤلاء الشهود، سواء من خلال الكتابة أو الكلام، القُدْرة على تأكيد أن ألمانيا قامت بتنفيذ خطة ترمي إلى إبادة كلّ يهود أوروبا. والواقع أن هؤلاء الشهود لا يستطيعون إلَّا أن يشهدوا فقط على حقائق مثل ترحيل اليهود واحتجازهم داخل معسكرات اعتقال أو معسكرات تجميع أو معسكرات للعمل الإجباري، بل وحتي، كما في بعض الحالات، على استخدام المحارق. ولم تكن الإبادة داخل "غُرَف الغَاز" التي يُمارس فيها القتل الجماعي هي النهاية المحتومة لليهود، بحيث يصبح الناجون منهم أو الذين تمكنوا من الهرب من المعسكرات بأعداد كبيرة جدا، كما يريد أن يوهمنا البعض "الدليل الحي على الإبادة الجماعيَّة"، بل على العكس من ذلك تمامًا، فوجودهم هو الدليل الحي على عدم وقوع الإبادة الجماعيَّة. وكما رأينا فيما تقدم، كان عدد اليهود الذين "نجوا" من "الهُولُوكُوسْت" عند نهاية الحرب يتجاوز الثلاثة ملايين.

فيما يتعلق بمعسكر "أوشفتز" فقط، يمكن وضع قائمة معتبرة من النزلاء السابقين من اليهود الذين تحولوا إلى شهود أمام الناس، شفاهة أو كتابة، من خلال التليفزيون أو الكتب أو ساحات القضاء. ومن بين الأكثر شهرة منهم أورد الأسماء التالية:

أوديت أبادي، لويس ألكان، إستر إلسجوزيل، يهودا باكون، شارلز بارون، برونو باوم، تشارلز-سيجموند بيندل، بول بيندل، موريس بن روبي، هنري بيللي، إدا بيمكو، سوزان برينباوم، إيفا بروستر، هنري بيللوكو، روبرت كلاي، جيهيل دينور، زيلما دراجون، فانيا فينيلون، أرنولد فريدمان، فيليب فريدمان، ميشيل جيلبر، إسرائيل جوتمان، دكتور هافنر، هنري هيللر، بيني هوشمان، ريجين جاكوبيرت، واندا جاكوبوسكا، ستنسلاس جاكوفسكي، واسمه المستعار الترفانيزيلبرج، سيمون كادوس-لاجرانج، رايا كاجان، رودلف كاور، مارك كلاين، روث كلوجر، جي كوهين، إريك كولكا، سيمون لاكاس، هيرمان لانجبين، ليو لوفر، سونيا ليتونسكا، رينيه لوريا، هنريك ماندلباوم، فرانسواز مايوس، ميل ميرميلستاين، ارنست مورجان، فيليب موللر، فلورا نيومان، أنّا نوفاك، نيكلوس نيزلي، ديفيد أولير، دنيا أوريسون، دوف باسيلوكوفيتش، جيزيلا بيرل، صامويل بيزار، ماشا رافين-سبيتر، جيروم سكورين، جورج سنيدرس، هنري سوننبلوك، جاك سترومسا، ديفيد سمولوفسكي،

هنري تشانر، هنريك توبير، سيما فاكسمان، سيمون فيل، رودسي فيربا، روبرت ويل، جورج ويللرز...

وسوف أذكر أيضًا الحالة الصارخة لشخص لَحِق بالركب في وقت متأخر هو عازف الكلارنيت بينيامين ويلكوميرسكي Binjamin Wilkomirski. وليس من الواضح سبب كشف هذا الشاهد المزيف على الملأ بعد ثلاث سنواتٍ من استمتاعه بسطوة المجد، وبعد أن نال جائزة المجلس اليهودي الأمريكي لأحسن كِتابٍ وجائزة مجلة "جويش كوارتراي" في بريطانيا وجائزة ذكْرى الهُولُوكُوسْت في فرنسا، وبعد أن نُشرتْ عن كتابه سلسلة مقالاتٍ حماسيَّة مؤثرةٍ في عددٍ كبيرٍ من الصحف العالميَّة. وقد صَدَر كتابه الزائف الذي يروي فيه سيرته الذاتيَّة المزيفة التي يروي فيها قصَّة طفلٍ تم ترحيله إلى مُعسْكَريّ ماجدانك وأوشفتز عن دار سيركامف الألمانيَّة عام 1995م بعنوان "نثرات: ذكريات طفولة حرب" "23".

وقد تَوصّل الكاتب اليهودي دانييل جانزفريد في نهاية بحثه إلى أن بنيامين ويلكوميرسكي، وإسمه الحقيقي برونو دويسكر Doesseker الذي غيره من الإسم الذي أطلق عليه عند عند ولادته وهو برونو جروجين، مر بالفعل ببعض التجارب في أوشفتز وماجدنك، ولكن كسائح بعد الحرب، "24".

وفي عام 1995م تمكن الأسترالي دونالد وات من خداع أجهزة الإعلام البريطانيَّة العظيمة بمذكراته التي يروي فيها حياته كعامل وقود في المحرقتين رقم 2 و3 في أوشفتز- بيركناو "25". وبين سبتمبر ونوفمبر 1998م قامت في ألمانيا وفرنسا ضَجَّة صحفيَّة كبيرة حول "الكشف المثير" المفاجئ للدكتور هانز فيلهلم مونك، الطبيب السابق في معسكر أوشفتز. والعطاء وفير.

ويميل بريمو ليفي من ناحيته، إلى تقديم نفْسه إلينا باعتباره شاهدا يمكن الاعتداد بشهادته. وسوف نَرَى في هذا الكتاب، أنه ربما كان يستحق هذه السمعة عام 1947م، بعد نشر كتابه "إذا كان هذا هو الانسان"، لكنه بتهافته أصبح غير جدير بأي شيّء. ويبقي إيلي فيزل Ellie Wisel، هو "نجم شهود الهُولُوكُوسْت الزائفين" بجدارة. في سيرته الذاتيَّة "ليل" Night لا يذكر فيزل "غُرَف الغَاز"، لكنه يصف كيف كان الألمان يقذفون اليهود داخل حُفر تشتعل فيها النيران. وحتَّى الثاني من يونيو عام 1987م، أثناء محاكمة كلاوس باربي في مدينة ليون، شهد فيزل بعد أن حلف اليمين، أنه "رأي بعينيه في غابة صغيرة في موقع ما في أوشفتز، الضباط الألمان وهم يقذفون الأطفال أحياء في النار". وسوف نَرَى كيف قام مترجم ومحرر الطبعة الألمانيَّة من كتابه "ليل" بإدخال "غُرَف الغَاز" إلى رواية فيزل عن أوشفتز بشكل فاضح. وفي فرنسا، عام 1990م سلك "فريد سيديل" المسلك نفْسه وهو يقوم بإعادة تحرير الكتاب الذي ظهر

عام 1963م، فأدخل "غُرَف الغَاز"، بينما لم يرد الحديث في الطبعة الأصليَّة من الكتاب إلَّا عن أربع محارق"[26]".

وفي نفْس قارب "الأكاذيب المخْتَلقَة" يُمكِن وَضْع شهادات بَعْض الشهود مِن غَيْر اليهود، وبخاصَّةٍ شهادة الجنرال أندريه روجيريه الذي قَدَّم نفْسه عام 1988م استنادًا إلى ما مَنَحه إيَّاه جورج ويللرز مِن دعْمٍ، كـ"شاهد على الهُولُوكُوسْت" مُدَّعِيًا أنَّه شاهدٌ على "شوا" في بيركناو"[27]"، في حين أنَّه في الطبْعة الأصليَّة الأولَى مِن مذكّراته، الصادرة عام 1946م بعنوان "أنْ تَعيش هو أنْ تَفوز"، كَتَب فقط عمَّا سَمِعَه مِن حكاياتٍ عن "غُرَف الغَاز""[28]"، كما رَوى كيف اعتبر نفْسه سعيد الحظِّ خلال وجوده في أوشفتز-بيركناو، فقد كان يُقيم في الثكنات مع رؤساء المعسكر "[29]"، وأنَّه كان يَستمتع "بوَضعٍ مَلكيٍّ مُرِيح" لا يزال يحتفظ عنه بذكريات حميمة"[30]". ويَذكر أنَّه كان يَأكل الفطائر بالمربّى ويَلعب البريدج"[31]". وبالطَّبع، فقد كَتَب: "لمْ تقع فقط أحداثٌ لطيفةٌ في المعسْكر""[32]". ولكنْ عند مغادرته بيركناو كَان انطباعه كالتَّالي: "على العكس مِن الآخرِين، كنتُ أسعد حَالاً هُنا، عمَّا كنتُ في أيّ مكانٍ آخر""[33]".

أمضَى صامويل جرينجاوز سنوات الحرب في "جيتو" كوناس في ليتوانيا. وفي عام 1950م، أيّ في وقتٍ كان ما زال يمكن الحديث بنوعٍ مِن الحريَّة في الموضوع، كَتَب تقييمًا لما نُشِر مِن جانب "الناجِين" حتَّى ذلك الحين عن "الكارثة اليهوديَّة الكُبْرَى".

وقد وجَّه جرينجاوز نقدًا فيما كَتبَه، للمبالغات الشديدة التي وُلِدَتْ مِنها "مُغَالطَاتهم التاريخيَّة"، فقد كَتبَ يقول: "إنَّ عُقْدة المغَالطة التاريخيَّة يُمكن وصفها بالتمركز حول الذَّات اليهوديَّة، والهوس بالذَّات والتمركز حَوْل الذَّات. إنَّها تَجْعل الوشَائِج التاريخيَّة تَترَكَّز حَوْل المشَاكل اليهوديَّة لأحداث محليَّة تحت مظلة التجربة الشخصيَّة. وهذا هو السبب في كون معظم المذكرات والتقارير تمتلئ بالإسهاب المناقض للعقل والمنطق، والمبالغات الكلاميَّة، والمؤثرات الدراميَّة، والتضخيم المبالغ فيه للذات وطابع الهواية (كذا) والتفلسف الذي لا يعدو مجرد سخريَّة، والإشاعات والهجوم المتحيز والتبرير"[34].

ويستطيع المرء التمسك بهذا الرأي الذي يعود إلى عام 1950م، وتطبيقه بشكل حرفي اليوم على كلود لانزمان أو إيلي فيزل. فمن أجل التأكد من وجود "العقدة التاريخيَّة" و"التمركز حول الذات اليهوديَّة" و"الهوس بالذات" في كتابات إيلي فيزل، يمكن العودة إلى المجلدين اللذين صدرا حديثا لمذكراته تحت عنوان "كلّ الأنهار تتجه إلى البحر". وسوف يدرك المرء أيضًا، ليس فقط أن الجماعة اليهوديَّة الرومانيَّة-المجريَّة في بلدة ساييت Sighet لم تتعرض للإبادة، بل إنَّها على الأرجح نجت من الترحيل الجماعي، وبخاصة إلى أوشفتز في مايو ويونيو 1944م، وعادت أعداد كبيرة منها بعد الحرب. وباعتباره هو نفْسه أصلاً من بلدة ساييت، فلا شكّ أنه يجسد مصير رفاقه أفضل تجسيد. لقد انتقل فيزل بعد الحرب إلى بلدان مختلفة في

العالم حيث التقى، بفضل "معجزة" بأعداد مدهشة من أقاربه وأصدقائه ومعارفه القدامي وآخرين من سايبت نجوا من أوشفتز أو من "الهُولُوكُوسْت".

بعض الأساطير الأخرى من الحرب العالميّة الثانية

كما يشعر أبناء الجيل الحالي بالحِيرة، سيطرح أبناء جيل المستقبل على أنفسهم أسئلةً مشابهةً حول عددٍ مِن أساطير الحرب العالميَّة الثانية، إضافةً إلى أسطورة "غُرَف الغَاز" النازيَّة، وبغض النظر عن "الصابون المصنوع من الشحم اليهودي"، و"الجلد البشري المدبوغ"، و"الرءوس المنكمشة"، و"شاحنات الخنق بالغاز" التي تعرضنا لها فيما سبق، نستطيع أن نرصد هنا أشياء أخرى مثل التجارب المجنونة المنسوبة للدكتور منجل، وأوامر هتلر بتنفيذ الإبادة الجماعيَّة لليهود، والأمر الصادر من هملر بوقف الإبادة المزعومة، وإبادة اليهود بواسطة الصعق الكهربائي والبخار والجير الحي والمحارق والحُفر التي تشتعل فيها النيران ومضخات "شفط" الأجساد، ودعونا لا ننسى أيضًا ما تردد عن إبادة الغجر والشواذ جنسيًا وقتل المتخلفين عقليا بالغاز.

إن أجيال المستقبل سوف تتساءل عن كثير من الوقائع المدونة: المذابح التي جرت في الجبهة الشرقيَة والمذكورة في الكتابات وفي الكتابات فقط في محاكمات نورمبرج، والتي قدمها الشاهد الزائف المحترف هيرمان جراب، وما انكشف زيفه اليوم مثل الكتاب الذي

وقّعه هيرمان روشننج بعنوان "هتلر يتكلم""35" وكان قد كتبه أساسا اليهودي المجري ريمر ريفيتز، وإسمه المستعار إيمري ريفيز، ولكنه استخدم بغزارة في محاكمات نورمبرج كما لو كان حقيقيا، والخطة المزعومة لاختبار تفجير قنبلة ذريَّة قرب أوشفتز بغرض إبادة اليهود. وقد طرحت أيضًا في نورمبرج "الاعترافات" الهزليَّة التي انتزعت من السجناء الألمان، ومذكرات آن فرانك المزيفة، والطفل الذي صُور لنا على أنه كان سيلقي مصيره في أوشفتز بينما الحقيقة أنه هاجر إلى نيويورك بعد الحرب، والكثير من المذكرات المزيفة والشهادات المزيفة التي كان يمكن بقليل من الجهد، اكتشاف حقيقتها.

ذبح كوني

في الوقت الذي يمكن أن تجعلنا بعض الأمور نعتقد أن اليهود فقط هم الذين تعرضوا للمعاناة أثناء الحرب العالميَّة الثانية، وأن الألمان فقط هم الذين تصرفوا كمجرمين حقيقيين، يبدو أنه قد فات أوان إجراء تحقيق محايد في المعاناة الحقيقيَّة لكلّ الشعوب، وفي الجرائم الحقيقيَّة التي ارتكبتها كلّ الدول التي اشتركت في الحرب.

وسواء كانت الحرب "عادلة" أو "غير عادلة" فكلّ حرب هي في الحقيقة، مذبحة. وبغض النظر عن الشجاعة التي يبديها الكثير من الجنود، تظل الحرب مسابقة في الذبح. يصبح المنتصر في نهايتها، مجرد جزار جيد، ويصبح الخاسر جزارا سيئا. وبالتالي، بعد أن تتوقف

العمليات العسكريَّة، ربما يصبح المنتصر مؤهلاً لتلقين المهزوم درسا في الذبح، ولكنه لا يستطيع بالتأكيد أن يلقنه درسا في الحق والعدالة. ومع ذلك، فقد كان هذا هو ما حدث تحديدا في نورمبرج (1945م - 1946م) فالدول الأربع المنتصرة، التي مثلت نفْسها والدول التسع عشرة الأخرى (إذا ما استبعدنا المجلس اليهودي العالمي الذي تمتع بوضع "صديق المحكمة" amicus curiae) كانت من الوقاحة بحيث أنزلت معاملة كهذه بدولة بلغت حالة الشلل التام. وطبقا لما قاله ناحوم جولدمان رئيس المجلس اليهودي العالمي والمنظمة الصهيونيَّة العالميَّة، فقد كانت فكرة المحاكمة "من بنات أفكار حفنة من اليهود"[36]. أما الدور الذي لعبه اليهود في الأحداث في نورمبرج، فقد كان معتبرا.

كان الوفد الأمريكي الذي أدار العمليَّة كلّها، مكونا أساسا من "المهاجرين العائدين" أي من اليهود الذين كانوا قد هاجروا من ألمانيا إلى الولايات المتحدة في الثلاثينيات وعادوا اليوم فقط (مع الوفد الأمريكي) إلى ألمانيا. وكان ج. م جيلبرت، الطبيب النفْسي الشهير ومؤلف كتاب "يوميات نورمبرج" (1947م) يهوديا استغل عمله من وراء الكواليس مع ممثلي الادعاء الإمريكيين ولم يفوت الفرصة لممارسة التعذيب النفْسي على السجناء الألمان. وقد أشار آيري نيف- عضو الوفد البريطاني- في كتاب له قدمه قاضي القضاة في

بريطانيا بيركت الذي كان أحد قضاة نورمبرج، إلى أن كثيرا من المحققين الأمريكيين كانوا من مواليد ألمانيا وكانوا كلّهم من اليهود"37" .

لأسباب كثيرة، يمكن اعتبار محاكمات نورمبرج أم الجرائم في القرن العشرين، فقد ثبت أن عواقبها كانت مأساويَّة. لقد أضفت الحقيقة على مجلدات من الأكاذيب والافتراءات والمظالم ساهمت خلال سنوات في تبرير كلّ أنواع الشر، خاصة التوسع البلشفي والصهيوني على حساب شعوب أوروبا وآسيا وفلسطين. وإذا كان قضاة نورمبرج قد توصلوا إلى إدانة ألمانيا، أولاً وفضلاً عن أي شيّء آخر، بسبب تآمرها منفردة في شن الحرب العالميَّة الثانية، فمن الضروري أن نبدأ ببحث هذه النقطة.

أربعة عمالقة وثلاثة أقزام: من الذي أراد الحرب؟

لأن هناك علاقة بين التاريخ والجغرافيا، دعونا نتخيل الكرة الأرضيَّة في عام 1939م وعلى سطحها أربع مجموعات: بريطانيا العُظمَى وامبراطوريتها التي لا تغرب عن أرضها الشمس، تحتل خُمس العالم، وفرنسا وامبراطوريتها الكولونياليَّة الشاسعة، والولايات المتحدة وتوابعها، وأخيراً اتحاد الجمهوريات السوفيتيَّة. من ناحية أخرى، كانت هناك ألمانيا المحصورة داخل حدود ما قبل الحرب، وإيطاليا الهزيلة بإمبراطوريتها الكولونياليَّة الصغيرة، وأخيراً اليابان التي كان جيشها في ذلك الوقت يحتل جزءا من الصين (ولن نعير هنا

اهتمامًا، على الأقل مؤقتا، للدول التي لحقت فيما بعد بركب إحدَى هذه المجموعات المتحاربة).

ويبدو التقابل بين المناطق الجغرافيَّة التي تغطيها هذه المجموعات صارخا وكذلك التناقض بين مواردها الطبيعيَّة والصناعيَّة والتجاريَّة. بالطبع كانت ألمانيا واليابان في نهاية الثلاثينيات قد بدأتا النهوض- كما أثبتت سنوات ما بعد الحرب- وبناء اقتصاد وجيش قادر على الصمود للقوي الأكبر والأقوَى. وبالطبع، خلال السنوات الأولى للحرب، بذل الألمان واليابانيون طاقة غير عاديَّة ونجحوا في تأسيس مستعمراتهم التي لم يقدَّر لها أن تعيش طويلا. ولكن بغض النظر عن هذا كلّه، لم تكن ألمانيا واليابان وإيطاليا إلَّا مجرد أقزام أمام أربعة عمالقة تتجسد في الإمبرطوريات البريطانيَّة والفرنسيَّة والأمريكيَّة والسوفيتيَّة.

من الذي يصدق بجديَّة. ما تردد في محاكمات نورمبرج وطوكيو، من أن هؤلاء الأقزام الثلاثة كانوا يسعون عمدا لإشعال حرب عالميَّة جديدة؟ بل ومن الذي يمكنه أن يصدق اليوم للحظة، أن أول هؤلاء الأقزام، أي ألمانيا، كانت خلال الحرب مذنبة بارتكاب كلّ ما نسب إليها من جرائم، بينما جاءت اليابان بعدها مباشرة، أما الثالثة، أي إيطاليا التي بدلت ولاءها في سبتمبر 1943م، فلم ترتكب أعمالاً حقيقيَّة مشينة؟ من الذي يقبل اليوم الفرضيَّة التي تقول إن العمالقة الأربعة- باستخدام مصطلحات نورمبرج. لم يرتكبوا أي "جرائم ضِدَّ

السلام" أو "جرائم حرب" أو "جرائم ضِدَّ الإنسانيَّة" بما يستدعي المحاكمة بعد انتهاء الحرب عام 1945م أمام محكمة دوليَّة؟

ورغم هذا فمن السهل التدليل على أن المنتصرين، خلال ست سنوات من الحرب وسنوات قليلة بعدها، ارتكبوا، مذابح ضِدَّ أسرَى الحرب والمدنيين وعمليات الترحيل الهائلة للمدنيين، والنهب الواسع النطاق والإعدامات المباشرة، وبذلك يكونون قد ارتكبوا فظائع أكثر مما ارتكبه المهزومون. من مذابح الكولاج ودرسدن وهيروشيما وناجازاكي، وطرد وإبعاد ما بين 12 إلى 15 مليون ألماني تحت ظروف مرعبة (من بروسيا الشرقيَّة وبوميرانيا وسيليسيا وتشيكوسلوفاكيا وبولندا والمجر ورومانيا ويوغسلافيا)، وتسليم ملايين الأوروبيين للوحش السوفيتي في أكبر مذبحة عرفتها القارة الأوروبيَّة: أكان هذا كلّه من الضآلة بحيث لم يكن يستحق أن يُنظر أمام محكمة دوليَّة؟

خلال القرن الأخير، لم تقتل قوة عسكريَّة أطفالاً في أوروبا واليابان وكوريا وفيتنام والعراق وأمريكا الوسطي بقَدْر ما فعل سلاح الطيران الأمريكي. ورغم هذا لم تتجرأ أي محكمة دوليَّة على إدانة الولايات المتحدة بارتكاب تلك المذابح التي كان "الأولاد" دائما على استعداد للقيام بها في أي مكان في العالم، فهذه هي "وظيفتهم".

ونستون تشرشل والبريطانيون سادة الدعاية أثناء الحرب

خلال الحرب العالميّة الأولى، استغل البريطانيون بشكل كبير كلّ مصادر الدعاية القائمة على قصص الفظائع الخياليّة. وخلال الحرب العالميّة الثانية حافظوا على إخلاصهم لهذا النوع من الدعاية.

قبل سنوات، أعلن المؤرخ البريطاني ديفيد إيرفنج في مؤتمر صحفي، أن ونستون تشرشل، في إصراره على استمرار الحرب، قام تدريجيا بتطوير الدعاية البريطانيّة ضِدَّ ألمانيا على النحو التالي:

* **في المرحلة الأولى** أكد تشرشل لشعبه التزام بريطانيا إلى جانب بولندا التي وقعت ضحيّة لعدوان هتلر. ولكن بعد إسبوعين من إعلان الحرب على ألمانيا، سقط هذا التبرير بعد قيام القوات السوفيتيّة بغزو واحتلال النصف الشرقي من بولندا طبقا للاتفاق السابق بين ألمانيا والاتحاد السوفيتي، دون أن يحرك البريطانيون ساكنا.

* **وفي المرحلة التالية**، قال تشرشل لأبناء شعبه إن عليهم الاستمرار في الحرب من أجل إنقاذ الإمبراطوريّة البريطانيّة، رافضا مبادرات السلام التي تقدمت بها ألمانيا إلى بريطانيا مرارا. وفي مايو 1941م أمر باعتقال نائب هتلر رودلف هيس الذي طار إلى بريطانيا بنفْسه للعمل على تحقيق السلام بين البلدين. وبينما كانت ألمانيا حريصة على الإبقاء على الإمبراطوريّة البريطانيّة سليمة ولم تزعم

الرغبة في وراثتها، اختار تشرشل عقد تحالف مع الولايات المتحدة ورئيسها فرانكلين روزفلت أكبر عدو للامبراطوريَّة. وهكذا سقط الدافع الثاني بدوره.

* **وفي المرحلة الثالثة:** قال تشرشل للبريطانيين إنه يتعين عليهم القتال دفاعا عن الديموقراطيَّة، في حين تناقض مع نفْسه عندما ألح على ضرورة فتح جبهة ثانية في الشرق لتخفيف الضغط على روسيا السوفيتيَّة بزعامة ستالين. وهو ما يعني بالطبع مساعدة الديكتاتوريَّة التي اعتدت على بولندا في السابع عشر من سبتمبر 1939م وكانت تتأهب لاحتلالها بالكامل.

* **وأخيرًا** وقبل شهر واحد من نهاية الحرب في أوروبا في 8 مايو عام 1945م، كانت الدعاية البريطانيَّة تعاني من غياب التبريرات في الوقت الذي واجه فيه الجنود البريطانيون والأمريكيون صدمة مفزعة وهم يكتشفون مدي الخراب الذي أوقعه سلاح الطيران البريطاني والأمريكي في المدن الألمانيَّة.

هنا فقط، في أبريل 1945م وقعت المعجزة التي مكنت تشرشل من العثور على الدافع "المناسب": اكتشاف معسكر بيرجن- بيلسن وهو ما جَعَله يؤكد أنه إذا كانت بريطانيا قد حاربت بشراسة وتحملت ما واجهته من دمار خلال السنوات الست الأخيرة، فلم يكن هذا كلّه إلَّا دفاعا عن الحضارة نفْسها. وكان تشرشل قد صرح

خلال خطب حماسيَّة للشعب البريطاني في أكثر من مناسبة وبنبرة عالية، بأن بريطانيا باعتبارها مهد الحضارة، مهددة الآن بغزو التيوتونيين الهمج، غير أن هذه العبارات الطنانة لم تأتِ تأثيرها المطلوب. وجاءت الهديَّة من السماء في أبريل 1945م، ذلك المعسكر المدمر الذي تفشي فيه الطاعون، جاء بمثابة فرصة ذهبيَّة لتشرشل وللدعاية البريطانيَّة.

في بيرجن-بيلسن: البريطانيون يقدمون عروض "الجريمة النازيّة" (أبريل 1945م)

كان معسكر بيرجن–بيلسن الذي يقع قرب هانوفر مخصصا أصلاً لإيواء الجنود الألمان الجرحى. وفي عام 1943م، أقيم سجن هناك لاحتجاز اليهود الأوروبيين الذين يقع الاختيار عليهم لمبادلتهم بالمدنيين الألمان الذين تحتجزهم دول الحلفاء، وكانوا يقيمون في أراضيها. وفي منتصف الحرب، تم ترحيل اليهود من هذا المعسكر إلى سويسرا أو إلى فلسطين عبر تركيا (وهو مثال آخر على غياب أي خطة للإبادة الجماعيَّة).

وحتَّى نهاية عام 1944م، كانت ظروف حياة السجناء في المعسكر شبه عاديَّة، ولكن الأوبئة الفظيعة مثل الطاعون والكوليرا والدوسنتاريا والتيفوس وصلت إلى المعسكر مع وصول قوافل من القادمين من المناطق الشرقيَّة المهددة بالوقوع في قبضة القوات السوفيتيَّة. وقد زاد من فداحة الكارثة تصاعد قصف الطائرات

الأمريكيَّة والبريطانيَّة بشكل متواصل مما تسبب في تعطيل وصول شحنات الدواء والغذاء بل والماء. ولم تعد قوافل الوافدين الجدد من الشرق تصل إلى المعسكر في ظرف يومين أو ثلاثة كما كان معتادا، بل أصبحت الرحلة تستغرق إسبوعين أو ثلاثة أسابيع، فبسبب قصف طيران الحلفاء والقصف المدفعي المتواصل كانت القوافل لا تتحرك إلَّا ليلاً، وكانت عند وصولها تحمل معها أعدادا كبيرة من الموتَى أو المشرفين على الموت من الإجهاد من الرجال والنساء الذين لا يَقْدرون على مقاومة مثل هذه الأوبئة المتفشيَّة في المعسكر. وفي أول مارس 1945م، بعث قائد المعسكر جوزيف كرامر خطابا إلى الجنرال ريتشارد جلوكس، رئيس إدارة المعسكرات يصف له فيها هذه "الكارثة" بالكلمات التالية: "أناشدكم المساعدة في التغلب على هذا الوضع" "38".

لم تكن ألمانيا الراكعة على قدميها تستطيع حاليا مواجهة تدفق اللاجئين من المناطق الشرقيَّة بالملايين، ولم تكن تَقْدر على تزويد جيشها بالأسلحة والذخائر وتزويد شعبها بالمواد الغذائيَّة. وأخيرًا، لم تتمكن من علاج الحالات المأساويَّة في المعسكرات، وحتَّى حراس تلك المعسكرات، كانوا يسقطون ضحايا للتيفوس. وقد أمر هملر بعض ضباط الجيش الألماني بالاتصال بالبريطانيين وتحذيرهم من أنهم يقتربون من منطقة موبوءة. وأعقبت ذلك مفاوضات بين الطرفين ثم اعلنت منطقة واسعة حول بيرجن-بيلسن، منطقة يوقف فيها إطلاق

النار، وقرر الضباط البريطانيون والألمان طبقا لاتفاق ثقة متبادل، المشاركة في الإشراف على المعسكر.

غير أن المشهد الذي اكتشفوه ورائحة تعفن الجثث المتحللة التي لا تحتمل، والثكنات والخيام التي تغرق في الفضلات والغائط، كلّ هذا جَعَل البريطانيين يشعرون بالسخط. وقد أصبحوا يعتقدون، أو أريد لهم أن يعتقدوا، أن ضباط الإس. إس الألمان اختاروا عمداً قتل السجناء أو تركوهم فريسة للموت. ورغم كلّ ما بذلوه من جهد لم يتمكن البريطانيون من الحد من معدل الوفيات.

ثم، ومثل سرب من الصقور، انقض الصحفيون فجأة على المعسكر يصورون كلّ ما يرونه من فظائع، ثم بدأوا أيضًا في إعداد مشاهدهم الخاصة (المزيفة): ومنها اللقطة الشهيرة الذي تظهر في فيلم "ليل وضباب"، لبولدوزر يدفع الجثث في خندق، وهي اللقطة التي تجعل المشاهدين يعتقدون أنهم أمام "بلدوزر ألماني""39". لكنهم لم يلاحظوا أن البلدوزر (وهو واحد فقط) يقوده جندي بريطاني، وأنه يدفع الجثث في خندق حُفر بعد تحرير المعسكر.

وحتَّى عام 1978م، كانت إحدَى المطبوعات اليهوديَّة تنشر صورة البلدوزر ولكن دون أن تقوم بقطع الجزء الذي يظهر فيه الجندي البريطاني بحيث تخفي القبعة أو "البريه" وعليه شارة الجيش البريطاني"40". وقد قام اليهودي سيدني برنستين، مدير قسم السينما

في وزارة الداخليَّة البريطانيَّة بدعوة المخرج السينمائي ألفريد هيتشكوك لصنع فيلم عن هذه "الفظائع النازيَّة". وقبل هيتشكوك الدعوة وقام بعمل الفيلم، ولكن لم تعرض في النهاية إلَّا أجزاء بسيطة منه للجمهور، ربما لأنَّ نسخته الكاملة كانت تحتوي على بعض "التأكيدات" التي قد تثير الشكّ في أصالته "41".

ولكن، وبشكل عام، حققت صدمة "بيرجن . بيلسن" نجاحا كبيرا لدعاية الحلفاء. ومنذ لحظة الاستغلال الإعلامي هذه، تعلم العالم كلّه أن يصدق ما يعرض أمامه: لقد كان الناس يشاهدون إما سجناء أو ميتين أو أناسا يموتون، ولكنهم دُفعوا بفضل التعليق الصوتي المصاحب للأفلام التسجيليَّة إلى الاعتقاد بأن الذين يشاهدونهم أمام عيونهم، كانوا قد قُتلوا أو ذُبحوا أو أُبيدوا. وهكذا وكما رأينا فيما تقدم، وعلى أساس الحالة المروعة في المعسكر الذي لم يكن يوجد فيه- لا محارق ولا غرف غاز- كما يعترف المؤرخون التقليديون أنفسهم، قامت الأسطورة الشاملة عن وجود واستخدام "غُرَف الغَاز" والمحارق في أوشفتز وغيره من المعسكرات.

في ذلك المعسكر، وضمن أكثر مشاهير ضحايا الأوبئة، كانت هناك الطفلة آن فرانك وشقيقتها مارجوت اللتان ظل يتردد باستمرار لمدة أربعين سنة، أنهما قتلاً بالغاز في أوشفتز في حين أنهما كانتا في الواقع محتجزتين في بيرجن- بيلسن. واليوم، أصبح من المعروف أنهما

ماتتا من جراء مرض التيفوس في بيرجن- بيلسن في فبراير- مارس 1945م.

وسرعان ما قام الأمريكيون بتقليد "صدمة بيرجن-بيلسن"، فقد لجأوا إلى هوليود وقاموا بإعداد سلسلة من الأفلام (ستة آلاف قدم من المواد المصورة من بين ثمانين ألف قدم) وهي الأفلام التي عرضت على السجناء في نورمبرج في 29 نوفمبر 1945م. وقد شعر الجميع، حتَّى المتهمين أنفسهم، بفظاعة هذه الأفلام. وقد فطن بعض المتهمين الألمان إلى ما فيها من خُدع في المونتاج ولكن بعد فوات الأوان: لقد كانت أكذوبة البلدوزر الكبرى قد بدأت في الدوران، وهي لا تزال تدور حتَّى اليوم. وقد اعتاد مشاهدوا الأفلام الكثيرة التي صنعت عن "المعسكرات النازيَّة" مع مرور الوقت، على التكيف مع اللقطات المختارة والتعليق الصوتي المصاحب لها: جانب من جدار، كومة من الأحذية، مدخنة. لم يقتض الأمر أكثر من هذا لجَعْل الجمهور يصدق أنه يشاهد مبني للقتل الكيميائي.

وبعد إثنتين وخمسين سنة من تحرير معسكر "بيرجن-بيلسن"، قدم موريس درون، الأمين الدائم للأكاديميَّة الفرنسيَّة، شهادته في محاكمة موريس بابون المتهم "بالتعاون" في تنفيذ "الحل النهائي". وإليكم مقتطف من شهادته التي يذكر فيها "غُرَف الغَاز" في ذلك المعسكر (الذي- كما يعترف كلّ المؤرخين اليوم، لم يعرف واحدة

منها). كذلك يذكر في شهادته "البلدوزر" الشهير و"الشعر المحلوق الذي يستخدم في صنع أشياء أخرى":

"عندما أتحدث اليوم عن المعسكرات، فإنَّ المرء لا يزال يَرى أمام عينيه، كذلك يَرى المحلفون الحاضرون أمام عيونهم، تلك الصور المرعبة التي عرضتها وتعرضها لنا الأفلام والشاشات، ومن الصواب أن تعرض علينا، ومن الضروري أن يعاد عرضها كلّ سنة. إنَّها صور "غُرَف الغَاز"، وأكوام الشعر المحلوق من الرءوس للاستخدام في صنع أشياء أخرى، وأولئك الأطفال الذين يلعبون وسط الجثث، وتلك الجثث الهائلة العدد التي كان يتعين دفعها في خندق بواسطة بولدوزر، وجموع السجناء الذين يدون كالهياكل العظميَّة من الهزال وهم يرتدون البيجامات المخططة ويطل الموت من عيونهم، وأنا أقدم شهادتي طبقا لتلك الصور، وكنت في رتبتي المتواضعة كضابط معلومات، واحدا من بين عشرين ضابطا من ضباط الحلفاء الأوائل الذين "شاهدوا" تلك الصور عندما وصلت النسخة الكاملة بعد تحرير بيرجن-بيلسن على أيدي الإنجليز. لكن كان هذا في ربيع عام 1945م. وحتَّى ذلك الوقت، لم يكن أحد يعرف شيئا. إنَّنا لا يجب أن نحكم بعيون اليوم المدربة (كذا)، ولكن بعيوننا التي كانت عمياء بالأمس "42".

كانت عينا موريس درون مدربتين في الماضي، بينما أصيبت عيناه اليوم بالعمي بعد أكثر من خمسين عاما من الدعاية. ألم يكن

هو وعمه جوزيف كيسيل، وهما يهوديان، خلال الحرب، من الذين أعمتهم كراهيتهم للجنود الألمان عندما كتبوا كتابهما المروع "أنشودة للمكافحين".

الأمريكيون والسوفييت يتفوقون على البريطانيين

كانت كاتبة يهوديّة مثل حنا أردنت، على الأقل في عام 1951م، تتحلي بقْدر من الشجاعة مما جعَلها تكتب: "من المهم أن ندرك أن كلّ أفلام معسكرات الاعتقال حتّى اليوم مضللة فهي تصور المعسكرات في مراحلها الأخيرة، في اللحظة التي دخلتها جيوش الحلفاء. [...] إن حالة المعسكرات كانت نتيجة لأحداث الحرب خلال الأشهر الأخيرة: كان هملر قد أمر بإخلاء كلّ معسكرات الاعتقال في الشرق، ولذلك كانت المعسكرات الألمانيَّة مكدسة ومزدحمة جدا، ولم يكن لديه من السلطة ما يؤهله لضمان إمدادات الغذاء في ألمانيا" "43". ودعونا مرة أخرى نتذكر أن تعبير "معسكرات التجميع أو الاعتقال" concentration camps من اختلاق دعاية الحلفاء.

وهكذا لحق أيزنهاور بتشرشل، ومضى في تشييد صرح دعائي ضخم يقوم على قصص الفظائع، لدرجة أنه سرعان ما أصبح كلّ شيّء وأي شيّء مباحًا، سواء في التعامل مع المهزومين أو مع الحقائق البسيطة المجردة.

وكما ذكرت من قبل، فقد أضيفت إلى الفظائع الحقيقيَّة في التقارير الصحفيَّة عن المعسكرات الألمانيَّة فظائع أخرى مختلقة تفوق الخيال، واستبعدت صور نزلاء المعسكرات ذوي الوجوه المشرقة مثل وجه مارسيل بول"44" أو أولئك الذين كانوا في الحقيقة يتمتعون بصحة جيدة بالرغم من انتشار الأوبئة أو النقص الشديد في المواد الغذائيَّة، كما استُبعدت لقطات للأمهات اليهوديات المجريات في معسكر "داخاو" وهن يُرضعن أطفالهن من زجاجات الحليب. وظلت فقط صور المرْضَى والمنهكين والنفايات البشريَّة من الذين كانوا في الحقيقة ضحايا الحلفاء كما كانوا من ضحايا الألمان، بعد أن تسبب الحلفاء بقصفهم الشامل للأراضي الألمانيَّة الذي شمل المدنيين بما في ذلك المزارعين في الحقول، في دمار شبيه بنهاية العالم "أبوكاليبس" في قلب أوروبا.

وإحقاقا للحق يتعين على المرء الإشارة إلى أن تشرشل وأيزنهاور وترومان وديجول لم تصل بهم الوقاحة إلى درجة إضفاء المصداقيَّة على قصص الإبادة الجماعيَّة في "غُرَف الغَاز". لقد تركوا هذا الأمر للمسؤولين عن الدعاية ولقضاة محاكمهم العسكريَّة. وقد تعرض الألمان للتعذيب الشديد لأنهم كانوا في نظر الحلفاء مذنبين بسبب ارتكاب كلّ هذه الجرائم. وهكذا بدأت أعمال الانتقام ضِدَّ السجناء الألمان والمدنيين. وحتَّى عام 1951م كان يتم إعدام

الرجال والنساء في ألمانيا (وحتَّى في الثمانينيات ظل السوفييت يعدمون من يعتبروهم من مجرمي الحرب الألمان أو من المنتسبين لهم).

في البداية رُوع الجنود الأمريكيون والبريطانيون بعد أن شاهدوا ما وقع من دمار شامل للمدن الألمانيَّة وسكانها الذين تحولوا إلى "سكان للكهوف". ولذلك ذهب تشرشل وأيزنهاور إلى هناك لتأكيد: أن قوات الحلفاء أسقطت الشر، لقد جسدت الله، وسيكون هناك برنامج "لإعادة تثقيف" المهزومين، بما في ذلك حرق كتبهم السيئة بالملايين. وقيل للجميع إن موسم "الذبح الهائل" قد وصل إلى نهايته السعيدة، وانه كان ضروريا لتحقيق هدف نبيل. وكان هذا هو التزييف الذي تم تعميده في محاكمات نورمبرج الهزليَّة.

التزييف الذي فُضح أخيرًا

اقتضي الأمر ما لا يقل عن خمسين عاما لكي تكشف المؤرخة أنييت فيفوركا والسينمائي وليام كاريل للجمهور العام في فيلم بعنوان "ضِدَّ النسيان"، ما قام به الأمريكيون والسوفييت من تزييف وتلاعب في عام 1945م، وما اختلقوه اختلاقا في سياق موضوع تحرير المعسكرات في الشرق والغرب.

ومن الواضح أن فيفيوركا وهي فرنسيَّة يهوديَّة، وكاريل الاسرائيلي الذي كان يعيش في فرنسا منذ عام 1985م، تأثرًا بالمدرسة الفرنسيَّة في المراجَعَة التاريخيَّة. ورغم عدائهما الشديد لهذه المدرسة، فإنهما

اعترفا رغم ذلك، بأنه قد آن الأوان أخيرًا لكشف بعض أشهر افتراءات دعاية الإباديّين. ويستطيع المرء العودة في هذا المجال إلى مقال الصحفي فيليب كوسين "45" أو إلى المقال الذي كتبته بياتريس بوكار قبيل إعادة عرض الفيلم في القناة الثانية بالتليفزيون الفرنسي، وهو مقال يقول عنوانه وحده الكثير: "شوا، من الحقيقة إلى الاستعراض: الاختلاقات التي أدخلها الحلفاء على تقارير الضحايا""46". وفيه كتبت تقول: "بقليل من المبالغة فقط يمكن القول إن تحرير معسكرات الاعتقال كان بداية الاستعراضات التي تزيف الحقائق [...]. إن الإشارات الأولى التي صدرت عن عالم الاستعراض الذي أصبح مألوفا في القنوات التليفزيونيَّة مثل "سي. إن. إن" بعد خمسين عاما، كانت موجودة هناك بالفعل متمثلة في محاولات التنافس على البذاءة وحب الاستطلاع المرضي وأساليب التزييف [...]. وكان يتم تقديم أقل الناجين عجزا وضعفا للوقوف أمام الكاميرا لأداء السيناريو الخاص بهم: ويكرر أحدهم مرة ومرتين قوله: "لقد تم ترحيلي بسبب كوني يهوديا" [...]. وقد لحق السوفييت الذين لم يفعلوا شيئا عند تحرير معسكر "أوشفتز" بالأمريكيين في "الاستعراض"، فقد صوروا فيلما مزيفا للتحرير بعد عدة أسابيع، يظهر فيه عدد من الكومبارس وهم يحيون القوات السوفييتيَّة بحرارة. وتقول أنييت فيفيوركا: "إن وليام كاريل هو أول من قام بتحليل تلك الصور التي قيل لنا دائما -حتَّى عهد قريب- إنَّها

صور حقيقيَّة". كيف كان من الممكن قبولها؟ إن الناس غير معتادين على مناقشة الصور كما يناقشون النصوص المكتوبة".، وتشرح المؤرخة الأمر فتقول: "إن نموذج المقابر الجماعيَّة في تيميشوارا ليس بعيدا".

مسؤوليّة المنظمات اليهوديّة

منذ بداياتها في عام 1941م وحتَّى اليوم، كانت الدعاية التي تمحورت حول "الإبادة" و"غُرَف الغَاز"، نتاجا للمنظمات اليهوديَّة أساسا. وبالتالي أصبح الجمهور العام تدريجيا على قناعة بوجود خطة منظمة أثناء الحرب للإبادة الجماعيَّة قام بتنفيذها الألمان مستهدفين اليهود بالدرجة الأولى، وأن "غُرَف الغَاز" كانت بطريقة ما، مخصصة لهم (بما في ذلك اليهود الذين تعاونوا مع الألمان في المعسكرات أو soundercommandos) الذين كانت مهمتهم تتلخص في سوق رفاقهم إلى غرف الموت المزعومة. وتمثل متاحف "الهُولُوكُوسْت" التي لا يُحصى عددها اليوم، احتكارا يهوديا، وأصبحت الكلمة العبريَّة "شوا" (أي الكارثة) تدريجيا، هي الكلمة التي تعبر عن تلك الإبادة المزعومة. وأيا كان دور الحلفاء في صنع الأسطورة وترويجها، فقد لعبوا دورا ثانويا، دائما تحت ضغوط منظمات يهوديَّة متنوعة.

إن مجرد ظهور أصوات يهوديَّة تطالب اليوم بتقليل الكلام عن "غُرَف الغَاز" لا يبدو أنه يقنع زعماء الجماعات اليهوديَّة بخفض

نغمة الدعاية "للهُولُوكُوسْت". لكن أسطورة "غُرَف الغَاز" أصبحت من وجهة نظر المؤرخين اليهود، تمثل بشكل ما، عبئا ثقيلاً يعوق حريتهم في الترويج لعقيدة الهُولُوكُوسْت.

لقد صرحت شخصيَّة سياسيَّة فرنسيَّة بأن "غُرَف الغَاز" النازيَّة مجرد تفصيل في تاريخ الحرب العالميَّة الثانية. إلَّا أن ما كتبه أيزنهاور وديجول وتشرشل، يعتبر "غُرَف الغَاز" أقل من تفصيل في تاريخ تلك الحرب، فهم لم يذكروا كلمة واحدة عنها في مذكراتهم. ونلاحظ شيئا مشابها في كتابات المؤرخ رينيه ريمون الذي كان عضوا بارزا أولاً في "اللجنة الفرنسيَّة لكتابة تاريخ الحرب العالميَّة الثانية" ثم في "معهد التاريخ الحديث". ففي كتابين له يتوقع المرء أن يقرأ كلمتي "غُرَف الغَاز"، غير أننا لا نجد فيهما شيئا من هذا القبيل. ويعتبر المؤرخ الأمريكي دانييل جولدهاجن غُرَف الغَاز "ظاهرةً ثانويَّة". وفي الطبعة الفرنسيَّة من حيثيات الحكم في نورمبرج التي تقع في أربعة وثمانين ألف كلمة، لا توجد إلَّا 520 كلمة شديدة الغموض تشير إليها.

عند مُراجِعِي التاريخ فإنَّ "غُرَف الغَاز" هي أدنى من تفصيل في التاريخ، لأنَّها ببساطة شديدة، لم توجد قط. لكن "أسطورة" غُرَف الغَاز أكثر من مجرد تفصيل، لأنَّها حجر الأساس في بناء ضخم من المعتقدات من كلّ الأنواع، يمنعنا القانون من التشكّك فيها.

"غرف غاز أم لا.. ماذا يهم؟" هذا السؤال يمكن سماعه أحيانًا مختلطا ببعض السخريّة. إنَّه يضايق بيير فيدال ناكيه الذي يعتقد أنَّ التخلّي عن "غُرَف الغَاز" سيكون "استسلاما كاملا""47". وليس بوسع المرء إلَّا أن يتفق معه. عمليا، فإنَّ في موضوع وجود أو عدم وجود "غُرَف الغَاز"، يكمن التساؤل عما إذا كان يجب اعتبار الألمان مجرمين من النوع المنحط جدا، أم اعتبار اليهود كاذبين منحطين (أو موضع ثقة). في الحالة الأولى، يكون الألمان قد قتلوا خلال ثلاث أو أربع سنوات، عدة ملايين من المدنيين العزل البؤساء بوسائل صناعيَّة، في حين أننا في الحالة الثانية سنعتبر أن اليهود خلال أكثر من خمسين عاما، قاموا بنشر أكذوبة ذات أبعاد تاريخيَّة.

في عام 1976م أصدر الأمريكي آرثر بوتز كتابًا بعنوان "أكذوبة القرن العشرين" Hoax of the Twenteith Century، ونشرت أنا من جانبي في "لوموند" بتاريخ 20 ديسمبر 1978م و16 يناير 1979م مقالين حول "إشاعة أوشفتز". وفي أوائل العام نفْسه 1979م، أصدر فيلهلم ستاجليتش كتابه "أسطورة أوشفتز". وفي مواجهة بروز الكتابات المراجَعَة عبرّ الصهيوني و. د. روبنستاين -الأستاذ في جامعة ديكين في ملبورن- عن القلق اليهودي، فقد كتب يقول:

[...] إذا ما صُور الهُولُوكُوسْت على أنه مجرد أكذوبة، فإنَّ السلاح الإسرائيلي رقم واحد سيختفي [كذا]"48".

ومكررا نفْسه في وقت آخر فيما بعد، أعلن:

[...] إنه إذا ما أمكن تصوير الهُولُوكُوسْت على أنه "أسطورة صهيونيَّة" فسوف تتداعي كلّ أسلحة إسرئيل في مجال الدعاية "49".

وبعد ثماني سنوات، وكما لو كان يردد هذه الكلمات نفْسها، كتب محام يعمل لحساب منظمة "ليكرا" (العصبة الدوليَّة لمناهضة للعنصريَّة والعداء للساميَّة) يقول: "إذا كان حقيقيا أن "غُرَف الغَاز" وجدت، إذن فإنَّ البربريَّة النازيَّة لا نظير لها. أما إذا لم تكن قد وجدت، سيكون اليهود قد كذبوا، ويصبح العداء للساميَّة بالتالي مبررا. هذه هي رهانات المناظرة""50".

الرهانات إذن ليست مجرد رهانات تاريخيَّة، ولكنها أيضًا سياسيَّة. لكن الرهانات السياسيَّة تمثل مأزقا: يتمثل هذا المأزق في أن أسطورة "الهُولُوكُوسْت" تحقق بالدرجة الأولى، هدف إدانة ألمانيا النازيَّة، ثم بعد ذلك كلّ الأشكال القوميَّة، أو الأفكار القوميَّة باستثناء التنويعة الإسرائيليَّة أو الصهيونيَّة، التي تدعمها -على العكس- الأسطورة.

والرهانات بنفْس الدرجة الماليَّة، كما يدرك المرء عندما يَرى أنه منذ اتفاق "التعويضات" الموقع في لوكسمبورج عام 1952م، دفع دافعو الضرائب الألمان أرقاما "فلكيَّة" astronomical (حسب تعبير ناحوم جولدمان) لكلّ سكان دولة إسرئيل ويهود "الدياسبورا"،

وسوف يستمرون في الدفع تكفيرا عن "جرائم شوا" المفروضة عليهم حتَّى عام 2030م على الأقل. إن تجارة "شوا" التي أدانها حتَّى بيير فيدال ناكيه، لا تنفصل عن "شوا".

واليوم، تقنن خدعة "شوا" الابتزاز على النطاق الدولي. في الموقع الأول، عدد متزايد من البلدان الغنيَّة والفقيرة، بما في ذلك فرنسا، تجد نفْسها تواجه مزاعم البليونير إدجار برونفمان رئيس المجلس اليهودي العالمي والمنظمات اليهوديَّة الأمريكيَّة الثريَّة التي تطالب بـ "تعويضات" جديدة أو "إعادة قيمة المنهوبات" في شكل جبال من الذهب والمال. وهي لا تستهدف فقط الدول الأوروبيَّة بدءا من سويسرا. وفي الوقت الحالي تعمل "مافيا" راسخة في أربعة اتجاهات رئيسيَّة (ومن المؤكد أنَّها ستلاحق بلدانا أخرى في المستقبل): "الذهب النازي" و"الأصول اليهوديَّة" و"المقتنيات الفنيَّة اليهوديَّة" و"وثائق التأمين على الحياة اليهوديَّة". وتستهدف هذه المافيا أساسا: الحكومات والبنوك والمتاحف وبيوت المزادات وشركات التأمين. وقد اتُخذت بالفعل اجراءات لفرض تشريع جديد في ولاية نيوجيرسي الأمريكيَّة، تحت ضغوط من المنظمات اليهوديَّة، لفرض مقاطعة على البنوك السويسريَّة في حالة رفضها التعاون (قبلت بنوك سويسرا بالفعل دفع تعويضات باهظة بعد أن مارس البيت الأبيض ووزارة الخارجيَّة الأمريكيَّة ضغوطا مباشرة وهددت بفرض مقاطعة أمريكيَّة شاملة لها ـ المترجم). وهذه ليست سِوى البداية.

إن الحجة التي طرحها المبتزون يمكن اختصارها في كلمة واحدة هي "شوا". ولم تجرؤ حكومة واحدة أو بنك واحد أو شركة تأمين واحدة على الرد بأن الموضوع المطروح هو نتاج لأسطورة، وأن لا مجال لدفع تعويضات عن جريمة لم ترتكب. لقد كان السويسريون من السذاجة بحيث ظنوا في البداية أنه يكفي أن يصدروا قانونا يحظر أي تساؤل عن "شوا"، غير أنهم بمجرد أن أقروا القانون الجديد، قدم لهم برونفمان الفاتورة. ثم عرضوا حينذاك كميَّة كبيرة من الأموال، لكنه كان جهدا ضائعا، فقد ظل برونفمان "غاضبا"، ودعونا نؤكد أنه سيظل إلى الأبد غاضبا. "لقد قال:"أثبتت تجربتي مع السويسريين أنك ما لم تقرب النار من أقدامهم، فإنَّهم لا يستمعون لكلامك بجديَّة""51".

أما بالنسبة للأضرار التي وقعت على الألمان خاصة، ولغير اليهود عموما، من جراء نشر عقيدة الهُولُوكُوسْت، فهي أضرار لا تعد ولا تحصي، فالمنظمات اليهوديَّة تواصل بانتظام تكرار اتهاماتها ضِدَّ ألمانيا (المذنبة بسبب إبادة اليهود)، وضِدَّ تشرشل وروزفلت وديجول وستالين والبابا بيوس السابع ومنظمة الصليب الأحمر الدولي والدول المحايدة في الحرب، وهناك دول أخرى في الطريق، كلّ هؤلاء مذنبون وكلّ هذه الدول مذنبة في نظرهم، لأنَّها تركت ألمانيا ترتكب تلك "الإبادة"، وبالتالي، فإنَّها جميعها أيضًا، عرضة لدفع "تعويضات" ماليَّة.

لا تتعامل كتاباتي كثيرا مع "المسألة اليهوديَّة". إنني إذا كنت خلال فترة زمنيَّة طويلة، قد تشبثت بعناد بالتحقيق التاريخي دون أن أعطي اهتمامًا كبيرا لـ"المسألة اليهوديَّة" في حد ذاتها، فمَرْجِع ذلك يعود إلى أنني أعتبر الأخيرة ذات أهميَّة ثانويَّة، فإذا كنت قد أسهبت فيها كنت سأغامر بالابتعاد عن المجال الرئيسي للموضوع. لقد كنت أسعى، أولاً وأخيرًا، إلى رصد المكونات الأسطوريَّة والحقيقيَّة للقصة المسماة بـ"الهُولُوكُوسْت" أو "شوا"، ولذلك، كان الأهم عندي كثيرا أن أؤسس الحقائق المجردة، لا أن أحاول تحديد المسؤوليات.

ولكن وعلى الرغم مني، جَعَلني أمران أتجاوز هذا التحفظ: أولا: سلوك الكثير من اليهود تجاه أبحاثي. وثانيا: الطريقة العدوانيَّة التي سعوا بها إلى دفعي لتحديد موقفي من القضيَّة التي تشغل الكثيرين منهم أي "المسألة اليهوديَّة".

عندما بدأت في أوائل الستينيات البحث فيما أطلقت عليه "أولجا وورمسر مارجوت" في أطروحتها للدكتوراه عام 1968م "مشاكل غُرَف الغَاز"، كنت أعرف مباشرة نوعيَّة العواقب التي قد تؤدي إليها مهمة من هذا النوع. كان أمامي مثال ما وقع لبول راسينيه ينذرني بما يمكن أن يقع لي. ومع ذلك، فقد قررت الاستمرار في البحث، وحصره في إطار الطابع العلمي ونشر نتائجي. وقد اخترت أيضًا أن أترك الخصم المفترض يتحمل مسؤوليَّة اللجوء إلى

الإكراه، أو ربما حتَّى العنف الجسدي إذا ما تجاوز الموضوع حدود الجدل العلمي.

وكان هذا تحديدا ما حدث. وإذا ما استخدمت تعبيرا مجازيا، يمكنني القول إن الباب الضعيف الذي كنت أواصل كتابة أبحاثي المراجِعَة وراءه، انهار ذات يوم تحت الضغط الشديد لعصابة من المحتجين المقتحمين ذوي الأصوات العاليَة. وقد وجدت نفْسي عندئذ رغما عني، ألاحظ أن مثيري الشغب هؤلاء، كانوا كلّهم أو معظمهم، من أبناء وبنات إسرائيل. لقد أقحم "اليهود" أنفسهم في حياتي. ووجدتهم فجأة لا كما كنت أعرفهم حتَّى ذلك الوقت، أي كأفراد متميزين عن بعضهم البعض، ولكن كعناصر لا تنفصل عن بعضها في جماعة تتوحد بوجه خاص في الكراهية، أو باستخدام تعبيرهم في "الغضب". لقد جاءوا والزبد يرغي من أشداقهم يملؤهم الغضب الشديد لكي يصرخوا في أذني أن العمل الذي أقوم به أغضبهم غضبا شديدا، وأن استنتاجاتي زائفة، وأنه يتعين على بالضرورة أن أخضع لرؤيتهم الخاصة بتاريخ الحرب العالميَّة الثانية. هذه الرؤية "الكوشار" تضع اليهود في قلب الحرب كضحايا "لا يضارعهم أحد"، في حين أن النزاع أدي في الواقع إلى ما يقرب من أربعين مليون قتيل. إنهم يرون أن ما وقع لهم حدث فريد في تاريخ العالم. وقد حذروني من أنني ما لم أمتثل لهم، فسوف أري مستقبلي وقد دُمر. وبعد ذلك سرعان ما تم تقديمي للقضاء، ثم وعن طريق

الإعلام، شن المجلس الأعلى (السنهدرين) المكون من الحاخامات والأطباء وأنصار فرض القانون اليهودي، حملة عنيفة ضِدّي محرضين على الكراهية والعنف. ولن أسترسل في وصف الإهانات والاعتداءات الجسديَّة والدعاوي القضائيَّة التي تعرضت لها حتَّى لا يُصاب القارئ بالسأم من تفاصيلها المتشابهة.

لقد وصفني زعماء تلك المنظمات عن طيب خاطر بـ"النازي"، وأنا لست كذلك. ومع استمرار المقارنة، أصبحوا يطلقون على "الفلسطيني"، وهو ما بدا لي مناسبا أكثر بسبب موقفي المؤيد للفلسطينيين ولأنهم تعاملوا معي كما يتعاملون مع الفلسطينيين، وأدركت أن اليهود في "الدياسبورا" يتصرفون مع الذين يغضبونهم، تمامًا كما نَرَى أقرانهم يتعاملون في فلسطين. إن كتاباتي بشكل ما هي "انتفاضتي". وبصراحة، فأنا لا أجد فرقًا جوهريًا بين سلوك القادة الصهاينة في تل أبيب أو القدس، وسلوك الزعماء اليهود في باريس ونيويورك: نفْس الشراسة، ونفْس روح الغزو والهيمنة، نفْس الإصرار على التميز، كلّ هذا على خلفيَّة دائمة من الابتزاز والضغوط المصحوبة بالشكوي والأنين. هذا هو الحال في العالم اليوم. هل كان الحال مختلفا في الأزمنة الماضية؟ هل كان الشعب اليهودي يعاني في القرون الماضية كما يميلون إلى الزعم بذلك؟ هل عانوا من الحروب الخارجيَّة والأهليَّة كما عانت الجماعات الإنسانيَّة الأخرى؟ هل عانوا من الفاقة والبؤس؟ ألم يكونوا حقا مسؤولين عن

ردود الفعل العدائيَّة التي يشكون منها تلقائيا؟ عن هذه النقطة كتب برنار لازار Bernard Lazare:

"إذا كانت هذه العدائيَّة، وحتَّى البغض، قد حل باليهود في وقت واحد فقط أو في بلد واحد، يكون من السهل شرح الأسباب المحدودة لهذا الغضب. لكن هذا الجنس كان يواجه الكراهية من جانب كلّ الشعوب التي عاش بينها. لذلك، وبما أن معظم أعداء اليهود كانوا ينتمون إلى أجناس كثيرة متنوعة، وهي أجناس تسكن بلادا بعيدة تمامًا عن بعضها البعض، وتعيش في ظل قوانين مختلفة، تحكمها مبادئ متعارضة، تختلف في عاداتها وتقاليدها، وتشيع فيها أنماط متباينة للتفكير ولا يمكنها بالتالي الحكم على الأشياء من خلال نفْس المنظور، فمن المؤكد أن الأسباب العامة للعداء للساميَّة كانت دائما تكمن في أمة إسرائيل نفْسها وليس في أولئك الذين ناصبوها العداء".

هذا لا يدعو إلى افتراض أن مضطهدي اليهود كانوا دائما على حق، ولا أنهم لم يلجأوا إلى التطرف الذي يولده الحقد الشديد الكامن، ولكن إلى الافتراض بأن اليهود كانوا السبب في علتهم، على الأقل لبعض الوقت "52".

برنار لازار لم يكن معاديا لرفاقه في الدين بأيَّة درجة بل على العكس كان يمتلك من الصراحة ما يجعله يتذكر في فقرات كثيرة من

كتابه، كيف تمكن اليهود بمهارتهم، خلال تاريخهم كلّه (منذ العصر الاغريقيّ-الرومانيّ)، من الحصول على الامتيازات. وقد لاحظ أن الكثير من الفقراء الذين تحولوا إلى اليهوديَّة، "انجذبوا إليها بفعل ما يتمتع به اليهود من امتيازات" "53".

وأثق هنا أنني يمكن أن أسوق الملاحظة التالية دون خشية من سوء الفهم:

باعتباري متخصصا سابقا في اللغة اللاتينيَّة، ومتهما وقف أمام القضاء بفضل المنظمات اليهوديَّة، وأستاذا جامعيا منعته من إلقاء محاضراته المظاهرات اليهوديَّة، وأخيراً، كمؤلف ممنوع من النشر بسبب قرارات حاخاميَّة كُبرى صدقت عليها الجمهوريَّة الفرنسيَّة، فقد تخيلت أن من الممكن المقارنة بين حالتي وحالة بعض أسلافي المرموقين. ومن هنا اتجهت بأفكاري إلى الأرستقراطي الروماني لوسيوس فلاكوس. وقد أتيح لسيسيرو عام 59 قبل الميلاد الدفاع عنه في مواجهة متهميه اليهود. ويدعوني ما قدمه ذلك الخطيب اللامع أمام البلاط الإمبراطوري، واصفا قوة النفوذ والسلطة والطرق التي يلجأ إليها اليهود في روما، إلى الظن أنه إذا ما أتيحت له العودة إلى العالم اليوم في أواخر القرن العشرين، للدفاع عن مُراجِع تاريخيّ، فإنَّه لن يجد نفْسه مضطرا إلى تغيير كلمة واحدة في نص مرافعته المعروفة بـ "مساندة فلاكو" Pro Flacco

وبما أنني قمت بالتدريس في السوربون، فإنَّ أفكاري تتجه أيضًا إلى هنري لابرو، مؤلف كتاب "فولتير المعادي لليهود" Voltair anitijuif. ففي عام 1942م وسط الاحتلال الألماني لفرنسا، وهو وقت كنا نتوقع أن يتوخي فيه اليهود الحذر بقَدْر الامكان، اضطر لابرو إلى التخلّي عن إلقاء محاضراته عن تاريخ اليهوديَّة. ودعونا نقتبس من النجم الساطع في السوربون اليوم أندريه كاسبي Kaspi الذي كتب يقول: "تأسس كرسي للتاريخ اليهودي في السوربون ابتداء من الفصل الدراسي لخريف عام 1942م وأسند إلى هنري لابرو. وأدت الدروس الأولى إلى تفجر مظاهر العداء والحوادث مما أدي إلى إلغاء البرنامج الدراسي""54".

إن عشرات الكتاب العظام في الأدب العالمي مثل شكسبير وفولتير وهوجو وزولا (المدافع المتحمس عن دريفوس ومؤلف "المال" أيضًا) يمكن أن يجدوا أنفسهم اليوم أمام القضاء، يُحاكمون وينزل بهم العقاب بواسطة المنظمات اليهوديَّة. وقد يجد عدد من أعظم الأسماء في السياسة الفرنسيَّة، حتَّى الاشتراكي والمناهض للحرب جان جوريس JeanJaures، أنفسهم ملطخين بالعار.

هذه الاعتبارات قد تجعلني أنال صفة "المعادي للساميَّة" أو "المعادي لليهود". إنني أرفض مثل هذه الأوصاف التي أراها بالية ومبتذلة، فأنا لا أرغب في أن يلحق الأذي بأي يهودي. ومن جهة أخرى، أري أن سلوك معظم الاتحادات والمنظمات وجماعات

الضغط التي تزعم تمثيل المصالح اليهوديَّة أو "الذاكرة اليهوديَّة" هو سلوك منفر.

من الواضح أن رؤساء تلك الاتحادات والمنظمات والجماعات المختلفة يجدون صعوبة بالغة في استيعاب أن المرء يمكن أن يكون مدفوعا بحب الاستطلاع الذهني فقط. وإذا كنت قد وهبت جزءا أساسيا من حياتي للمُراجَعَة التاريخيَّة، أولاً في مجال الدراسات الأدبيَّة ثم في مجال الدراسات التاريخيَّة، فإنَّني لم أفعل ذلك بأي حال نتيجة بعض الحسابات الشخصيَّة أو كجزء من أيَّة مؤامرة لمعاداة لليهود، ولكن بغرض لفت الأنظار إلى المؤثر الطبيعي الذي يجعل الطيور تغني وأوراق الشجر تنمو، والإنسان في الظلام يبحث عن الضوء.

مقاومة علم التاريخ الطبيعيّة لهذه العقيدة

كان بإمكاني أن أتبع موقف بعض المراجِعِين بأن أعلن استسلامي وتوبتي وأتراجع عن بعض مواقفي الفكريَّة، وهي طريقة أخرى للهرب، أو أن أنشد السلامة باتباع طريق ملتو يتيح لي استئناف أبحاثي في الخفاء. لكني لم أكن قد قررت فقط في أواخر السبعينيات أن أقاوم بشكل علني أمام الجميع، بل وقطعت عهدا على نفسي ألَّا أمارس لعبة الخصم، ولم أسع إلى تغيير أي شيّء في موقفي، وتركت المتشنجين يغالون في تشنجهم إذا كان هذا اختيارهم، وقررت أن أصغي فقط، إلى أولئك الذين يتمتعون

بالشجاعة والجرأة من بين اليهود، وينبرون للدفاع عني حتّى لو كان هذا الدفاع محصورا في موقف معين فقط "55".

تُطلق المنظمات اليهوديَّة على الذين لا يتبنون مفهومها لتاريخ الحرب العالميَّة الثانية "معادين للساميَّة". وهذا أمر مفهوم، لأن بعض الذين يقومون بتحقير أسطورة عملاقة يمكن أن يكونوا مدفوعين في موقفهم بروح المعاداة للساميَّة. ولكني في الواقع أجسد فقط الاستنتاجات المنطقيَّة للبحث التاريخي الجاد الذي لم تتمكن أي محكمة وقفت أمامها من العثور على أي أثر فيه للسطحيَّة أو الإهمال أو الجهل المتعمد أو التزييف، رغم كلّ الدعاوي القضائيَّة والبحث المضاد المحموم الذي قام به المدعون والأدعياء.

وفضلاً عن ذلك، لا أستطيع من ناحيتي، أن أفهم لماذا يتعين على أن أبدي الاحترام إزاء جماعات من الناس لم يُظهروا قط أدنى احترامٍ لأبحاثي أو مطبوعاتي أو حياتي الشخصيَّة والعائليَّة والمهنيَّة. إنني لا أهاجم تلك المنظمات بسبب قناعاتها الدينيَّة أو بسبب ارتباطها بدولة اسرائيل. إن كلّ الجماعات البشريَّة تجد متعة في اللجوء إلى الأوهام الفكريَّة القديمة. وهي بالتالي حرة تمامًا في أن تقدم نفْسها كما ترغب، سواء كان تقديمها لنفْسها حقيقيا أم لا، أو تعرض لتاريخها كما ترغب بغض النظر عن مدي الحقيقة من الخيال فيما تطرحه، لكن ليس من حقها أن تفرض مفهومها للتاريخ على الآخرِين فرضا. ومع ذلك، فالمنظمات اليهوديَّة تفرض رؤيتها علينا،

وهو أمر مرفوض في حد ذاته، خاصة عندما يتضح أن المفهوم الذي تسعى لفرضه خاطئ. إنني لا أعرف أن أي جماعة أخرى في فرنسا نجحت في أن تجعل من قانون معين في عقيدتها الدينيَّة (هو قانون شوا) قانونا للجمهوريَّة الفرنسيَّة، وأن تجعله يتمتع بالحصانة بموجب امتياز فاضح يسمح لها بتشكيل ميليشيتها الخاصة المسلحة بمصادقة من وزارة الداخليَّة الفرنسيَّة. وأخيرًا فإنَّ هذه الجماعة تستطيع أيضًا أن تقرر حرمان أساتذة الجامعة الذين يغضبونها من الاشتغال بالتدريس سواء في فرنسا أو في الخارج (انظر حالة برنار نوتين Bernard Notin بوجه خاص).

المُراجَعة التاريخيّة والواقعيّة السياسيّة

لا يعرف مُراجِعُو التاريخ في الحقيقة، سَيّدًا أو حواريًّا. إنَّهم يُكونون جماعةً متباينة المنشأ، رافضين التوحد مع بعضهم البعض، وهو موقف له من الميزات بقَدْر ما له من العيوب. وبسبب فرديتهم فإنَّهم غير مؤهلين لخلق حركة متعددة الاتجاهات يعملون من خلالها بالتنسيق مع بعضهم البعض. ومن جهة أخرى، تعجز الشرطة عن اختراق مثل هذه المدرسة الفكريَّة والسيطرة عليها ووضعها تحت المراقبة، فالشرطة لا تستطيع أن تجد طريقها عبر قنوات نسيج المراجِعِين، لأن هذا النسيج لا وجود له في الواقع. إن هؤلاء الأفراد يشعرون بالحريَّة وهم يرتجلون، كلّ منهم حسب قُدْرته أو ذوقه، في نشاطهم المراجع الذي قد يتخذ أكثر الأشكال تباينا. وتعكس قيمة

العمل الذي يقوم به المرَاجِع التاريخي هذا التباين. وينبغي الاعتراف بأن النتائج لا تتطابق. وانطلاقا من هذا، يمكن القول إنه ما زال هناك الكثير الذي يمكن إنجازه. إن الهاوي يعمل جنبا إلى جنب مع الأكاديمي، وكذلك العملي مع الباحث في الأرشيف. ولن أتطرق هنا إلى ذكر أسماء خوفا من رصدها "56".

وفيما يتعلق بالموقف الذي يؤدي إليهنضال المراجَعَة التاريخيَّة، لا حاجة إلى القول إنَّ المراجِعِين منقسمين بين مؤيدين ومعارضين حول الموقف السياسي الذي يتعين اتخاذه، فمعظمهم- إذا ما أخذنا في الاعتبار أنهم في مواجهة "تابو"- يَرى أن من الضروري الاستمرار في العمل من خلال طرق ملتوية وبالتالي تفادي الاحتكاك المباشر مع حراس الأفكار الجامدة. ويَرى هؤلاء أن من الحماقة القول إن "الهُولُوكُوسْت" أسطورة، وإن من الأفضل التدليل على أن "الهُولُوكُوسْت" وقع حقا ولكن ليس طبقا للأرقام العامة السائدة. ولأنهم يعولون على الاستراتيجيَّة وليس على التكتيك، فإنَّهم يسعون إلى تجنب استثارة الحساسيات اليهوديَّة، ويقترحون- خطأ- نسبة الجزء الأسطوري في قصة "الهُولُوكُوسْت" أساسا، إلى الشيوعيين أو إلى الحلفاء الغربيين، وليس إليهود، وإذا كان لابد من نسبته لليهود، فليكن ذلك بشكل مخفف للغاية. ألم نرَ بعض المراجِعِين المبتدئين وقد أصبحوا جزءا من الهراء الخادع المتمثل في تقديم اليهود بوصفهم ضحايا مثل باقي الضحايا، في إطار المعتقد الزائف والمنتشر في

العالم؟ وطبقا لهذه الرؤية، فإنَّهم يرون أن اليهود دُفعوا إلى الإيمان بالإبادة الجماعيَّة وغُرَف الغَاز (كما لو كان هذا قد تم بفعل قوة باطنيَّة عقليَّة)، وطبقا لهذا المفهوم لا شكّ أيضًا أن نفْس القوي تدفعهم طوال الوقت، إلى طلب المزيد والمزيد من الأموال كتعويضات عن معاناتهم"57". أما اليهودي التائه الذي ينتقل إلى معسكر المراجِعين، فهو يلقي الحفاوة من جانب هذا النوع من المراجِعين ويُصور على أنَّه عبقري حقيقي أو منقذ للقضيَّة. وإذا ما نَسب القادم الجديد لنفْسه وبطريقة مبتذلة اكتشافات من سبقوه من غير اليهود في أوشفتز، يتم الاحتفاء به باعتباره الضوء الهادي للفكر العلمي.

إنني أقبل بعض قوالب هذه الواقعيَّة السياسيَّة، ولكن شريطة ألَّا ترتبط بالغرور. فليس هناك تفوق، فكري أو أخلاقي، في اعتبار الغاية تبرر الوسيلة والقول بضرورة استعارة أسلحة الغش والكذب التي يتسلح بها الخصم أحيانًا. إنني شخصيا أفضل المراجَعة التي ترتبط بالحيويَّة، ولكن دون حلول وسط كثيرة. أفضل المراجَعة التي تكشف ألوانها الحقيقيَّة والتي تتجه قدما نحو هدفها وبمفردها إذا لزم الأمر ولا تترك العدو يفلت من بين أيديها. وإضافة إلى هذا، فقد دفعتني التجربة الطويلة الجيدة لنضال المراجِعين للتوصل إلى أن الاستراتيجيَّة والتكتيك، يمكن استخدامهما أفضل من خلال سلسلة من الهجمات المباشرة في المناطق التي لا يتوقعها الخصم الذي لا

يتخيل أن أحدا سيتجرأ على تحديه بهذه الطريقة ليكتشف أنه لم يعد يخيف أحدا بل إنَّه أصبح مرفوضا.

صراع بلا نهاية

لقد عرض المراجِعُون كثيرا على خصومهم- في أكثر من مناسبة- عقد مناظرة عامة حول قضايا الإبادة الجماعيَّة والستة ملايين يهودي وغُرَف الغَاز، لكن المنظمات اليهوديَّة رفضت دائما مثل هذه المناظرة. وبينما تسمح الكنيسة الكاثوليكيَّة نفْسها اليوم بنوع من الحوار مع الملحدين إلَّا أن المعبد اليهودي من جانبه، لن ينسى أبدا ما وقع عليه من أذى"57" ولن يغامر بالتالي، بقبول مثل هذا الحوار مع المراجِعِين. وفضلاً عن هذا، هناك الكثير من المصالح السياسيَّة والماليَّة والأخلاقيَّة التي تهم زعماء إسرائيل والزعماء اليهود في الدياسبورا، والتي قد تتعرض للخطر في حالة قبولهم إجراء مناظرة موضوعيَّة حول وجهة النظر اليهوديَّة لتاريخ الحرب العالميَّة الثانية.

ولذلك، فإنَّ اختبار القوي سوف يستمر. إنني لا أري نهاية له. والصراع الذي نشهده بين "الإباديّين" و"المراجِعِين"، أي بين التاريخ الرسمي الجامد من ناحية، والتاريخ النقدي العلمي العلماني من ناحية أخرى، ليس إلَّا واحدا من سلسلة من الصراعات الطويلة المستمرة في المجتمعات الإنسانيَّة منذ آلاف السنين: بين الإيمان والعقل، وبين العقيدة والعلم. إن الإيمان بـ"الهُولُوكُوسْت" أو "شوا" هو جزء داخلي

من التلموديَّة العبرانيَّة التي إذا ما تفحصناها عن قرب، لتبين لنا بجلاء، أن أساطير "الهُولُوكُوسْت" ليست إلّا نتاجًا لها. إنَّ التلموديَّة اليهوديَّة لم تُظهر أبدًا أي رغبة في الامتثال للعقل، وهي ليست أبدا في طريقها إلى التلاشي مع أحد أكثر مكوناتها حيويَّة.

يَرى البعض أن أسطورة "الهُولُوكُوسْت" قد تخبو يوما ما، كما حدث للشيوعيَّة الستالينيَّة التي لم يكن لها تاريخ طويل، أو كما ستنهار الأسطورة الصهيونيَّة ودولة اسرائيل يوما ما قريبا. ولكن الذين يرون ذلك يقارنون بين شيئين لا يمكن المقارنة بينهما. إن الديانة اليهوديَّة، خلف المظهر المعقد الظاهري لا تنشغل بتلك الأحلام اليوتوبيَّة في إعادة تشكيل الإنسان وبناء المجتمع، فهي تخفي حقيقة نواياها لكي تتمكن من تحقيق أهدافها، فتحت الغطاء التلمودي الاستعراضي أو المبهر، وتحت البلاغة الشفويَّة الثقافيَّة، يمكن للمرء أن يَرى أنَّها تنغمس قبل كلّ شيّء، في جمع المال واللهاث وراء الإغواء الاستهلاكي. فمن الذي يصدق أن هذه القيم ستفقد قيمتها قريبا؟ إضافة إلى هذا، لماذا يؤدي أفول دولة إسرائيل إلى انفضاح أسطورة "الهُولُوكُوسْت"؟ على العكس، فملايين اليهود الذين سيضطرون إلى الاستقرار أو إعادة الاستقرار في دول الغرب الغنيَّة سوف لا يعدمون وسيلة للتباكي على "هُولُوكُوسْت ثانٍ" ومرة أخرى، وبشكل أكثر قوة، سيحّملون العالم كلّه مسؤوليَّة المحنة

الجديدة التي نُكب بها الشعب اليهودي، الذي يصبح مطلوبا عندئذ "تعويضه".

في النهاية، ترتبط التلموديَّة اليهوديَّة، التي يمكن ملاحظة تجسدها بوضوح في قصص "الهُولُوكُوسْت"، ارتباطا عضويا بالمنطقة الأعمق عند الإنسان، أي منطقة الخوف. هنا تكمن قوتها، وهنا تكمن فرصتها للبقاء بالرغم من كلّ المخاطر وبرغم ما تعرضت له أساطيرها من هجوم على أيدي مُراجِعِي التاريخ. وباستغلال الخوف، سيفوز ممارسو التلموديَّة اليهوديَّة في كلّ مواجهة.

إنني أوافق على ما توصل إليه المؤرخ وعالم الاجتماع الفرنسي سيرج ثيون"58" الذي يَرى أن "المراجَعَة التاريخيَّة، التي كسبت خلال الخمسة والعشرين عاما الأخيرة كلّ المعارك الفكريَّة التي خاضتها، تخسر الحرب الأيديولوجيَّة كلّ يوم، فالمراجَعَة التاريخيَّة تناضل ضِدَّ منهج متطرف شبه ديني في التفكير، وتناضل ضِدَّ معتقدات ترفض أي شيّء ينبثق من المدار غير اليهودي. إننا في حضرة نظام لاهوتي دنيوي، كاهنه الأعظم هو إيلي فيزل الموسوم بجائزة نوبل".

المستقبل بين ثقافة القمع والانترنت

على القادمين الجدد إلى حقل المراجَعَة التاريخيَّة أن يتجنبوا الوقوع في الأوهام. إن مهمتهم ستكون صعبة. هل ستكون أقل صعوبة من مهمة بول راسينييه وورثته؟ هل سيكون القمع أقل عنفا؟ إنني

شخصيا أشكّ في هذا. غير أن التغييرات التي ستحدث في العالم بفعل التوازنات السياسيَّة الجديدة وتطور تقنيات الاتصال، ربما ستتيح للأقليات الفرصة لنشر أفكارها على نطاق أكبر مما كان في الماضي القريب. وبفضل "الإنترنت" ربما سيكون من السهل على المراجِعِين تضليل الرقابة، وستصبح مصادر المعرفة التاريخيَّة دون شكّ أكثر توفرا.

وتظل الحقيقة أنه في هذا القرن وعند نهاية الألفية، يجد الإنسان نفْسه في عالم تخضع فيه الكتب والصحف ومحطات الإذاعة والتليفزيون بشكل أكثر، لسلطة المال أو لشرطة الفكر، بينما تظهر فيه وتتطور باطراد، وسائل جديدة للاتصال ستتمكن ولو جزئيا، من الإفلات من تلك القوي المهيمنة. ويمكن رؤية العالم الآن باعتباره يتكون من صورتين متميزتين، واحدة تتجمد وتشيخ والأخرى تتفجر بطيش الشباب الذي يتطلع بحماسة إلى المستقبل. ويمكن عقد مقارنة مشابهة في مجال البحث التاريخي، فمن ناحية، نجد في القطاع الذي يخضع لرقابة شرطة الفكر، المؤرخين الرسميين الذين ينشرون آلاف الأعمال عن "الهُولُوكُوسْت"، حاصرين أنفسهم في إطار مملكة المعتقد الديني أو الجدل المنافي للمنطق، بينما نجد على الجانب الآخر، العقول المستقلة التي تكافح لكي تتبع مفاهيم العقل والعلم، وبفضل الأخير (أي العلم) يبدي البحث التاريخي حيويَّة ملفتة، خصوصا ما أصبح متوفرا منه على شبكة "الإنترنت".

إن أنصار التاريخ الرسمي الذين يعملون في حماية القانون، سيواجهون دائما الذين يتشكّكون في حقائقهم المختومة بالختم الكهنوتي. الطرف الأول يملك منذ زمن بعيد، القوة والمال، والطرف الثاني أمامه مستقبل حقيقي.

قمع متزايد

إذا كانت هناك نقطة واحدة يمكن توصيلها من خلال هذا العمل إلى كلّ من المراجِعِين والمعارضين للمُراجَعَة فهي تلك المتعلقة بالقمع المتواصل من جانب الأخيرين ضِدَّ الأولين.

إنَّ لَدى كلّ مُرَاجِعٍ تاريخيٌّ سِجلٌّ حافلٌ بما كلّفه شخصيا الحديث بصراحة في موضوع أقرب إلى التابو، لكنه لا يطلع دائما على ما يتعرض له زملاؤه في بلدان أخرى في نفْس الوقت. إن المناهضين للمُراجَعَة، من ناحيتهم، دائما ما يقللون من مدي ردود فعلهم القمعيَّة، فهم لا يفكرون إلَّا في عذابهم الشخصي متطلعين إلى ما ناله أسلافهم على أيدي قضاة محاكم التفتيش في العصور الوسطي. إنهم مدفوعون بشكل قَدَريّ إلى الجلد بالسياط والاستمرار في الجلد انتقاما لما وقع في الماضي، يتسلل الوهن إلى أذرعهم ويشعرون بتلقص في عضلاتهم، يعانون وينوحون، يميل أنصارهم دائما إلى إبداء الشفقة على هؤلاء الجلادين أنفسهم. إنهم يحجبون عيونهم ويسدون آذانهم لتفادي رؤيَّة أي ضحيَّة من ضحاياهم. وأحيانًا يدون حتَّى الدهشة،

ربما ينوع من الصدق، عندما يرون قائمة أسماء المراجِعِين الذين نجحوا هم في تدمير حياتهم الشخصيَّة والعائليَّة والمهنيَّة، أو نجحوا في فرض غرامات ماليَّة باهظة عليهم أو في استصدار أحكام بسجنهم، أو تسببوا في إصابتهم بجروح بالغة أو حتَّى رشوا الأحماض في وجوههم، أو قتلوهم أو دفعوهم إلى الانتحار. وعلى العكس من ذلك تمامًا، لا توجد هناك حادثة واحدة لمرَاجِعٍ لمس شعرة واحدة في رأس أحد خصومه. ويجب القول إن الصحافة تأخذ على عاتقها إخفاء العواقب المختلفة لهذا القمع الواسع النطاق بِقَدْر الإمكان. وفي هذا المجال يبرز دور صحيفة "لوموند" اليوميَّة الفرنسيَّة بوجه خاص، التي تسترت على الكثير من الحوادث البغيضة، الأمر الذي ما كانت لتسكت عنه إذا كان ضحايا تلك الحوادث من اليهود المناهضين للمُراجَعَة التاريخيَّة على طريقة بيير فيدال ناكيه، وكنا سنراها تحرض على تنظيم المسيرات وتظاهرات الاحتجاج في العالم كلّه.

إن أقصى ما يمكن أن نتوقعه من حواريي "الهُولُوكُوسْت" هو في أفضل الأحوال، تحذير ضِدَّ بعض المبالغات المتطرفة في التصدي للمُراجَعَة التاريخيَّة، بغرض تفادي الإساءة إلى سمعة اليهود وسمعة القضيَّة المقدسة لعقيدتهم.

في آخر دفعة من التدابير القمعيَّة التي اتخذت ضِدَّ المراجِعِين يمكن أن نذكر (بدءا من فرنسا) قرار وزارة التعليم بطرد ميشيل آدم مِن وظيفته كمدرس للتاريخ في إحدَى المدارس الاعداديَّة في بريتاني.

هذا الرجل وهو في السابعة والخمسين من عمره ويعول خمسة أطفال، يجد نفْسه حاليا دون دخل على الإطلاق، بل وقد حُرم من الحصول حتَّى على أي شكل من أشكال الدعم الاجتماعي من الدولة. أما فنسنت رينورد، الذي طرد أيضًا من وظيفته كمدرس في التعليم العام، فقد حكم عليه في العاشر من نوفمبر 1999م من جانب محكمة سان نازير، بالسجن ثلاثة أشهر ودفع غرامة قَدْرها عشرة آلاف فرنك لقيامه بتوزيع "تقرير رودلف". وقد أصبح رينورد -البالغ من العمر تسعة وعشرين عاما، وهو متزوج ويعول ثلاثة من الأطفال الصغار- هو وزوجته من المعدمين. أما باستور روجيه بارمنتييه فقد طرد من الحزب الاشتراكي بسبب وقوفه إلى جانب روجيه جارودي في قضيته ذائعة الصيت.

وفي برشلونة بتاريخ 16 نوفمبر 1998م، أدين موزع الكتب بيدرو فاريلا بتهمة "إنكار الهُولُوكُوسْت" و"الحض على الكراهية العنصرية" من خلال كتاباته، في الدعوى التي أقامها ضِدَّه مركز فيزنتال (في نيويورك) ومركز مناهضة العنصريَّة في أسبانيا ومنظمتان يهوديتان في برشلونة والحركة اليهوديَّة الأسبانيَّة الليبراليَّة، وحكم عليه بالسجن خمس سنوات وغرامة قَدْرها حوالي خمسة آلاف دولار ودفع التكاليف الباهظة للمحاكمة. وقد أمرت المحكمة بتدمير وإتلاف حوالي 21 ألف كتاب ومئات من شرائط الفيديو وشرائط التسجيل الصوتيَّة الموجودة في مكتبته عن طريق الحرق. وكانت مكتبته قد

تعرضت من قبل لاعتداءات عنيفة شملت إلقاء الصواريخ الناريَّة، وتعرض في مناسبات عدة، هو وموظفة تعمل عنده للاعتداء الجسدي. ويسعي مركز فيزنتال حاليا إلى سحب شهادة الدكتوراه في التاريخ التي حصل عليها قبل عشر سنوات"59".

وفي ألمانيا، يُصادر ويحرق المزيد من كتابات المراجِعِين. وما زال جاري لوك (وهو مواطن أمريكي تم ترحيله من الدنمارك إلى ألمانيا) وجونتر ديكرت وأودو فالندي رهن السجن، وسيكونون سعداء الحظ إذا ما لم تمدد فترة عقوبتهم. أما إيرهارد كمبر فبعد أن قضي عاما في السجن، وجد نفْسه مهددا بعقوبة جديدة أكثر قسوة قد تجعله يمضي بقيَّة عمره وراء القضبان، مما دفعه إلى الاختفاء. وقد اضطر ألمان ونمساويون آخرون إلى الهرب خارج بلادهم.والعيش في المنفى.

وفي كندا، يستمر مأزق إرنست زوندال وأصدقائه أمام محكمة من المحاكم الاستثنائية تسمى "محاكم لجان حقوق الانسان"، وهي محاكم تتلذذ بالسخرية من الحقوق الأساسيَّة للمتهم، فالمتهم على سبيل المثال، ممنوع من الجدل بالقول إن ما كتبه يتفق والحقائق الموثقة، فهذه المحاكم لا تعير التفاتا للحقيقة، لكنها تهتم فقط بما إذا كان ما نشر قد سبب الحرج لبعض الأشخاص. وهناك سلطات قضائيَّة استثنائية أخرى ترتبط بجهاز المخابرات الكندي، يُحاكم فيها المراجِعُون في غرف مغلقة بناء على ملف أعدته المخابرات عن الشخص لا يسمح للمتهم بالاطلاع عليه. وفي عام 1999م صدر

في "أوتاوا" قانون جديد لمكافحة المراجَعَة التاريخيَّة، يخول الشرطة سلطة تفتيش المنازل بغرض مصادرة الكتب والمواد الأخرى التي "قد" تساعد في نشر المراجَعَة حسب تعبيرهم، هذا القانون يفرض على المحاكم العادية إخضاع إجراءاتها للخط الذي تتبعه المحاكم الاستثائيَّة، وبالتالي فإنَّها لم تعد تسمح للمتهم بأن يقيم دفاعه على أساس أن ما كتبه هو الحقيقة "60".

وتمارس المنظمات اليهوديَّة في العالم حاليا ضغوطها من أجل فرض قوانين استثنائية لمكافحة المراجَعَة التاريخيَّة. وفي مؤتمر عقد مؤخرا في سالونيكا في اليونان، طالب "الاتحاد الدولي للمحامين اليهود" الحكومة اليونانيَّة بإصدار قانون من هذا النوع في اليونان، وأعلن المحامون اليهود أنهم سيعقدون مؤتمرات من نفْس النوع في أكثر من عشرين دولة "61".

واجب المقاومة

مهما كانت العواصف أو التقلبات التي قد تنشأ الآن أو في المستقبل، فالمؤرخ المراجِع عليه أن يثبت على موقفه. ويجب أن يتمسك بالبحث العنيد عن الدقة التاريخيَّة في مواجهة التخويف والتهديد بالانتقام والإغراءات. إنه بموقفه هذا، حتَّى وإن كان دون وعي منه، يكون قد أنصف في تناوله لمأساة كلّ ضحايا الحرب العالميَّة الثانية. وانطلاقا من هذا الموقف، يجب أن يرفض التمييز

بينهم بأي شكل على أساس الجنس أو الدين أو الأصل. وفضلاً عن هذا كلّه، يجب أن يرفض الدجل الهائل الذي توج ذلك الصراع: محاكمات نورمبرج وطوكيو وآلاف المحاكمات الأخرى التي تمت منذ نهاية الحرب والتي لا تزال تتوالى حتَّى اليوم، رافضة أن يعترف المنتصر بجرائمه، سامحة له أن يمنح نفْسه الحق في محاكمة وإدانة المهزومين.

وعلى عكس الرؤية الرومانسيَّة للكاتب الأرستقراطي فرانسوا رينيه دو شاتوبريان (1768م-1848م)، فإنَّ المؤرخ ليس "مكلّفا بالانتقام للشعوب"، بل ولا حتَّى بالانتقام للشعب الذي يزعم أنه شعب الله المختار.

وفي أي موضوع كان، فلا مهمة أمام المؤرخ بوجه عام، ومُرَاجِع التاريخ بوجه خاص، إلَّا التدقيق فيما يقال. هذه المهمة أساسيَّة وبديهيَّة، لكنها أيضًا -وكما علمتنا التجربة- محفوفة بالمخاطر.

هوامش المدخل

1) هذه الكلمات لكارل شلوجل، كتبها دفاعًا عن جابور تاماس ريترسبورن، الذي اتّهمه ماكسين ليو في مقالٍ بعنوان "Holocaust-Leugner im Berliner Centre Marc Blochs" نُشِر في Berliner Zeitung بتاريخ 12 فبراير 1998م، بالدفاع عن حَقِّ روبير فوريسون في الكلام عام 1980م، في مقالٍ بعنوان " Eine Gagdapartie. Wie man einen Wissensvhaftler ruiniert"، المرْجع السابق، بتاريخ 18 فبراير 1998م (صفحة 42).

2) "في يوليو 1981م، أصدَر الكنيست الإسرائيليّ قانونًا يَحظر إنكار "الهُولُوكُوسْت" يَنصُّ على: "يُعاقَب بالسجن لمدَّة خمس سنوات، كلّ مَن يَنْشر كِتابةً أو شَفاهةً، أيّ عملٍ يُنكِر الأفعال التي ارتُكِبتْ خلال الحُكْم النازيّ، وتَشمل الجرائم ضِدَّ الشعب اليهوديّ أو الجرائم ضِدَّ الإنسانيَّة، وكذلك أيّ عملٍ يُقلِّل مِن أبعادها، بِغَرَض الدفاع عن مرتكِبي تلك الجرائم أو تأييدهم أو التمَاثل معهم". وكان الكنيست قدْ رفَض مشروعًا ينصُّ على فترة عقوبة تَصِل إلى عشر سنوات سجن. وهكذا لمْ يَعد موضوع إبادة اليهود مطروحًا للجدل بين المؤرِّخين، وبَدا أنَّه اقتُلِع اقتلاعًا مِن التاريخ نفْسه، وأَصبَح تشريعًا قوميًّا للحقيقة يَحميه القانون، بِما يُشْبه على نحوٍ ما، العقيدة الدينيَّة. والحقيقة أنَّ مَوضِع "الهُولُوكُوسْت" في إسرائيل أصبح أرقى مِن مكانة العقيدة الدينيَّة، فأقصى عقوبةٍ ينالها كلّ مَن يجرح "الحساسيَّة الدينيَّة" هي أنْ يَقضي عامًا في السجن، بما في ذلك الملحِد الذي يُنكِر وجود الله. انْظرْ كتاب توم سيجيف: "المليون السابع: الإسرائيليون والهُولُوكُوسْت"، نيويورك، هيل آند وانج، 1993م (صفحة 464).

3) Bulletin quotidian d’information de L’Agence telegraphique juive, "النشرة الدوريَّة للمعلومات للوكالة اليهوديَّة التلغرافيَّة" 2 يونيو 1986م، (صفحة 1و 3).

4) انْظرْ روبرت ماكسويل "J'accuse"، (إنّي أتّهم) صحيفة صنداي ميرور البريطانيّة (وكان ناشرها)، بتاريخ 17 يوليو 1988م. صفحة 2.

5) "كان الأطفال اليهود يُلقَون أحياء في المحارق" (بيير ويل، مدير المعهد الفرنسي لدراسات الرأي العام SOFRES في مقاله L'anniversaire impossible, Le Nouvel juif. بتاريخ 9، فبراير 1995م، صفحة 53.

6) يقول ناحوم جولدمان في كتابه Le Paradoxe Juif الصادر في باريس عام 1976م (صفحة 83-84): "وفضلاً عن ذلك، مِن المفيد هنا التأكيد على أنَّ الجيتو -تاريخيًا- اختراعٌ يهوديّ". وانْظرْ أيضًا بيير أندريه تاجيف L'identote Juif et ses fantasmes في L'express بتاريخ 20-26 يناير 1989م، (صفحة 65).

7) إيريك كونان Aushwitz: La memoire du mal في L'express بتاريخ 19-25 يناير 1995م، صفحة 68.

8) المصْدر نفْسه. في عام 1992م، أيّ بعد فترةٍ طويلةٍ مِن "أواخر السبعينيّات"، قَدَّم الطالب الشاب ديفيد كول، وهو مُرَاجِع من كاليفورنيا مِن أصلٍ يهوديّ، قَدَّم نفْسه باعتباره مُكتَشف الأكاذيب والتزييفات التي أُدخِلَت على غُرفَة الغاز في معسكر أوشفتز- 1. وفي فيلم فيديو رَدئ صَوَّر مِن ناحية، الموقْف الذي يُرَوِّج له دليل المتحَف (الذي يَرى أنَّ غُرَف الغَاز حقيقيَّة)، ومِن ناحية أُخرى مؤْقف فرانشيسك باير وهو عُضو في إدارة المتحف، (ويَرَى أنَّ هذه الغُرفَة "مشابِهةٌ تمامًا" للأصل). ولم يكنْ هناك جديدٌ في هذا كلّه، لكنَّ المشْكلة أنَّ ديفيد كول وأصدقاءه بَالغوا كثيرًا بعد ذلك -إذا ما استخْدَمنا تعبيرًا مُخَفَّفا- فزعموا أنَّ فرانشيسك باير اعترفَ بوقوع "تزييف". والحقيقة أنَّ التزييف قد وقع لكنَّ ديفيد كول للأسَف لم يستطعْ كشفه بسبب عدم دراسته بجديّةٍ لأعمال مُراجِعِي التاريخ. وقد كان بوسعه بالتأكيد أنْ يَدحض مزاعم فرانشيسك باير، إذا ما أطلعه على الخرائط الأصليَّة والتصميمات التي اكتشفتها أنا عام 75-

1976م، ونشرها في أواخر السبعينيَّات. في تلك المسألة، مِن الواضح أنَّ "غُرَف الغَاز" المزعومة هي نتيجة لعددٍ مُعيَّنٍ من التعديلات التي أُجْرِيَت على المباني والتي تمَّت بعد الحرب. وعلى سبيل المِثَال، فقد تمَّ حَفْر الثقوب الأربعة بشكلٍ رَدئ وغير متقنٍ في السقف، وهي الثقوب التي يزعمون —اليوم- أنَّ الألمان كانوا يَصبُّون غاز زيكلون ب مِن خلالها، وأثناء قِيامهم بذلك، تسبَّب البولنديُّون في كَسْر الحديد المسلَّح الذي يَدْعم السقف، وظلَّ على حالته هذه حتَّى اليوم.

9) ر. ج. فان بيلت ود. دورك "أوشفتز من 1721م حتَّى الآن"، لندن، مطبوعات جامعة يال، 1996م، صفحة 363، 369.

10) جان كلود بريساك، Enquete sur les chambers...gaz في Auschwitz, La Solution Finnale, Paris, Collections de L'Histoire, 3 أكتوبر 1998م، صفحة 41.

11)جاك بايناك في La Nouveau Quotidien (Lausanne)، 2 سبتمبر 1996م، صفحة 16، و 3 سبتمبر 1996م، صفحة 14.

انْظرْ جاك بايناك ونادين فريسكو Comment s'en debarrasser؟ (كيف تتخلص منهم)، لوموند، 18 يونيو 1987م، صفحة 2.

12) وَرد أنَّ رقْم الستَّة ملايين يهوديّ ظَهر للمرة الأولى في مقالٍ صحفيٍّ عام 1919م، بقلم مارتن هـ. جلين، الحاكم السابق لولاية نيويورك وعنوانه: "يجب إيقاف صَلْب اليهود" The American Hebrew، بمجلة "العبري الأمريكي" بتاريخ 31 أكتوبر 1919م. وفي هذا المقَال نَاشَد مارتن جلين الأمريكيِّين المساهمة في مساعدة ستَّة ملايين يهوديّ، قال إنَّهم مُعرَّضين للمجاعة والاضطهاد، وإنَّهم كانوا بالتالي يُواجهون "هُولُوكُوسْت" و"صَلْبًا". وترجع ظهور كلمة "هُولُوكُوسْت" في اللغة الإنجليزيَّة إلى القرْن السابع عشر، أمَّا في عام 1919م، فقد أُطلِقت على عواقب المجاعات التي تُوصَف بالكارثة الوشيكة. وفي عام 1894م، أطلقَ برنار لازار الكلمة على مذابح اليهود، فقدْ كَتَب يقول: "مِن وقتٍ لآخر كان الملوك والنبلاء وأثريَاء المدن، يُقدِّمون هُولُوكُوسْت اليهود لعبيدِهم [...] لقد ضُحِّي باليهود في هُولُوكُوسْت".

للساميَّة، تاريخه وأسبابه"، باريس، ل. شايلي، 1894م، أُعِيد طَبعه في باريس عن دار "المرفأ القديم"، عام 1985م، صفحة 67و 71.

العداء" (L'Antisemitisme, son histoire et ses causes)

13) لوسي دافيدوفيتش، في كتاب "مُفسِّر الهُولُوكُوسْت" The Holocaust Reader، نيويورك، دار بيهرمان، 1976م، صفحة 327، ويحتوي الكتاب على خِطاباتٍ مُتَرجَمَةٍ مِن العبريَّة نُشِرت في نيويورك عام 1960م تحت عنوان Min hametzar.

14) إنَّني مَدينٌ في هذا الاكتشاف، للألماني يواكيم هوفمان في كتابه Stalins Vernichtungskrieg 1941-1945 (حرب ستالين المدَمِّرة)، ميونيخ، الطبعة الثانية، 1995م، صفحة 161، وفي صفحة 169 يشير إلى أنَّ ايليا إهرنبورج ذكر هذا الرقم في مقالٍ له في صحيفة "أنباء الحرب السوفيتيَّة" في 4 فبراير 1945م، بعنوان "مرة أخرى تَذكَّروا". وعندما حاولتُ التأكُّد مِن هذه النقطة في "متحف الحرب الإمبرياليّ" في لندن، فشلتُ في العثور على عنوان مِن هذا النوع في ذلك التاريخ، لكنِّي عثرتُ على النَّصّ الذي أشَار إليه هوفمان تحت عنوانٍ آخر وفي تاريخٍ آخَر، وكان المقال بعنوان "تَذكَّروا، تَذكَّروا، تَذكَّروا" في عدد 22 ديسمبر 1944م، صفحة 4 و 5. فهل يَستنتج المرء أنَّ "أنباء الحرب السوفيتيَّة" كانتْ تُطبَع في طبعاتٍ مُختلِفة؟

15) انْظرْ كتاب: "الناجون مِن الهُولُوكُوسْت" لإدينا ميشكوف (التي تعمل في إدارة AMCHA)، القدس، 13 أغسطس 1997م (الأرقام واردة مِن مكتب رئيس الوزراء الإسرائيليّ).

16) هذا الكلام البائس المليئ بالتدليس (الكلام عن الفتحات الموجودة في السقف والتي صنعوها صنعًا، ويُمكن التأكُّد ببساطةٍ –اليوم- أنَّه لم يكنْ لها وجودٌ قَطّ، وكذلك الكلام عن الأعمدة المجَوَّفة التي نَرى اليوم أنَّها مُصْمَتة) أُعيد نشره في دليل آخر نشر عام 1995م. انْظرْ جيجاشو وينبرج وإينا ايليلي، نيويورك، ريزولي، صفحة 126-127. من ناحيةٍ أخرى، لا يحتوي هذا الدليل الثاني على ما قدَّمه برينباوم في

وثيقته كعرضٍ مُجَرَّد لإثبات حقيقة القتل بالغاز: مجرد باب لغُرفَة الغاز المزعومة في معسكر ماجدانيك.

17) لونوفيل أوبسرفاتور، 30 سبتمبر 1993م، صفحة 969.

18) "كلّ الأنهار تَصبُّ في البحر" All Rivers Run To the Sea الجزء الأول، نيويورك 1995م، صفحة 74. ولوسي دافيدوفيتش في كتاب "مُفسِّر الهُولُوكُوسْت" السابق الإشارة إليه.

19) "الهُولُوكُوسْت والتاريخ، المعروف، والمجهول، والمختلَف عليه، والمعَاد فحصه"، تحرير مايكل برنباوم وابراهام بيك، صَدَر بالاشتراك مع متحف الهُولُوكُوسْت التذكاريّ في واشنطن، عن مطبوعات جامعة انديانا، 1998م.

20) المصْدر السابق، صفحة 15.

21) انْظرْ المصْدر السابق، صفحة 6-7.

22) النماذج المزيَّفة للمَحْرقة و"غُرفَة الغاز" الملحقة بها، والمعروضة في المتحف الوطنيّ في أوشفتز، وكذلك في متحف واشنطن التذكاريّ للهُولُوكُوسْت، صُمِّمَتْ على عجلٍ وبما يتناقض حتَّى مع البقايا التي يُمكِن فحصها في أوشفتز-بيركناو، وهو ما يُثبِتْ أنَّ هذه النماذج المضْحِكة ما هي إلَّا نماذج خياليَّة. راجِع الهامش رقم 16.

23) نيويورك، سوكن، 1996م.

24) انْظرْ ويلتوش (زيورخ)، 27 أغسطس و3 سبتمبر 1998م، نيكولاس ويل La memoire suspectee de Binjamin Wilkomirski. لوموند، 23 أكتوبر 1998م، صفحة 5.

25) دونالد وات، ستوكر: The Story of an Australian solider who survived Auschwitz-Birkinau. نيويورك 1995م.

26) فريد سيديل Habiter les tenebres (العيش في الكآبة)، باريس-جنيف، لابالانتين، 1963م، وباريس أ. ميتالييه 1990م.

27) Vivre, C'est vaincre (أنْ تعيش هو أنْ تكسب)، موليفرييه، مين ايه لوار (فرنسا)، 1988م، ويتم تقديم الكتاب كما لو كان قد كُتِب عام 1945م وطُبع في الثلث الأخير من عام 1946م. وفي عام

1988م، أعيد طَبْعه مصحوبًا بدعايةٍ صاخبة مِن جانب دار نشر "مطبوعات أيرو" وعلى الغلاف كُتِبَ تعريفٌ بالكِتاب بعنوان "كنتُ شاهدًا على الهُولُوكُوسْت". وفي صحيفة الفيجارو بتاريخ 18 مايو 1996م (صفحة 2) أعلن الجنرال روجيريه أنَّه "شَهِد "شوا" في بيركناو". أمَّا الوصف التفصيليّ لـ "غُرَف الغَاز" وللأفران الذي زوَّده به بعضهم، فجاء متناقضًا تمامًا مع ما أصبح مقبولاً اليوم، فقدْ أدخَل "شاهده" في روعِه أنَّ الغاز كان يَنْفَذ إلى الغُرَف مِن فتحاتِ "رأس الدوشِ" كما تحدَّث عن الأفران الكهربائيَّة.

28) أ. روجيريه، Vivre, c'est vaincre صفحة 70 و85.

29) "بطاقات" Cards المرْجع السابق، صفحة 82.

30) Planque royale, je garde de bons souvenirs المصدر السابق، صفحة 83.

31) المصْدر نفْسه، صفحة 84.

32) المصْدر نفْسه.

33) A l'encontre de bien a'autres, j'y ai ete moins malhereux qu partout ailleurs المصْدر نفْسه، صفحة 87.

34) صمويل جرينجاوز: دراسة بعنوان "بعض المشاكل المنهجيَّة في دراسة الجيتو"، في مجلة الدراسات اليهوديَّة الاجتماعيَّة، وهي مجلةٌ فصليَّةٌ مُتخَصِّصَة في دراسة الجوانب التاريخيَّة والمعاصِرة للحياة اليهوديَّة، المجلَّد السابع، الدراسة المقَدَّمة لمؤتمر العلاقات اليهوديَّة، نيويورك 1950م، صفحة 65-72.

35) لندن، مطبوعات ت. باترورث ليمتد، 1939م.

36) المصْدر نفْسه صفحة 148-149.

37) They Have Their Exits (لديهم مخارجهم) لندن (هودر آند ستوتون) 1953م.

38) انْظرْ مارك ويبر Bergen-Belsen Camp: The Supressed Story (معسكر بيرجن-بيلسن: القصَّة المحظورة)، في The Journal of Historical Review مايو-يونيو 1995م، صفحة 23- 30.

39) كانتْ هذه على سبيل المِثال حالة بارتلي كوم، في كتابه Behind The Silken Curtain "فيما وراء الستار الحريريّ"، نيويورك، سيمون آند شوستر، 1947م، صفحة 114.

40) آرثر سوزمان ودينيس دياموند Six Million Did Die, The Truth Shall Prevail "لقد مات حقًّا ستَّة ملايين: الحقيقة ستنتصر"، جوهانسبرج، مجلس المندوبين اليهود في جنوب افريقيا، الطبعة الثانية 1978م، صفحة 18.

41) كان ألفريد هيتشكوك (مواليد 1899م) قد أصبح معروفًا عام 1945م. وللاطّلاع على ذوقه الخاص وولعه بمشاهد القتل وقُدْرته الفنيَّة على "التلاعب بالجمهور" وشغفه الشخصيّ بالغاز، راجِع كتاب برونو فيليان Bruno Villien "هيتشكوك"، كولونا، باريس 1982م، صفحة 9-10.

42) لوفيجارو، 24 أكتوبر 1997م، صفحة 10.

43) The Origins of Totalitarism "أصول الشموليَّة"، نيويورك 1951م، صفحة 446.

44) م. بول شيوعيّ فرنسيّ مِن رجال المقاومة.

45) لوفيجارو، 16 يناير 1995م، صفحة 29.

46) La Shoah. de la realite aux shows. Face aux des deportees. l'indecente mise en scene de leurs liberatures ليبراسيون، 18 ديسمبر 1995م، صفحة 41.

47) Pierre Vidal- Naquet: Capituler en rase campagne. Le secret patrage لونوفيل أوبسرفاتور، 21 سبتمبر 1984م، صفحة 80.

48) خِطاب نُشِر في Nation Review (أستراليا)، سبتمبر 1979م، صفحة 639.

49) "اليسار واليمين واليهود" Te Left. the Right and the Jews في Quadrant (أستراليا)، سبتمبر 1979م، صفحة 27.

50) برنار جوانو Bernard Jouanneau, La Croix "الصليب"، 23 سبتمبر 1987م، صفحة 2.

51) Globe and Mail (تورنتو)، 2 يونيو 1998م، صفحة 15 ,A1.

ادجار برنفمان رئيس المجلس اليهوديّ العالميّ هو امبراطور الخمر والمطبوعات والأفلام الاباحيَّة في أمريكا الشماليَّة، فهو رئيس مجموعة "سيجرام"، وصاحب ستديوهات يونيفرسال في هوليوود. وقد اختارته مجموعةٌ مِن السياسيِّين الأمريكيِّين حديثًا للحصول للمرة الأولى على الإطلاق على جائزة "الخيَّاط الذهبي" "Silver Sewer" أساسًا بسبب العروض الحقيقيَّة التي يُقدّمها في أفلام إباحيَّة "لنساءٍ حوامل عاريَات، وعاهراتٍ مِن الأطفال يتَشاجَرْن مع القوَّادِين، أو حفَّاري قبورٍ يمارسون الجِنْس مع جُثث" (صحيفة الفاينانشال تايمز البريطانيَّة، 21- 22 مارس 1998م، صفحة 2).

52) برنار لازار "العداء للساميَّة" L'Antisemitism، المصْدر نفْسه، الصفحة الأولى مِن الفصل الأول.

53) المصْدر السابق.

54) أ. كاسبي Les Juifs pendant l'Occupation (اليهود أثناء الاحتلال) صفحة 109، طَبْعة مُنقّحة، لوسويل، باريس 1997م.

55) أسمعُ أحيانًا ما يُقال من أنَّ اليهوديّ الذي يُعبّر عن آراء مُراجَعَة، يَتعرض للمخاطر أكثر مِمَّا يتعرض غير اليهوديّ. لكنَّ الحقيقة تَنفِي هذه الفرضيَّة، فلم يحدثْ مُطلَقًا أنْ أدانت أيّ محكمةٍ يهوديًا بسبب آرائه المراجِعَة، بل ولا حتَّى روجيه جي دوميرج المسؤول لعدَّة سنواتٍ عن الكتابات الحادة ضِدَّ أكاذيب مَن يُطلِق عليهم "الرفاق المخلوقات". ولم يحدثْ حتَّى الآن أنْ طُبِّق ضِدَّه قانون بيلفن، أو فابيوس-جيسو (1990م). ومع ذلك، فإنَّ حالة المرَاجِع الأمريكيّ الشاب ديفيد كول تَستحق الذّكر، لأنَّها تُوضّح إلى أيّ حَدٍّ يُمكِن أنْ تَلجَأ بعض المنظَّمات اليهوديَّة في استخدامها العُنْف، مِن أجل إسكات اليهود الذين يَتعاطفون مع قضيَّة المراجِعين التاريخيين.

56) يستطيع أيّ باحثٍ مُستقلّ أنْ يُساهم بشكلٍ غير مباشر في المراجَعَة التاريخيَّة بقيمة عمله، ومثالاً على ذلك أذكُر جان بلانتين Jean Plantin وهو مدير مجلة فصليَّة يشير عنوانها وحده إلى اهتماماتها المعرفيَّة الواسعة فالمجلة اسمها Akribeia وهي كلمة يونانيَّة تعني "الدِقَّة" أو "الحِرْص الشديد" وهي الكلمة التي استمدَّت منها في اللغة الفرنسيَّة كلمة acribie (أي قيمة الأكاديمي الذي يعمل بحرص شديد).

57) انْظرْ التحليل الوثيق الصلة بالموضوع الذي كتبه جوليرمو كوليتي بعنوان "تلطيف مُراجَعَة الهُولُوكُوسْت" والذي وُزّع على شبكة الإنترنت (بتاريخ 13 نوفمبر 1998م) عن طريق وكالة الأنباء المناهضة للرقابة.

58) "النسيان ليس فضيلتنا الرئيسيَّة". والكلمات لرئيس مجلس المندوبين اليهود في تولوز كما وردت في صحيفة "لوفيجارو" بتاريخ 9 أكتوبر 1997م، صفحة 10.

59) سيرج ثيون هو مُؤلِّف كتابٍ في المراجَعَة يحمل العنوان الأنيق Une Allumette sur la banquise (عود ثقاب فوق الجليد العائم).

60) انْظرْ " Un libraire espagnol condamne pour apologie de genocide (الحُكم بسجن بائع كُتبٍ اسبانيّ بتهمة "تبرير الإبادة")، لوموند، 19 نوفمبر 1998م، صفحة 3، وأيضًا مقال إيمانويل راتييه في دوريته Faits & Documents (حقائق ووثائق)، باريس، الأول من ديسمبر 1998م، صفحة 12.

61) انْظر "Crackdown on hate materials planned" (التخطيط للبَطْش بالمواد التي تَحضُّ على الكراهية)، في National Post (كندا)، 25 نوفمبر 1998م.

62) انْظر Athens News بتاريخ 28 يونيو 1998م، صفحة 1.

آليَّة عمل "غُرَف الغَاز"

كم عدد الذين يعرفون بالفعل ما يتحدثون عنه من بين أولئك الذين يصدرون البيانات ويلقون بالكلمات أو يستخدمون العبارات التي تظهر فيها كلمتا "غُرَف الغَاز"؟

لم يستغرق الأمر مني وقتًا طويلاً حتَّى أدركت أن أناسا كثيرين يرتكبون خطأ فادحًا، فهؤلاء الناس يتخيلون أن "غُرفَة الغاز" هي عبارة عن غُرفَة مثل غُرفَة النوم يتسرب من تحت بابها الغاز المستخدم في المنازل، ولا يدرك معظم الناس أن الإعدام بالغاز يختلف تمامًا عن الإنتحار بالغاز الخانق وعن الحوادث التي تنتج عن تسرب الغاز السام. ففي حالة الإعدام، من الضروري تفادي خطر تسمم أو موت القائم على تنفيذ الإعدام ومساعديه. ويجب تفادي هذا الخطر قبل وأثناء وبعد تنفيذ عمليَّة الإعدام. والأخطار المحتملة هنا هائلة.

لقد كنت مهتما بوجه خاص بمعرفة كيف يتم إعدام حيوانات المنك وقتل الثعالب بالغاز في جحورها، وكيف يجري قتل المحكوم عليهم بالإعدام في الولايات المتحدة بالغاز. وقد توصلت إلى أنه في معظم الحالات، تم استخدام غاز الهيدروسيانيك. وهو نفْس الغاز الذي كان يستخدمه الألمان لتطهير ثكناتهم. وبواسطة هذا الغاز يُقال إن الألمان قتلوا مجموعات بشريَّة هائلة. ولذلك، فقد قمت

بدراسة موضوع هذا الغاز. لقد أردت أن أعرف استخداماته في ألمانيا وفرنسا. وقمت بمُراجَعَة وثائق حكوميَّة تحدد استخدامات هذا الغاز السام بدرجة عالية. وقد حالفني الحظ في اكتشاف بعض الوثائق عن غاز زيكلون ب Zyklon B الذي ينتج عن حمض الهيدروسيانيك Hydrocyanic acid وهي وثائق حفظها الحلفاء في الأرشيف الألماني الصناعي في نورمبرج.

ثم بكثير من التدقيق، أعدت فحص بعض التقارير والشهادات التي قُدمت أمام المحاكم الألمانيَّة ومحاكم الحلفاء والتي تتعلق باستخدام غاز زيكلون- ب في قتل السجناء، وأصبت بصدمة.

وسوف أبدأ أولاً باستعراض اعترافات رودلف هيس Rudolf Hoes، ثم سأخبركم بالنتائج التي توصلت إليها في بحثي، وهي نتائج ماديَّة تمامًا، عن حمض الهيدروسيانيك وزيكلون ب (ورجاء الأخذ في الاعتبار أن رودلف هيس كان أحد ثلاثة من القواد الذين تعاقبوا على إدارة معسكر أوشفتز وقد قبض الحلفاء على الثلاثة وقاموا بالتحقيق معهم، ولم يترك منهم أحد اعترافًا إلَّا رودلف هيس وهو الاعتراف الذي ندين به لسجانيه البولنديين).

في هذا الاعتراف يأتي وصف القتل بالغاز مُختصرًا بشكلٍ ملفتٍ وغامضٍ. ومع ذلك، فمن الضروريّ إدراك أنَّ شهادات كلّ أولئك

الذين يزعمون أنهم كانوا موجودين أثناء تنفيذ تلك العمليَّة، هي شهادات غامضة أيضًا ومختصرة ومليئة بالتناقضات في بعض النقاط.

كتب رودلف هيس في اعترافاته المزعومة يقول: "بعد نصف ساعة من إطلاق الغاز، كنا نفتح الباب ونُدير المروحة، ثم نبدأ فورا في إخراج الجثث". وأود أن ألفت النظر هنا إلى كلمة "فورًا"، وهي في اللغة الألمانيَّة sofort. ثم يضيف هيس أن أفراد الطاقم المسؤول عن إخراج ألفي جثة من "غُرفَة الغاز" ونقلها إلى أفران المحارق، كانوا يقومون بذلك وهم "يتناولون الطعام أو يدخنون"، لذلك، إذا كنت قد فهمت جيدًا، كانت العمليَّة كلّها تتم دون حاجة لارتداء أقنعة واقية من الغاز. هذا الوصف يتناقض تمامًا مع المنطق. إنه يفترض إمكانيَّة دخول منطقة مشبعة بغاز الهيدروسانيك دون أيَّة إحتياطيات مسبقة وإخراج ألفي جثة ربما ما تزال ملوثة بالغاز السام. إن شعر السجناء (الذي يفترض أنه حُلق بعد العمليَّة) لاشك أنه كان مشبعا بالغاز، كذلك الأغشية المخاطيَّة المبطنة للأجزاء الداخليَّة من الجسم البشري (الفم والأنف والشرج.. الخ)، بل والتجاويف الهوائيَّة التي تفصل بين الأجساد التي يقال إنَّها سقطت فوق بعضها البعض.

أي نوع إذن من المراوح الهائلة تلك التي استخدمت في التهوية بحيث تتمكن في ظرف دقائق معدودة من التخلص من الغاز الموجود في الغُرفَة وفي التجاويف الهوائيَّة؟ وحتَّى بفرض وجود مثل هذه المروحة، كان من الضروري إجراء تجربة لاختبار وجود أي بقايا من

غاز الهيدروسيانيك وإجراء إختبار قبل أن يتأكد الحراس من أن المروحة قد أدت بالفعل مهمتها وأن الغُرفَة أصبحت آمنة للدخول. والواضح تمامًا من وصف رودلف هيس أن المروحة محل التساؤل، لابد وأنَّها كانت تتمتع بقُدْرة سحريَّة بحيث تستطيع التخلص من الغاز بمثل هذا الأداء المتقن إلى حد الكمال، ودون أدنى قلق أو حاجة للتأكد من خلو الجو من الغاز!

لقد أصبح في حكم المؤكد الآن أن هذه التصورات لا تتسق مع الحقيقة بعد العثور على الوثائق الخاصة بغاز زيكلون ب واستخداماته. فلكي يتم تطهير ثكنة من الثكنات، كان الألمان مضطرين إلى إتباع بعض الإجراءات الاحتياطيَّة مثل الإستعانة بالأطقم المدربة تدريبا خاصا والتي لا تصبح مؤهلة للقيام بعمليَّة التطهير إلَّا بعد المرور بدورة تدريبيَّة في أحد معامل إنتاج غاز زيكلون وإستخدام المرشحات الخاصة المركبة في الأقنعة الواقية من الغاز والتي يمكنها أن تقي الانسان تحت أقسي ظروف التسمم، وضرورة إخلاء كلّ الثكنات المجاورة، وتعلق التحذيرات بمختلف اللغات بما في ذلك علامة التحذير المعروفة (الجمجمة والعظمتان)، والفحص الدقيق للمكان الذي سيتم تطهيره للتأكد من سد الشقوق والفتحات، وسد المداخن وفتحات التهوية وإزالة المفاتيح من الأبواب. وكانت أوعية "زيكلون ب" لا تفتح إلَّا في عين المكان. وبعد أن يكون الغاز قد قضي على كلّ الحشرات، تبدأ أكثر العمليات خطورة، أي تهوية

المكان. فمن الضروري أن يقف الحراس على مسافة معينة من الأبواب والنوافذ وظهورهم في اتجاه الريح لمنع قدوم أي شخص، أما افراد الطاقم المدربون والمزودون بأقنعة واقية من الغاز فيدخلون المبنى بعد ذلك ويقومون بفتح النوافذ ومنافذ المداخن ونزع السدادات التي تسد الشقوق. وبعد الإنتهاء من هذه العمليَّة، كان يتعين عليهم التوجه إلى الخارج مرة أخرى ونزع أقنعتهم والتنفس الطبيعي لمدة عشر دقائق في الهواء الطلق، ثم ارتداء الأقنعة الواقية مرة أخرى والدخول إلى المبنى للقيام بالخطوة التالية. وبعد استكمال كلّ هذا العمل، كان يجب الانتظار لمدة عشرين ساعة. ولأنه كان من الصعب التخلص من آثار غاز زيكلون ب الذي يلتصق بقوة بالأسطح، كان الأمر يتطلب التهويَّة الطبيعيَّة لمدة طويلة. وكان هذا ضروريا بوجه خاص، عند استخدام كميات كبيرة من الغاز كما في حالة تطهير ثكنة تحتوي على أكثر من طابق. (عند استخدام غاز زيكلون ب في جهاز تعقيم مساحته الكليَّة عشرة أمتار مربعة، كانت التهوية -الإجباريَّة أو الاصطناعيَّة- لا تزال ضروريَّة). وبعد مرور عشرين ساعة يعود أفراد الطاقم إلى الداخل وهم يرتدون الأقنعة الواقية ثم يقومون بإجراء اختبار للتأكد من التخلص تمامًا من آثار الغاز باستخدام ورق حساس خاص (يتحول إلى اللون الأزرق في حالة وجود حمض الهيدروسيانيك) للتأكد مما إذا كان المكان قد أصبح مهيئا مرة أخرى لوجود البشر. ونستنتج من هذا أن المكان الذي يتم

تطهيره بالغاز لا يصبح صالحا لتواجد البشر بشكل آمن فيه إلّا بعد مرور 21 ساعة على الأقل. وتشترط اللوائح القانونيّة الفرنسيّة ضرورة مرور 24 ساعة.

وقد أصبح من الواضح بالتالي أنه مع غياب مروحة سحريّة تستطيع الطرد الفوري للغاز الذي "يصعب طرده لأنه يلتصق بقوة بالأسطح"، فإنَّ "غُرفَة القتل" المسماة بـ"غُرفَة الغاز" كان يستحيل الدخول إليها قبل مرور يوم كامل تقريبا، فمن الممكن أن تظل آثار الغاز المسمم للإنسان ملتصقة بسقفها وجدرانها وأرضيتها.

وماذا عن الجثث؟ ستكون الجثث بالتأكيد مشبعة بالغاز، تمامًا مثل الأغطية والحاشيات والوسائد كما ورد في التقرير الفني الخاص باستخدام غاز زيكلون ب. وكانت الوسائد والحاشيات وما إلى ذلك، يتم نقلها إلى الخارج ثم تضرب بقوة لمدة ساعة في المناخ الجاف، ولمدة ساعتين في حالة الطقس الرطب. بعد ذلك، يتم تكديس تلك الأشياء معا ثم تضرب مجددًا إذا ما أثبت الاختبار بالورق الحساس وجود آثار حمض الهيدروسيانيك فيها.

واذا كان المعروف أن حمض الهدروسيانيك قابل للاشتعال وشديد الانفجار، فكيف أمكن إذن استخدامه على مقربة من مدخل أفران المحارق؟ وكيف كان ممكنا أن يدخل الحراس "غُرفَة الغاز" وهم يدخنون؟

إنني لم أتطرق بعد إلى الاستحالات التقنيَّة والفيزيائيَّة العديدة التي أصبحت بديهيَّة بعد قيامي بالفحص الفعلي للمكان وقياس الأبعاد الحقيقيَّة لغُرفَة الغاز المزعومة في معسكر أوشفتز، وأوشفتز- بيركناو. وفضلاً عن ذلك، وكما قد يكتشف أي باحث يسعي إلى تقصي حقائق المتحف البولندي، لم تكن تلك الغرف في الواقع، إلَّا "غرف تخزين باردة" (أو مشارح لحفظ الجثث) وأنَّها مطابقة تمامًا، سواء في تصميمها أو في حجمها، لهذا النوع من الغرف. أما "غُرفَة الغاز" المفترضة للمحرقة رقم 2 في بيركناو، والتي لم يبق منها إلَّا بعض الأطلال، فقد كانت في الحقيقة غُرفَة لحفظ الجثث تقع تحت مستوى الأرض لحمايتها من الحرارة، ويبلغ طولها ثلاثين متراً وعرضها سبعة أمتار (متران من كلّ ناحية للجثث، وثلاثة أمتار في الوسط لمرور العربات). أما الباب والممر ومصعد النقل الذي يؤدي إلى غُرفَة المحرقة (وتبلغ مساحته 10.2 متر في 35.1 متر) فقد كانت أبعادها ضئيلة للغاية مقارنة مع ما ورد في تقرير هيس. وطبقا لهيس، كانت غُرفَة الغاز تستوعب بسهولة ألفي شخص من الضحايا الواقفين، لكنها كانت تتسع فعليًّا لثلاثة آلاف شخص. هل يمكن تخيل ذلك؟ أن يحشر ثلاثة آلاف شخص في مساحة 210 أقدام مربعة. وفي مثال آخر للمقارنة، هل يعقل أن يقف 286 شخصا في غُرفَة مساحتها خمسة أمتار في أربعة أمتار؟ ويجب تجنب الوقوع في الخدعة التي تريد أن تجعلنا نعتقد أن الألمان قبل انسحابهم، قاموا

بنسف "غُرَف الغَاز" وأفران المحارق لإخفاء أي أثر لجرائمهم المزعومة. فإذا ما أراد المرء إزالة أي أثر للأجهزة المركبة والمعقدة للغاية من داخلها، فلا أقل من تفكيكها بحرص من القمة إلى القاع حتَّى لا يبقي أي أثر لدليل دامغ. أما التدمير عن طريق الهدم فهو تصرف عقيم وساذج. وفي حالة استخدام المتفجرات، فمجرد إزالة الكتل الخرسانيَّة كان لابد وأن يترك بعض العلامات التي تشي بالحقيقة. والحقيقة أن البولنديين المسؤولين عن متحف أوشفتز اليوم (عام 1980م وقت كتابة هذا المقال- المترجم) قاموا بإعادة تصميم بقايا "المحارق" (وهو ما يعني في الواقع إعادة تصميم المحارق وغُرَف الغَاز المفترضة). ومع ذلك، فإنَّ كلّ التزييفات التي تعرض للسياح تؤكد على وجود أفران المحارق فقط وليس أي شيّء اخر.

تقدم غُرَف الغَاز الحقيقيَّة، مثل تلك التي أنشأها الأمريكيون عام 1924م ثم قاموا بتطويرها عام 36-1937م، فكرة ما عن التعقيد المتأصل في تلك الوسيلة من وسائل الإعدام. ويقوم الأمريكيون عادة بإعدام سجين واحد في وقت واحد بالغاز (بعض غُرَف الغَاز مزودة بكرسيين لإعدام شقيقين على سبيل المثال). ويكون السجين مقيدًا تمامًا، ويتم تسميمه بحمض الهيدروسيانيك (يتم هذا في الواقع عن طريق إلقاء حبيبات سيانيد الصوديم في وعاء يحتوي على حمض الكبريتيك والماء المقطر مما يؤدي إلى إطلاق غاز الهيدروسيانيك). وخلال نحو أربعين ثانية يغيب السجين عن الوعي ثم يموت بعد

دقائق معدودة. ولا يسبب الغاز أي شعور بالألم. وكما في حالة زيكلون ب، تتمثل المشكلة الحقيقيَّة في التخلص من الغاز. في هذه الحالة لا تجدي التهوية الطبيعيَّة لمدة أربع وعشرين ساعة. إن مكان تنفيذ الإعدام يحول دون تحقيق هذه التهوية دون أن يشكل هذا تهديدا لحياة الحراس أو السجناء الآخرِين. ما هي إذن أفضل وسيلة للتعامل مع هذا الغاز الذي يسبب مصاعب عديدة فيما يتعلق بالتهوية؟ يتلخص الحل في تحويل الأبخرة الحمضيَّة إلى ملح صلب يمكن بعد ذلك غسله بالماء. ولتحقيق هذا الغرض تستخدم أبخرة الأمونيا وهي قاعديَّة، للتفاعل مع الأبخرة الحامضيَّة حتَّى يتكون الملح بالتفاعل الكيميائي. وعندما يتلاشي حمض الهيدروسيانيك تمامًا، تظهر علامة لإنذار الطبيب ومساعديه الذين يقفون على الجانب الآخر من الحاجز الزجاجي. هذه الإشارة هي إشارة كيميائيَّة باستخدام مادة الفينوميثالين (وهي مادة متبلرة) تكون موضوعة في أوعية في أماكن مختلفة في الغُرفَة تتحول من اللون الوردي إلى القرمزي في حالة غياب حمض الهيدروسيانيك. وبمجرد ما تشير العلامات إلى خلو الغُرفَة من السم وبعد أن تدور المراوح لطرد الأمونيا إلى الخارج من خلال فتحة مخصصة لذلك، يدخل الطبيب ومساعدوه الغُرفَة وهم يرتدون الأقنعة الواقية و القفازات المطاطيَّة لحماية أيديهم، ويقوم الطبيب بتدليك فروة رأس السجين الميت للتخلص من أيَّة آثار باقية من الحمض. ولا يدخل الحراس الغُرفَة إلَّا بعد مرور ساعة كاملة. بعد

ذلك يتم غسل الجثة بعناية وكذلك غسل أرضيَّة الغُرفَة. ويكون غاز الأمونيا قد طرد من الغُرفَة في ذلك الوقت عبر مدخنة عالية تصل إلى سطح السجن. وفي بعض السجون تأمر الإدارة الحراس الذين يقومون بالحراسة عادة في أبراج المراقبة بمغادرة مواقعهم خلال عمليَّة الإعدام. وهناك إلى جانب هذه الأشياء كلّها، بعض الاحتياطيات الأخرى اللازمة لتصميم وتشغيل غُرفَة غاز صماء تمامًا، مثل الأقفال والحواجز الزجاجيَّة القويَّة للغاية بسمك معين (بسبب خطر الانفجار بفعل الفراغ الهوائي الناتج) وجهاز لتفريغ الهواء وصمامات.. الخ

القتل بالغاز ليس مسألة إرتجاليَّة، وإذا كان الألمان قد قرروا قتل ملايين البشر بالغاز، كان ذلك يحتم وجود آليَّة هائلة ونظام متكامل لتحقيق هذا الغرض. وكان لابد أيضًا من وجود أمر عام وتوجيهات ودراسات وتعلمات وخطط. هذه الأشياء لم يتم العثور عليها قط. كان لابد أيضًا وأن يشمل الأمر عقد اجتماعات بين الخبراء: أي بين المعماريين والكيميائيين والأطباء والخبراء التقنيين في مختلف المجالات. وكان الأمر يقتضي أيضًا رصد ميزانيات وتحديد المصاريف والمكافآت والأتعاب، وإذا كان هذا قد حدث في دولة مثل "الرايخ الثالث"، كان لابد وأن يبقي ركام من الأدلة. فنحن نعرف الآن على سبيل المثال، حتَّى بالمليم، تكلفة مربي الكلاب في أوشفتز وثمن أشجار الكستناء التي صدرت تعلمات بشرائها لغرسها في المشاتل. وكان لابد وأن تكون هناك أوامر بتنفيذ المشاريع المختلفة. ولم يكن

قد سُمح للعمال والمهندسين المدنيين بالاختلاط بالنزلاء. ولم يكن قد تم إصدار تصاريح دخول للألمان إلى المعسكر، ولم يكن قد سمح لعائلاتهم بحق الزيارة. وفضلاً عن هذا كلّه، لم يكن قد سمح للسجناء الذين أكملوا فترة سجنهم بمغادرة المعسكر والعودة إلى بلادهم: هذا السر الدفين بين المؤرخين لم يكشف عنه الستار إلَّا قبل عدة سنوات في مقال بقلم لويس دو لونج مدير معهد تاريخ الحرب العالميَّة الثانية في أمستردام. وإضافة إلى هذا، هناك ما كُشف عنه الستار في الولايات المتحدة بعد نشر الصور الجويَّة التي التقطها الحلفاء لمعسكر أوشفتز مما وجه ضربة قاضية إلى المروجين لقصة الإبادة الخرافيَّة. هذه الصور توضح أنه حتَّى في صيف 1944م، في ذروة تدفق اليهود المجريين، لا يوجد ما يشير إلى وقوع أي حرق لكتل من السجناء قرب المحرقة (ولكننا نَرَى بوابة مفتوحة ومنطقة فضاء طبيعي تظهر بوضوح في الصور) من على مسافة عدة كيلومترات ليلاً ونهارًا.

وسوف أنهي هذا الموضوع بتعليق أعتبره أهم نقطة في التدليل على زيف المزاعم الخاصة بغُرَف الغَاز. لقد لاحظت أن كلّ تلك الشهادات، الغامضة والمهلهلة، تتفق كلّها على نقطة واحدة: أن أفراد الطاقم المكلّف بإخراج الجثث من "غُرفَة الغاز" كانوا يدخلون الغُرفَة "مباشرة" أو "بعد عدة دقائق" من موت الضحايا. وأؤكد أن هذه النقطة هي وحدها حجر الأساس في زيف تلك الشهادات، بسبب استحالتها الماديَّة.

إذا ما قابلت شخصا يؤمن بوجود "غُرَف الغَاز" فما عليك إلّا أن تسأله: كيف أمكن في رأيك، إخراج عشرات الجثث لفسح المجال أمام الدفعة التالية؟

ربيع 1980م

كيف حصل البريطانيون على اعترافات رودلف هيس؟

كان رودلف هيس Hoess وهو غير رودلف هيس Hess (نائب هتلر في الحزب النازي الذي طار إلى بريطانيا عام 1941م لمحاولة عقد معاهدة سلام بين بلاده وبريطانيا- المترجم) أحد ثلاثة قواد تعاقبوا على إدارة معسكر أوشفتز. وعادة ما يطلق عليه "قائد أوشفتز"، ويعرفه الجمهور العام من خلال كتاب صدر بعنوان "قائد أوشفتز" "Commandant of Auschwit". وقد مثل هيس أمام المحكمة العسكريَّة الدوليَّة كشاهد في الخامس عشر من أبريل عام 1946م، وأحدثت شهادته ضَجَّة كبيرة. ولدهشة المتهمين، اعترف هيس بارتكاب أبشع الجرائم التي عرفها التاريخ في وجود صحفيين من كافة أنحاء العالم. وقال إنه شخصيا تلقي أمراً من هملر بإبادة اليهود، وقدَّر عدد الذين قتلوا في أوشفتز بثلاثة ملايين شخص، قُتل مليونان ونصف مليون منهم في غُرَف الغَاز. لكن شهادته كانت مزيفة، فقد انتزعت منه الاعترافات عن طريق التعذيب. لكن الأمر اقتضي مرور سبعة وثلاثين عاما حتَّى عام 1983م لكي نعلم هُويَّة الذين قاموا بتعذيبه ونوعيَّة ما تعرض له من تعذيب.

وتعتبر اعترافات رودلف هيس حجر الأساس في النظريَّة التي تقول إن الإبادة المنظمة لليهود، عن طريق غُرَف الغَاز على وجه التحديد، حقيقة تاريخيَّة. وتتكون هذه الاعترافات من أربع وثائق، هي حسب ترتيبها الزمني كالتالي:

1- شهادة مكتوبة وموقعة بتاريخ 14 مارس (أو 15 مارس؟) عام 1946م في الساعة الثانية والنصف صباحا، وهي في نص مطبوع على الآلة الكاتبة بالألمانيَّة يقع في ثماني صفحات. ولا أعتقد أنه في ظروف طبيعيَّة يمكن أن تقبل أي محكمة في أي دولة ديموقراطيَّة أن تأخذ في اعتبارها هذه الصفحات التي لا تحتوي على أي عنوان أو إشارة إلى المصدر الإداري. وتعاني الشهادة من تصحيحات عديدة أُدخلت على النص، سواء بالآلة الكاتبة أو بخط اليد، دون توقيع أمامها ودون أي ذكر في نهايتها للعدد الكلّي للكلمات المصححة أو المحذوفة. وقد وقّع هيس هذه الشهادة التي يُفترض أنَّها كتبت بخط اليد ثم جرى طبعها بالآلة الكاتبة والتي تقول: "قرأت التقرير الوارد أعلاه وأؤكد أنه يتفق مع شهادتي الشخصيَّة وهي الحقيقة الخالصة" الترجمة الرسمي. ويلي ذلك اسما الضابطين البريطانيين كشاهدين، أحدهما لم يذكر التاريخ، بينما كتب الثاني تاريخ 15 مارس. أما آخر توقيع فهو توقيع نقيب من قسم أمن

الميدان الثاني والتسعين، الذي يشهد أن الضابطين كانا موجودين خلال الإجراءات التي قَدَم خلالها السجين رودلف هيس شهادته طواعية. والتاريخ المثبت أمام توقيعه هو 14 مارس 1946م. ولا توجد إشارة إلى المكان الذي جري فيه التوقيع!

وقد حفظ الحلفاء الوثيقة تحت رقم 1210

2- شهادة موقعة بعد إثنين وعشرين يوما في 5 أبريل 1946م، وهي نص مطبوع بالآلة الكاتبة في صفحتين وربع صفحة ومكتوب باللغة الإنجليزيَّة. وهذا أمر مدهش، فمعْنَى هذا أن رودلف هيس وقّع بعد أن حلف اليمين، اعترافًا ليس مكتوبا بلغته الأصليَّة ولكن بلغة سجانيه. وظهر توقيعه ثلاث مرات، في ذيل الصفحتين الأوليتين، ثم في الصفحة الثالثة والأخيرة بعد نص من أربعة أسطر مكتوب بالإنجليزيَّة أيضًا ومطبوع بالآلة الكاتبة، يقول:"إنني أفهم الإنجليزيَّة المكتوبة أعلاه. والشهادات الواردة فيما سبق صحيحة، وهذا الاعتراف مقدم مني طواعية ودون إرغام، وبعد أن تصفحت الشهادة وقعت نفْس الشهادة بنورمبرج في ألمانيا في الخامس من أبريل 1946م.

ويجيء توقيع اللفيتنانت كولونيل سميث و. بروكهارت بعد الكلمات التالية: "قُدِمت تحت اليمين أمامي في اليوم الخامس من أبريل عام 1946م في نورمبرج، ألمانيا".

من الناحية الشكليَّة، يبدو هذا النص حتَّى إذا كان صحيحا، أقل قبولاً من النص السابق، خاصة وأن سطورا بأكملها قد أضيفت إليهبحروف كبيرة بالطريقة الإنجليزيَّة في الكتابة، في حين حذفت سطور أخرى بتمرير القلم عليها. ولا يوجد توقيع في الهامش بجوار هذه التصحيحات كما لا يوجد موجز أو ملخص في نهاية الوثيقة لعدد الكلمات التي حذفت. وقد منح الحلفاء هذه الوثيقة الرقم PS-3868.

وللتغطية على حقيقة أن هيس وقع شهادة مكتوبة بالإنجليزيَّة في حين أنَّها كان يجب أن تكون بالألمانيَّة، ومن أجل إخفاء الكلمات المشطوبة والإضافات والتصحيحات العديدة، استخدمت الخدعة التالية في نورمبرج: لقد أعيدت صياغة النص الأصلي وقُدم باعتباره "ترجمة" من الألمانيَّة إلى الإنجليزيَّة، ولكن المسؤول عن هذه الخدعة تعجل كثيرا في القيام بعمله، فقد ظن أن الاضافة المكتوبة بخط اليد إلى الفقرة العاشرة (المكتوبة بخط اليد بالإنجليزيَّة) هي إضافة إلى نهاية الفقرة التاسعة. ونتيجة لسوء الفهم هذا، أصبحت نهاية الفقرة التاسعة غير مفهومة على الإطلاق. ولذا أصبحت هناك وثيقتان مختلفتان تحت نفْس الرقم PS-3868: الوثيقة التي وقعها هيس،

والوثيقة "المزورة" تزويرا فاضحا والتي استخدمت أمام محكمة نورمبرج. وقد قدم أحد المؤرخين ما زعم أنَّها الوثيقةPS-3868 التي وقعّها هيس في حين أنه قدم الوثيقة التي أعيدت كتابتها بعد أن حذف نهاية الفقرة التاسعة منها (دون أن يشير إلى ذلك) والفقرة العاشرة كلّها. (أنظر كتاب "اضطهاد اليهود في بلاد الشرق كما نُظر أمام محاكمات نورمبرج"، باريس، مركز التوثيق اليهودي المعاصر، 1949م، صفحة 159- 162).

الشهادة الشفويَّة المدويَّة التي أشرت إليها بالفعل، والتي قدمها هيس أمام محكمة نورمبرج في 15 أبريل 1946م بعد عشرة أيام من كتابة الوثيقة PS-3868 وكانت المفارقة أن المحامي كيرت كوفمان الذي تولي الدفاع عن المتهم إرنست كاتنبرانر، هو الذي طلب ظهور هيس كشاهد. وعندما جاء الدور على ممثل الادعاء لاستجواب هيس (وكان في هذه القضيَّة الكولونيل هارلان أمين Harlan Amen مساعد المدعي العام الأمريكي)، أخذ يقرأ من الشهادة التي وقعها هيس، لكنه كان في الحقيقة يقرأ مقتطفات من الشهادة "المزورة". وقد اعتذر أمين Amen عن عدم قراءة الفقرة التاسعة (وفي الوقت نفْسه الفقرة الثامنة). وعقب قراءة كلّ مقتطف كان هارلان يسأل هيس ما إذا كان الذي قرأه هو نفْسه ما قرره المتهم في شهادته المكتوبة الموقعة. وكانت إجابة هيس كالتالي :"بالطبع.. بالطبع بالطبع.. نعم.. بالضبط". والغريب أن ما قرأه ممثل الادعاء كان

يتضمن خطأ واضحًا يتعلق باليهود المجريين الذين زعم أن إعدامهم بدأ في أوشفتز منذ عام 1943م رغم أن أول قافلة من قوافلهم لم تصل إلى المعسكر إلّا في 2 مايو 1944م. لكنَّ عبارة واحدة هي "بالطبع.. بالطبع.. بالطبع" ..كانت كافية للإجابة عن كلّ شيّء. (من نص ملف المحاكمة، المجلد الحادي عشر، الصفحات من 457 إلى 461).

في حالة وقوع جريمة قتل عاديَّة كان سيتعين طرح عشرات الأسئلة عن الجريمة والسلاح المستخدم فيها، ولكن في هذه الحالة، لم يوجه أحد أي سؤال عن الجريمة أو عن سلاح الجريمة الذي لم يسبق استخدامه في التاريخ. وفي هذه الحالة بوجه خاص لم يوجه الكولونيل هارلان أمن أي سؤال حول أي تفاصيل أو أي معلومات إضافيَّة عن النص المرعب الذي قرأه في حضور الصحفيين الذين ستتصدر قصصهم الصحفيَّة العناوين الرئيسيَّة في الصحف في العالم كلّه صباح اليوم التالي.

النصوص التي ضُمت في كتاب بعنوان "قائد أوشفتز" والتي يزعم أن هيس كتبها بالقلم الرصاص أمام سجانيه الشيوعيين البولنديين حينما كان في السجن في كراكوف في انتظار محاكمته. وقد صدر الحكم عليه بالإعدام في 2 أبريل 1947م وشُنق في معسكر أوشفتز بعد أسبوعين من صدور الحكم. وكان على العالم الانتظار أربعة عشر عاما حتَّى عام 1958م إلى أن صدرت الطبعة الألمانيَّة من

مذكراته. وقام المؤرخ الألماني مارتن بروزات بتحرير وإعداد تلك المذكرات دون أدنى اعتبار للأصول الأكاديميَّة. وقد وصل بروزات إلى حد إغفال بعض الأجزاء التي كانت ستُظهر بوضوح تام أن هيس (أو بالأحرَى سجانيه البولنديين) أدلي بافإدات يمكن أن تشكّك في مصداقيَّة كلّ ما كتبه. وترتبط الوثائق الأربع التي ذكرتها ارتباطا وثيقا في أصولها. وبنظرة مدققة نجد أن هناك تناقضات كثيرة في محتوياتها، بينما تبدو في معظمها متماسكة داخليا. الصفحات الثماني من الوثيقة رقم 1210 هي على نحو ما موجز في صفحتين من الوثيقة PS-3868وهي الوثيقة التي اعتُبرت الوثيقة الرئيسيَّة في شهادة هيس الشفويَّة أمام المحكمة العسكريَّة الدوليَّة، وأخيراً توجت المذكرات التي كتبت في كراكوف كلّ الوثائق. أما الأساس والقالب فهما في الوثيقة رقم 1210. وفي مذكرات كراكوف التي كتبها هيس تحت إشراف القاضي البولندي يان سيهن Jan Sehn، قدم هيس تفاصيل عن كيفيَّة حصول البريطانيين على هذا الاعتراف الأول.

هيس يكشف تفاصيل اعترافه الأول (الوثيقة رقم 1210 في 14 أو 15 مارس 1946م):

انتهت الحرب في ألمانيا في 8 مايو 1945م. ووقع هيس في أيدي البريطانيين الذين وضعوه في معسكر من معسكرات قوات القوات العسكريَّة النازيَّة الخاصة (الإس إس). وقد زعم هيس أنه خبير في الزراعة وكان بالفعل كذلك، وسرعان ما أُطلق سراحه. ولم

يكن الحراس يدركون أهمِّيَّة السجين الذي وقع بين أيديهم، وقام مكتب عمل يشرف عليه البريطانيون بتدبير عمل له كعامل زراعي في مزرعة بالقرب من فلينسبرج قرب الحدود الدانماركيَّة. وظل هناك لمدة ثمانية أشهر. وكانت الشرطة العسكريَّة البريطانيَّة تبحث عنه، وكانت أسرته التي نجح في إقامة اتصالات معها، تخضع لرقابة مشددة وعرضة للتفتيش المتوالي.

ويسرد هيس في مذكراته ظروف اعتقاله وما أعقبه، وكيف كانت المعاملة التي لقيها وحشيَّة. ولأول وهلة يبدو من المدهش أن يسمح له البولنديون بالكشف عما فعله به رجال الشرطة العسكريَّة البريطانيَّة. وبعد تأمل يمكننا أن نكتشف أنهم ربما كانوا قد فعلوا ذلك بدافع من الدوافع التالية:

إضفاء مظهر الصدق والإخلاص على شهادته.

دفع القارئ إلى المقارنة بين أساليب البولنديين والبريطانيين لصالح البولنديين بالطبع، وإن كان هيس قال فيما بعد، إنه خلال الفترة الأولى لاعتقاله في كراكوف كاد البولنديون أن يجهزوا عليه عن طريق تصفيته جسديا، وفضلاً عن هذا كلّه، تدميره نفسيا، لكنهم عاملوه فيما بعد "معاملة جيدة ومحترمة" جعلته يوافق على كتابة مذكراته.

تقديم تفسير لبعض الأشياء العبثيَّة التي توجد في الوثيقة (رقم 1210) التي أرغمت الشرطة البريطانيَّة هيس على توقيعها، وتمثلت إحدَى هذه النقاط العبثيَّة في اختراع تعبير "معسكر إبادة" في مكان ليس له وجود على التربة البولنديَّة يدعي "فولزك قرب لوبلين"، والخلط بين هذا المكان وبين بلزك ليس ممكنا لأن هيس يتحدث عن ثلاثة معسكرات :"بيلزك وتيبلنكا Tublinka وفولزك قرب لوبلين". وفضلاً عن ذلك، سيتم تصحيح طريقة كتابة "تريبلنكا Treblinka"ودعونا نلاحظ على نحو عابر، أن معسكري بيلزك وتريبلنكا لم يكونا قد أقيما بعد في ذلك الوقت (يونيو 1941م) بينما يقول هملر لهيس (طبقا لما رواه هيس) إنهما كانا يعملان بالفعل ك"معسكرين للإبادة".

وفيما يلي الكلمات التي استخدمها هيس على التوالي لوصف اعتقال البريطانيين له وتوقيعه على الوثيقة التي ستصبح الوثيقة رقم 1210، وظروف نقله إلى بلدة ميندين حيث ساءت المعاملة التي كان يلقاها، واحتجازه في سجن ملحق بمحكمة نورمبرج، وأخيراً ترحيله إلى بولندا:

"اعتقلت في 11 مارس 1946م (في الحادية عشرة صباحا).

كانت قنينة السم التي أحملها قد انكسرت قبل يومين. عندما أوقظت من نومي، تصورت في البداية أنني أتعرض لهجوم مجموعة من

اللصوص، فقد كانت تقع في ذلك الوقت سرقات كثيرة. وهكذا استطاعوا اعتقالي. وأساءت شرطة أمن الميدان معاملتي، ونقلت إلى هايد Heide حيث وضعت في تلك الثكنات التي كان البريطانيون قد أطلقوا منها سراحي قبل تسعة أشهر.

خلال استجوابي الأول، حصلوا على شهادتي بعد أن قاموا بضربي. وقد وقّعت على بيانٍ لا أعرف ما فيه. كان إرغامي على تناول الخمر والضرب بالسوط أمران لا يحتملان. وكان السوط الذي يستخدمونه هو سوطي الذي تسلل بالصدفة إلى حقائب زوجتي. ولم يكن قد لمس ظهر حصاني تقريبا، وأقل من ذلك السجناء. ومع ذلك كان أحد ضباط الاستجواب على قناعة بأنني استخدمته بانتظام في جلد السجناء. وبعد عدة أيام نقلوني إلى ميندين، مركز الاستجواب الرئيسي في المنطقة التي يسيطر عليها البريطانيون. وهناك تعرضت للمزيد من المعاملة السيئة على يد المدعي العام البريطاني وكان برتبة ماجور. كانت ظروف السجن تتطابق مع هذه المعاملة.

بعد ثلاثة أسابيع، ولدهشتي، حلقوا لي لحيتي وقصوا شعر رأسي وسمحوا لي بالاستحمام. ولم أكن قد تحررت من القيود التي وضعوها في يدي قط منذ اعتقالي.وفي اليوم التالي نقلوني في شاحنة إلى نورمبرج مع سجين من سجناء الحرب أتوا به من لندن كشاهد دفاع عن فريتشه. وكان وجودي في سجن المحكمة العسكريّة الدوليّة أرحم كثيرا مقارنة مع ما مررت به من قبل. وكنت موجودا في نفْس المبنى

مع المتهمين الرئيسيين (يقصد جورنج وروبنتروب وروزنبرج وكبار المسؤولين النازيين- المترجم)، وكان باستطاعتي أن أراهم يوميا وهم يتوجهون إلى المحكمة. وكان يزورنا يوميا ممثلون عن أمم الحلفاء. وكانوا يشيرون إلى باعتباري حيوانًا من نوع خاص.

"كان وجودي في نورمبرج بهدف الإدلاء بشهادتي بعد أن طلبني محامي كالتنبرانر كشاهد دفاع. وحي الآن لا أستطيع أن أفهم ولا أستوعب كيف أنني من بين الجميع، كان يمكنني المساعدة في تبرئة كالتنبرانر. ورغم أن ظروف السجن كانت بكلّ المقاييس جيدة، فقد كان مسموحا لي بالقراءة وكانت هناك مكتبة جيدة متوفرة، إلّا أن الاستجواب كان خشنا للغاية، ليس جسديا ولكن أسوأ من التعذيب البدني، بسبب الضغوط النفسيَّة الشديدة التي كانوا يمارسونها. ولا أستطيع أن ألوم المستجوبين، فقد كانوا جميعهم من اليهود. لقد قاموا بتمزيقي نفْسيا. وأرادوا أن أعترف بكلّ شيّء عن كلّ شيّء. وقد تم ذلك أيضًا بواسطة اليهود. لقد تركوني وأنا على يقين من المصير الذي كان في ينتظرني.

في 25 مايو الذي تصادف أنه كان عيد زواجي، اقتادوني في سيارة مع بيرجسدورف وبهلر، توجهت بنا إلى قاعدة جويَّة حيث سلمونا لضباط بولنديين. وطرنا في طائرة بولنديَّة عن طريق برلين إلى وارسو. ورغم أننا عوملنا معاملة مهذبة أثناء الطريق، فقد كنت أخشي أسوأ العواقب بعد أن تذكرت ما لقيته من معاملة في المنطقة

البريطانيَّة وما سمعته عن الطريقة التي يُعامل بها الناس في الشرق. (من كتاب "قائد أوشفتز" تقديم لورد راسل من ليفربول، الترجمة الإنجليزيَّة، دار نشر ويدينفيلد ونيكولسون، 1959م، صفحة 173- 175).

الكشف عن تعذيب البريطانيين لرودلف هيس عام 1983م

أثبت المراجِعُون منذ مدة طويلة أن الاعترافات المتعددة لرودلف هيس تحتوي على الكثير من الأخطاء الفادحة والهراء والتفاصيل المستحيلة من كافة الأنواع، حتَّى أصبح من المستحيل تصديقها كما صدقها القضاة في نورمبرج وكراكوف وكذلك بعض المؤرخين البارزين دون أي تحليل مسبق لمحتواها وظروف الحصول عليها.

وتشير كلّ الدلائل إلى أنه تم تعذيب هيس على أيدي الجنود البريطانيين من قسم أمن الميدان الثاني والتسعين، ولكن كان لابد من التأكد من تلك الفرضيَّة. وحدث ذلك بعد صدور كتاب في انجلترا يتضمن إسم الشخص الرئيسي الذي قام بممارسة التعذيب على هيس (وهو ضابط بريطاني من أصل يهودي برتبة رقيب) كما يتضمن وصفا لظروف اعتقال هيس واستجوابه تحت التعذيب.

هذا الكتاب من تأليف روبرت بتلر Ropert Butler وقد صدر عام 1983م (عن دار هاملين للنشر). وقد سبق أن أصدر مؤلفه

بتلر ثلاثة كتب هي "الملائكة السود" و"اليد الفولاذيَّة" و"الجستابو"، وكلّها من إصدار هاملين.

والكتاب الذي نحن بصدده بعنوان "فيالق الموت" Legions of Death، وهو كتاب معاد للنازيَّة. ويقول مؤلفه بتلر إنه قام قبل نشره، بإجراء أبحاث مكثفة في متحف الحرب الإمبريالي في لندن ومعهد التاريخ المعاصر ومكتبة فايمار وبعض المؤسسات الأخرى المحترمة. وفي بداية كتابه، يعبر بتلر عن شكره وعرفانه لتلك المؤسسات وأيضًا لعدد من الأشخاص من بينهم إثنان هما برنارد كلارك (الذي قبض على قائد معسكر أوشفتز رودلف هيس). ويستشهد المؤلف ببعض ما كتبه أو سجله كلارك.

ولا يُبدي برنارد كلارك أي شعور بالندم، بل على العكس، يعكس إحساسه بالفخر من قيامه بتعذيب "نازي". وعلى نحو مشابه، لا يجد روبرت بتلر مدعاة للنقد في هذا. غير أن الاثنين لا يدركان أهميَّة ما يكشفانه. إنهما يقولان إن هيس اعتقل في 11 مارس عام 1946م وإن الأمر اقتضي انقضاء ثلاثة أيام من التعذيب قبل الحصول على "اعتراف واضح" يوقعه ضحيتهما المرتعش في الرابع عشر أو الخامس عشر من مارس 1946م في الساعة الثانية والنصف صباحا، وهو الاعتراف الذي قاد هيس إلى مصيره النهائي والذي سيمنح الأسطورة شكلها النهائي أيضًا. هذا الاعتراف سوف يحسم أسطورة معسكر أوشفتز، المعسكر الذي

لعب الدور الأكبر في الإبادة المزعومة لليهود، أساسا بسبب الاستخدام المزعوم لغُرَف الغَاز.

في 11 مارس 1946م اقتحم الكابتن كروس وبرنارد كلارك وأربعة ضباط بريطانيون آخرون من المخابرات الحربيَّة، يتميزون في معظمهم بالطول والقوة، اقتحموا منزل السيدة هيس وأطفالها. وكما يروي لنا الكتاب، كان الرجال الستة مدربين جيدا على الوسائل الدقيقة للاستجواب المتواصل الذي لا يعرف الرحمة (صفحة 235). وبدأ كلارك في الصياح: إذا لم تخبرينا [بمكان زوجك] سنقوم بتسليمك للروس الذين سيقومون بإعدامك رميا بالرصاص، وسيرسلون ابنك إلى سيبيريا. وانهارت السيدة هيس وكشفت كما يقول كلارك، عن مكان المزرعة التي كان زوجها يختبئ فيها وأيضًا عن إسمه المستعار وهو فرانز لانج. وأضاف برنارد كلارك: وبممارسة التعذيب والتهديد والتخويف المماثل على الإبن والإبنة حصلنا على معلومات مطابقة. بعد ذلك ذهب الرقيب اليهودي مع الخبراء الخمسة في الاستجواب العنيف للبحث عن هيس، ثم قاموا بمفاجئته في منتصف الليل وهو نائم داخل فجوة في جدار الغُرفَة التي تستخدم لذبح الأبقار في المزرعة.

عندما شاهد هيس الرجال الستة في الملابس العسكريَّة البريطانيَّة صرخ فزعا. وصاح فيه كلارك: ما إسمك؟ وكلما أجاب هيس مرددا

أن إسمه هو فرانز لانج، وجه له كلارك لكمة عنيفة في وجهه. وفي المرة الرابعة إنهار هيس واعترف باسمه الحقيقي.

وقد استثار إقرار هيس بحقيقة اسمه غضب الضباط اليهود في فريق الاعتقال الذين كانوا يعتقدون أن آباءهم ماتوا في أوشفتز بأوامر من هيس. وهنا قام الضباط بانتزاع السجين من فراشه ومزقوا بيجامته ثم سحبوه عاريا إلى إحدى مناضد الذبح حيث خيل لكلارك أن الضربات التي وجهت إليه والصرخات التي انطلقت منه كانت بلا نهاية. وسرعان ما تدخل الضابط الطبيب لَدَى الضابط المسؤول صائحا فيه :"قل لهم أن يوقفوا الضرب إلّا إذا كنتم تريدونه جثة هامدة.

وألقي الضباط بطانيَّة فوق هيس ثم اقتادوه إلى سيارة كلارك حيث أخذ الرقيب يرغمه على ابتلاع الويسكي بالقوة، وعندما شعر هيس بالرغبة في النوم أخذ كلارك يلكزه بالعصا التي كانت معه أسفل عينيه وأمره بالألمانيَّة قائلا: فلتبقِ عيناك الخنزيريتان مفتوحتين أيها الخنزير. وهنا تمتم هيس للمرة الأولى مبررا: "لقد كنت أتلقي التعليمات من هملر. إنني جندي مثلك تمامًا وعلينا إطاعة الأوامر". وعادت المجموعة إلى هايد Heid في حوالي الثالثة صباحا، وكان الثلج ما زال يتساقط لكن البطانيَّة كانت قد تمزقت فوق جسد هيس ثم جَعَلوه يقطع ساحة السجن عاريًا تمامًا في طريقه إلى زنزانته. (صفحة 237).

بعد ذلك يكشف برنارد كلارك عن "أن الأمر اقتضي مرور ثلاثة أيام إلى أن حصلوا على اعتراف واضح من هيس"- (المصدر نفْسه، ذلك الاعتراف الذي أكده كن جونز في مقال له بمجلة "ريكسهام ليدر" (أكتوبر 1986م). وكان كن جونز في ذلك الوقت جنديا متطوعا في الكتيبة الخامسة الملكيَّة البريطانيَّة للمدفعيَّة التي تجرها الخيول والمتمركزة في هايد بمقاطعة سكيلزفيج- هولستين.

يقول جونز: "لقد أحضروه إلينا بعد أن رفض الإجابة على الأسئلة الخاصة بنشاطه خلال الحرب. وقد حضر في شتاء 45-1946م ووُضع في زنزانة صغيرة في الثكنات". واختير جنديان إلى جانب جونز للبقاء في الزنزانة مع هيس للمساعدة في التأثير عليه نفْسيا. ويضيف جونز: "كنا نجلس معه في الزنزانة ليلاً ونهارا مسلحين بمقابض فؤوس، وكنا من وقت لآخر ننخسه حتَّى نمنعه من النوم لكي نحطم مقاومته عند استجوابه". وعندما كان هيس يخرج لممارسة الرياضة اليوميَّة لم يكن يُسمح له إلَّا بارتداء سراويل (جينز) وقميص خفيف من القطن في البرد القارص. وبعد ثلاثة أيام من البقاء دون نوم، انهار هيس أخيرًا وقدم اعترافًا كاملاً للسلطات.

وأصبح الاعتراف الذي انتزع في الظروف التي وصفها ضباط الأمن البريطانيين تحت نصائح الرقيب المترجم برنارد كلارك باستخدام أقصى درجات العنف، أول اعتراف لهيس، وهو الاعتراف الأصلي الذي صنف تحت رقم 1210. وطبقا لما يقوله كلارك،

فعندما بدأ هيس الكلام كان من المستحيل إيقافه. ويواصل كلارك غير مدرك خطورة ما يقوله عام 1982م أو 1983م، تمامًا كما لم يكن مدركا لخطورة إقدامه على إرغام هيس على الاعتراف عام 1946م، فيصف سلسلة من الفظائع الخياليَّة التي يقدمها هنا كحقائق: "استمر هيس في الاعتراف واصفا كيف أنه بعد اشعال النار في الجثث كان الدهن الذي ينز منها يُصب فوق الجثث الأخرى! وقد قدَّر عدد الذين قتلوا في تلك الفترة التي كان فيها قائدا لمعسكر أوشفتز بمليوني شخص! وأن معدل القتل بلغ عشرة آلاف شخص يوميا! وكان من ضمن واجبات كلارك مراقبة الرسائل التي كان يبعث بها هيس إلى زوجته وأبنائه. ويعرف كلّ رجل شرطة أن سلطة السماح أو عدم السماح لسجين ما بكتابة رسائل لأسرته، يعتبر سلاحا نفْسيا مهما. ولدفع السجين إلى الاستجابة لما يطلب منه يكفي أحيانًا إيقاف أو إلغاء هذا التصريح له.

ويسوق كلارك ملاحظة مثيرة للإهتمام حول محتوى رسائل هيس حين يسر الينا بالتالي: "كنت أشعر أحيانًا بغصة في حلقي، فقد كان داخل ذلك الرجل رجلان: كان هناك الرجل القاسي الذي لا يقيم أي اعتبار للحياة الإنسانيَّة، ومن جهة أخرى، كان هناك ذلك الرجل الرقيق العاطفي" (صفحة 238).

وينهي روبرت بتلر تعليقه بالقول إن هيس لم ينكر ولم يتهرب من مسؤولياته. والواقع أن أداء هيس أمام محكمة نورمبرج كان يتسم بـ

"بلادة الفُصام" والتعبير الأخير من إبتكار الطبيب النفْسي العسكري الأمريكي ج. م. جيلبرت الذي كان مسؤولاً عن المراقبة النفْسيَّة للسجناء والذي قدم المساعدة لممثل الادعاء الأمريكي من واقع التقارير التي كتبها من خلال تجسسه على السجناء الألمان. ونسطيع بالتأكيد أن نصدق أن هيس أصبح "منفصم الشخصيَّة". لقد بدا مظهره أقرب إلى خرقة بالية لأنهم حولوه إلى خرقة بالية.

في صفحة 229 من كتابه، يكرر جيلبرت وصف هيس بـ"البلادة" و"بلادة الفصام" ثم يكرر ذلك في صفحة 239 (أُنْظر "يوميات نورمبرج"، 1974م، دار سيجنت للنشر، 1960م). وفي نهاية محاكمته في كراكوف، واجه هيس الحكم عليه بالإعدام بعدم إكتراث. ويعلق روبرت بتلر على ذلك بقوله: "أدرك هيس بالمنطق أن الحلفاء أصدروا بالفعل أوامرهم وأنَّها لابد وأن تنفذ" (المصدر نفْسه). وليس هناك ما يمكن قوله أفضل من ذلك. ويبدو أن رودلف هيس، مثل آلاف المتهمين الألمان الذين وقعوا تحت رحمة القاهرين الذين كانوا على قناعة تامة بصواب ما كانوا يفعلون، أدرك بسرعة أن لا خيار أمامه سِوى الخضوع لإرادة قضاته، سواء كانوا من الغرب أو من الشرق.

يستدعي بتلر بعد ذلك قضيَّة هانز فرانك، الحاكم الألماني السابق لبولندا، ويسرد بنغمة أخلاقيَّة يشيع فيها الرضا عن النفْس- ظروف اعتقال فرانك ومعاملته اللاحقة: "فشلت شهرة أو مكانة بعض

السجناء في التأثير على الجنديين الأمريكيين الملونين اللذين قاما بالقبض على هانز فرانك والتأكد من ترحيله إلى السجن المحلي في ميسباخ بعد أن ضُرب بوحشيَّة وألقي به في شاحنة. وقد ألقوا فوق جسده بغطاء من المشمع لإخفاء العلامات الواضحة لما ناله من معاملة سيئة، وقد استفاد فرانك من هذا الغطاء عندما حاول قطع أحد شرايين يده اليسرى. ولم يكن مسموحا له بالطبع أن يتخلص من حياته بنفْسه، فقد قام طبيب في الجيش الأمريكي بإنقاذ حياته ومثل أمام المحكمة العسكريَّة الدوليَّة في نورمبرج" (صفحة 238- 239).

لم يكن رودلف هيس وهانز فرانك الوحيدين اللذين تعرضا لهذا النوع من المعاملة، فنحن نعرف من بين أكثر الشخصيات شهرة حالة كلّ من جوليوس ستريتشر وهانز فريتشه وأوزوالد بول وفرانز زيريس وجوزيف كرامر. غير أن حالة رودلف هيس هي أكثر الحالات خطورة في عواقبها، فليست هناك وثيقة تثبت أنه كانت لَدَى الألمان سياسة لإبادة اليهود. ويتفق ليون بولياكوف مع هذا فيما كتبه عام 1951م: "فيما يتعلق بفكرة وجود خطة للإبادة الجماعيَّة، فقد أنهت الشخصيات الرئيسيَّة الثلاث أو الأربع حياتها بالانتحار في مايو عام 1945م (يقصد هتلر وجوبلز وهملر وبورمان- المترجم). ولم يتم العثور على أي وثيقة، أو ربما أن مثل هذه الوثيقة لم يكن لها وجود أصلاً ("اليهود والرايخ الثالث"، كالمان- ليفي، 1951م، أعيد طبعه عن ليفر دوبوش عام 1974م، صفحة 171).

وفي غياب وجود أي وثيقة ظل المؤرخون على شاكلة بولياكوف يعودون باستمرار وبشكل أساسي إلى اعترافات مشكوك فيها مثل اعترافات كيرت جيرشتاين أو رودلف هيس، وأحيانًا يقومون بتعديل النصوص لكي تلاءم أغراضهم.

برنارد كلارك اليوم "رجل أعمال ناجح يعمل في جنوب انجلترا ("فيالق الموت"، 1983م، صفحة 235). وبوسع المرء في الحقيقة القول إن صوته كان هو الذي سُمع في نورمبرج في 15 أبريل عام 1946م عندما أخذ أمين AMEN مساعد المدعي العام، يقرأ على الجمهور المشدوه كلمةً كلمةً، اعترافات رودلف هيس المزعومة. وفي ذلك اليوم بدأت الأكذوبة ذات الأبعاد العالميَّة: أكذوبة أوشفتز. وكان وراء هذا الحدث الإعلامي الاستثنائي بعض الضباط اليهود من الشرطة العسكريَّة البريطانيَّة ومن بينهم برنارد كلارك.

شهادة موريتز فون سكيرميستر Morit von Schirmeister

كان سكيرميستر الملحق الصحفي الشخصي لجوزيف جوبلز خلال الحرب. وفي 29 يونيو 1946م، تم استجوابه أمام المحكمة العسكريَّة الدوليَّة كشاهد دفاع عن هانز فريتشه (مسؤول في وزارة الدعاية ومساعد لجوبلز- المترجم). وكانت شهادته مثيرة للاهتمام خصوصا فيما يتعلق بشخصيَّة جوبلز الحقيقيَّة وسياسة وكالة الأنباء الألمانيَّة وأقسام بث الأخبار الرسميَّة في الرد على تدفق القصص

الإخباريَّة من جانب أجهزة الدعاية في دول الحلفاء عن فظائع معسكرات الاعتقال.

في نهاية الحرب اعتقل البريطانيون مويتز فون سكيرميستر وسجنوه في معسكر في انجلترا حيث أسندت إليه مهمة "إعادة تثقيف" رفاقه السجناء. وقبل أن يدلي بشهادته في نورمبرج، تم نقله بطائرة من لندن إلى ألمانيا. في البداية نقل إلى "ميندن أون ذا ويسر" Minden-on-the-Weser التي كانت مركزا للاستجواب الرئيسي للشرطة العسكريَّة البريطانيَّة. ومن هناك نقلوه في سيارة (في 31 مارس-1أبريل 1946م) إلى سجن في نورمبرج. وفي نفْس السيارة ركب رودلف هيس. وكان سكيرميستر هو تحديدا "سجين الحرب الذي أحضر من لندن كشاهد دفاع لصالح فريتشه" الذي تحدث عنه هيس في "مذكراته" (أُنْظر ما سبق).

وبفضل وثيقة حصلت أنا عليها من الباحث الأمريكي مارك ويبر الذي أعطاني نسخة منها في واشنطن في سبتمبر 1983م (وهي وثيقة لا يمكنني أن أكشف الآن عن مصدرها الأصلي) نعرف أن السجينين استطاعا تبادل الحديث بحريَّة في السيارة التي نقلتهما إلى نورمبرج. في هذه الوثيقة، التي تقع في صفحتين أو أكثر قليلا، يقرر سكيرميستر فيما يتعلق بالتهم الموجهة إلى هيس، أن هيس أسر إليه بالتالي: "بالتأكيد قمت بتوقيع ذلك الاعتراف بأنني قتلت مليونين أو مليونين ونصف مليون يهودي. ولكن كان من الممكن أن

أقول إن العدد خمسة ملايين يهودي. هناك طرق معينة يمكن عن طريقها انتزاع أي اعتراف سواء كان حقيقيا أم لا".

اعتراف آخر بتوقيع رودلف هيس

لم يكن لَدَى جلادي رودلف هيس أي سبب يدعوهم لكبح جماحهم، فبعد أن جَعَلوه يوقع الوثيقة NO-1210 في الساعة الثانية والنصف من صباح الرابع عشر أو الخامس عشر من مارس 1946م، حصلوا على توقيع جديد منه في السادس عشر من مارس، هذه المرة على نص مكتوب بخط اليد بالإنجليزيَّة وتوجد فيه مساحة خالية كان يجب أن تحتوي على إسم المكان الذي تمَّ فيه توقيع الوثيقة.

لقد جَعَله سجَّانوه يُوقِع مَلحوظةً بسيطةً مكتوبةً بالإنجليزيَّة كالتالي:

بيان تقدَّم به طواعيَةً في سجن ——— رودلف هيس، القائد السابق لمعسكر أوشفتز في 16 مارس 1946م.

لقد رتبتُ أنا شخصيًّا بأوامر مِن هملر تلقيتها في مايو 1941م، قَتل مليوني شخصٍ بالغاز، فِيمَا بين يونيو-يوليو 1941م ونهاية 1943م، وهي الفترة التي كنتُ فيها قائدًا لمعسكر أوشفتز.

توقيع رودلف هيس قائد معسكر أوشفتز-بيركناو

ملحوظة: حتَّى كلمة "توقيع" كُتبت بخطّ اليد بالإنجليزيَّة.

أسطورة أوشفتز

لقد عرفنا لبعض الوقت أن أسطورة أوشفتز هي أساسا ذات أصل يهودي. وقد كشف أرثر بوتز الحقائق في كتابه "أكذوبة القرن العشرين"The Hoax of the Twentieth Century وكذلك فعل فيلهلم ستاجليتش في كتابه "أسطورة أوشفتز".

إن المسؤولين الأساسيين عن اختلاق وترويج "إشاعة أوشفتز" كانوا على التوالي: رجلان من السلوفاك هما ألفريد فيتزلر Alfred Wetzler ورودلف فيربا Rudolf Vrba (أو روزبنرج أو روزنثال)، ثم الحاخام مايكل دوف بار فيزماندل الذي كان وقتها في سويسرا، ثم ممثلو المؤتمر اليهودي العالمي مثل جيرهارد ريجنر الذي كان على إتصال بلندن وواشنطن، ثم أخيراً أمريكيون مثل هاري ديكستر هوايت وهنري مورجنثاو وستيفن صمويل وايز. ومن هنا ولد "تقرير مجلس لاجئي الحرب" الشهير عن أوشفتز وبيركناو الذي نشر في واشنطن في نوفمبر 1944م. وضمت ملفات القضاة الذين حاكموا الألمان المسؤولين عن معسكر أوشفتز نسخا من هذا التقرير. وقد أعتبر هذا التقرير الرواية الرسميَّة لقصة إبادة اليهود المزعومة بالغاز في ذلك المعسكر. وأغلب الظن أن التقرير استخدم كمصدر رئيسي بواسطة المحققين- المستجوبين- المعذبين لـ"قائد أوشفتز". وكلّ الأسماء الواردة هنا هي أسماء ليهود.

وفضلاً عن ذلك، نحن نَرَى الآن أن برنارد كلارك، أول بريطاني قام بتعذيب هيس، كان يهوديا، وأن المعذِب البريطاني الثاني الماجور درابر ربما كان أيضًا يهوديا، والأمر كذلك بالنسبة للأمريكيين: الطبيب النفْسي العسكري ج. م. (جوستاف مالر) جيلبرت، والكولونيل هارلان أمين. وأخيرًا، واجه هيس في بولندا اليهود البولنديين الذين عاملوه بنفْس الطريقة. وعندما كتب "مذكرات" كان يكتب تحت مراقبة قاضي الإجراءات يان سيهن J Jan Sehn الذي ربما كان يهوديا أيضًا.

يرفض مؤرخو المؤسسة (الرسميون) فكرة أن هيس تعرض للتعذيب وأنه اعترف تحت الإكراه. ولكن منذ نشر كتاب روبرت بتلر في عام 1983م، لم يعد من الممكن أن يتشبثوا برأيهم هذا. لقد أثبت المراجِعُون أنهم على صواب.

وقد أصبح موقف المؤرخين الرسميين أكثر سوءا منذ عام 1985م. ففي يناير- مارس 1985م، انعقدت في تورنتو (كندا) محاكمة إرنست زوندال الذي اتهمه الاتحاد اليهودي الكندي بنشر أدبيات مُراجِعة. وظهر رودلف فيربا كشاهد إثبات وأخذ يجيب بكلّ ثقة عن الأسئلة التي وجهها إليهممثل الادعاء، إلى أن واجه أزمة حادة عندما بدأ محامي الدفاع دوجلاس كريستي في استجوابه المضاد. فلأول مرة منذ عام 1945م، يُطلب من شاهد يهودي على الإبادة المزعومة بالغاز في أوشفتز، أن يشرح تفاصيل شهادته وأرقامه. وكانت

النتيجة رهيبة بالنسبة لرودلف فيربا لدرجة أن ممثل الادعاء نفْسه قام بانقلاب ضِدَّ شاهده الرئيسي. هذا الحدث غير المتوقع وأحداث أخرى، (مثلما وقع مع المؤرخ المتخصص في الهُولُوكُوسْت راؤول هيلبرج الذي ضبط متلبسا بالكذب) جَعَلت من "محاكمة تورنتو" حقا "محاكمة محاكمات نورمبرج".

لقد نجح أخيرًا ما كشفه روبرت بتلر عام 1983م رغماعنه، وما كشفته محاكمة تورنتو عام 1985م، في أيضّاح كيف تم "تزييف" أسطورة أوشفتز من 1944م إلى 1947م، أو على وجه التحديد منذ أبريل 1944م عندما هرب رودلف فيربا وألفريد فيتزلر (زعمًا) من أوشفتز لكي يرويا القصة للعالم حتَّى أبريل 1947م عندما شُنق رودلف هيس بعد أن أطلع العالم نفْسه (زعمًا) على قصته الشخصيَّة في أوشفتز.

ومن المشهود أنه من البداية إلى النهاية، أتت تلك القصة أساسا أو ربما فقط وبشكل استثنائي، من مصادر يهوديَّة. يهوديان كاذبان (فيربا وفيتزلر) من سلوفاكيا أقنعا أو بدا أنهما أقنعا يهودا آخرين من المجر وسويسرا والولايات المتحدة وبريطانيا العُظمَى وبولندا. إنَّها ليست مؤامرة أو خطة مدبرة، إنَّها قصة مولد المعتقد الديني.. أسطورة أوشفتز.. قلب ديانة الهُولُوكُوسْت.

شتاء 1986م

فيلم "شوا" لكلود لانزمان

مزيج من الشهادات الزائفة والتناقضات

"شوا" Shoah كلمة عبريَّة معناها "الكارثة"، وقد أصبحت مرادفا للإبادة الجماعيَّة أو "الهُولُوكُوسْت"، واستخدمت كعنوان لفيلم طويل جدا من إخراج كلود لانزمان (من إنتاج 1985م). وقد وصف ماريك إدلمان، زعيم انتفاضة جيتو وارسو عام 1942م، الفيلم بأنه "ممل" و"لا يثير الكثير من الاهتمام" ويعكس "فشلاً ذريعًا" "1".

ورغم أن أجهزة الإعلام والصحافة خصصت مساحات كبيرة للدعاية للفيلم، لم يبدي الفرنسيون ولا أعضاء الجالية اليهوديَّة الفرنسيَّة ككلّ، اهتمامًا بهذا الدجل. ولذا هرع الأمين العام للمؤسسة اليهوديَّة الفرنسيَّة التي منحت جائزتها للفيلم، إلى إصدار بيان اختتمه بالنداء التالي: "اذهبوا لمشاهدة هذا الفيلم واطلبوا من جيرانكم الذهاب لمشاهدته" "2".

وقد أبدي فرانسوا ميتران والبابا يوحنا بولص الثاني وعدد من الشخصيات العالميَّة البارزة، إعجابهم بالفيلم لكن هذا كلّه لم يحقق شيئا. وقد ظلت محطات التليفزيون لفترة طويلة ترفض عرض الفيلم،

إلَّا أنَّها استسلمت أخيرا، فالديك الرومي الهائل الذي يبلغ زمن عرضه تسع ساعات ونصف الساعة، سيعرض.

يريد كلود لانزمان إقناعنا في فيلمه هذا بوجود غُرَف الغَاز، وبأن اليهود تعرضوا بالفعل للإبادة الجماعيَّة، إلَّا أن الفيلم يظهر بوضوح أنه ليس هناك دليل ولا شهود على ذلك، وأن غُرَف الغَاز وقصة الإبادة كما أثبت المراجِعُون، ليست سِوى أسطورة. وإذا كانت الإبادة قد وقعت حقا لكان "الإباديّون" قد بادروا إلى عرض الوثائق والأدلة الدامغة التي في حوزتهم في بث خاص في كلّ محطات التليفزيون ذات أمسية هادئة وقت ذروة البث التليفزيوني، وهو ما لم يحدث في حالة "شوا". والحقيقة أن هتلر عامل اليهود باعتبارهم أعداءه المعلنين، وأنه أراد طردهم خارج أوروبا، ووضع الكثيرين منهم في معسكرات أشغال واعتقال، وكان في بعض هذه المعسكرات محارق لحرق الجثث، لكن هذه المعسكرات لم تعرف وجود غرف للقتل بالغازات السامة، فهناك استحالة عمليَّة لوجود غُرَف الغَاز القاتلة لأسباب فيزيائيَّة وكيميائيَّة ومعماريَّة وطوبوغرافيَّة ووثائقيَّة.

لقد لقي اليهود مصيرا فظيعا، ولكن هذا لم يكن حدثا استثنائيا، فقد قُتل الأطفال الألمان أو جُرحوا بواسطة القنابل الفسفوريَّة، كما قتل الكثير من الألمان أثناء ترحيلهم من شرق ألمانيا إلى غربها فيما بين عامي 1945م و1947م.

لا أمر ولا خطة ولا ميزانيّة

يدرك لانزمان جيدا ضعف فرضيَّة الإباديّين وقوة طروحات المراجِعِين. والمفترض أنه كان هناك برنامج هائل للإبادة لم يعثر أحد على أثر لأمر أو خطة أو ميزانيَّة لتنفيذه، واختفي ببساطة السلاح المزعوم الذي استخدم في تنفيذ الجريمة. لقد انتهت حتَّى مجلة "لونوفيل أوبسرفاتور" إلى تكرار اعتراف المتخصصين على الملأ: "ليست هناك صورة فوتوغرافيَّة واحدة لغُرفَة غاز""3". وهو ما يعني أن "غُرَف الغَاز" التي لا تزال تعرض للسياح في ستروثوف (الإلزاس) وماوتهاوسن وهارثييم وداخاو وماجدنيك وأوشفتز، ليست سِوى نماذج (ماكيتات) مزيفة. لقد شارك لانزمان في المؤتمر الشهير الذي عُقد في السوربون (من 29 يونيو إلى 2 يوليو 1982م) وكان على منظميه ريمون أرون وفرانسوا فيوريه، أن يواجها فجأة تلك الحقيقة القاسية. وقد زاد إدراك لانزمان افتقاده لأي دليل أو وثيقة، من إصراره على الرد على المراجِعِين بفيلم عاطفي وبعض المونتاج "للشهادات".

صنع فيلم من لاشيء

صور لانزمان خطوط السكك الحديديَّة والأحجار ومناظر الريف إلى حد الملل. إنه يصاحب هذه الصور الصادمة بتعلق ساخر ردئ، وبحركة كاميرا قصد منها "استدعاء" مناظر الترحيل والقتل بالغاز. وهو يعلق بصوته بطريقته التي تصل إلى درجة الهذيان بقوله: "لقد

نطقت الأحجار أخيراً في تريلنكا بعد أن قمنا بتصويرها من كلّ الزوايا"[4]. وهو يؤكد دون أي دليل، أن النازيين محوا كلّ أثر لجريمتهم الهائلة، ويعلن أنه "كان من الضروري أن نصنع هذا الفيلم من لاشيّء، دون وثائق الأرشيف، وأن نخترع كلّ شيّء"[5]. ومرة أخرى يقول: "لذا فنحن أمام حالة لصنع فيلم من شذرات وشذرات وشذرات.. من لاشيّء يعود المرء إلى لاشيّء"[6]. وأكثر ما يعجب أتباعه المخلصين في الفيلم هو "عدم وجود صورة واحدة من الأرشيف" كما يقول ج. ف. هيلد[7]. "إن هذا الفيلم تكرار هائل"[8]. "إن قوة هذا الفيلم ليست في تصوير ما وقع، فهو في الحقيقة يتحاشي ذلك، بل في تصويره إمكانيَّة وقوع ما وقع"[9].

لقد حرص المخرج على أن يجعل المتفرج يُصدق ما أراد له تصديقه". لقد كان المطلوب منه إعمال خياله فقط. وقد تجاوزت النتيجة كلّ التوقعات. وصرح لانزمان لصحيفة أمريكيَّة كُبرى وهو يشعر بالفخر بقُدْرته الفنيَّة على الإقناع: "كتب لي شخص بعد أن شاهد الفيلم يقول إن تلك كانت المرة الأولى التي يسمع فيها صراخ طفل رضيع داخل غُرفَة الغاز، وقد يكون السبب أنّ الفيلم جعَل خياله يعمل"[10].

في المعسكر الرئيسي في أوشفتز صور لانزمان المحرقة حيث يشاهد السياح من ناحية غُرفَة المحرقة، ومن ناحية أخرى غُرفَة مجاورة تسمي غُرفَة الغاز (وهي في الحقيقة غُرفَة لحفظ الجثث تمهيدا

لحرقها)، لكن كاميرا لانزمان تبقي في الغُرفَة الأولى، وتقوم بالدوران حول نفْسها وتستدير ببراعة بحيث يصبح من المستحيل ملاحظة الظهور المفاجئ السريع جدا لما يُسمّى بـ"غُرفَة الغاز" المظلمة تمامًا، إلَّا بعينٍ خبيرة، في حين أن المتفرج غير المدرب يصدق أن لانزمان قد عرض عليه بوضوح غُرفَة الغاز، وهذا مجرد تضليل. إن لانزمان يستطيع إثبات أنه صور أو لم يصور غُرفَة غاز "حقيقيَّة". وبشكل ما فقد فعل الأمرين معا.

يبدأ الفيلم بالكذب عن طريق الإغفال المتعمد، فضمن قائمة الذين ساهموا ماليا في إنتاج الفيلم، يحرص لانزمان على إغفال ذكر مصدر التمويل الرئيسي، أي دولة اسرائيل، فقد بادر مناحيم بيجين نفْسه برصد 850 ألف دولار لما أطلق عليه "مشروعا يخدم أهداف الأمة اليهوديَّة" "11".

ويستخدم لانزمان الحيل الشفويَّة والماديَّة من كلّ الأنواع لخداع بعض الذين يدير معهم الحوارات من وراء الكاميرا وكذلك مشاهدي الفيلم. فلكي يحصل على بعض شهادات الألمان، اخترع معهدا لا وجود له يدعي "مركز أبحاث دراسات التاريخ المعاصر"، وقام أيضًا بتزوير خطاب يحمل إسم "أكاديميَّة باريس" (السيدة أهرويلر المديرة اليهوديَّة للأكاديميَّة صديقة للانزمان). ودبر لانزمان أوراق هُويَّة مزيفة متخذا لنفْسه اسم "الدكتور كلود ماريه سوريل" وانتحل لقب "دكتور في التاريخ". وقد وعد ووفي بوعده، فدفع ثلاثة آلاف مارك ألماني

لكلّ من "شهوده الألمان"، بل وفضلاً عن ذلك، أكد لهم قبل التصوير أن المقابلات المصورة ستُحفظ لمدة ثلاثين عاما"[12]. وإذن فقد جاءت "شهادات" هؤلاء الألمان مقابل المال.

أما شاهد لانزمان الأول فهو الحلاق أبراهام بومبا (يهودي). وفي فصل بعنوان "الصراخ بالحقيقة" نَرَى بومبا وهو يعمل في دكانه حيث يقلد بحركته وهو يحلق لأحد الزبائن، الحركات التي يُفترض أنه كان يستخدمها عندما كان يحلق شعر الضحايا في "غُرفَة الغاز في تريبلنكا". هنا مرة أخرى، نَرَى بعض التضليل. فأبراهام بومبا كان حلاقا في نيويورك، وقد انتقل للعيش في إسرائيل بعد أن تقاعد، وهناك استأجر لانزمان دكان حلاقة وأعاد خلق المشهد كلّه بالتعاون مع بومبا "[13].

دكان حلاقة في غُرفَة الغاز

دعونا نتعامل بنوع من التفصيل مع "الشهود" في "شوا". إننا لا نتكلّم عن "شهود" بالمعْنَى القانوني للكلمة، فلم تتعرض أي من "شهادات" الشهود للمطابقة والاستجواب المضاد، ولا يبدو أن "الشهادات" قُدمت بشكل كامل، فقد عرض لانزمان تسع ساعات ونصف ساعة من بين 350 ساعة من المواد التي صورها. وتم عمل المونتاج لتلك "الشهادات" فضلاً عن ذلك، بشكل منتظم، وقدمت شذرات منها على شكل لقطات مختارة بعناية للتأثير على المشاهدين. أما الشهادة التي يعتز بها المروجون للفيلم أكثر من

غيرها- فهي شهادة أبراهام بومبا. لكنها لسوء الحظ مليئة بالاستحالات الماديَّة والغموض الحقيقي. يريدنا بومبا أن نصدق أنه كان يعمل في معسكر تريبلنكا في غُرفَة هي عبارة عن محل حلاقة وغُرفَة غاز في وقت واحد. وتبلغ أبعاد هذه الغُرفَة أربعة أمتار في أربعة أمتار. وهو يقول إن هذه المساحة الضيقة كانت تتسع لستة عشر أو سبعة عشر حلاقا وبعض المقاعد الخشبيَّة المستطيلة، وكان يدخل إليها من ستين إلى سبعين امرأة بصحبة عدد غير معروف من الأطفال، وكان الوقت اللازم لحلق شعر أفراد هذه المجموعة 8 دقائق، ولا يغادر أحد الغُرفَة، ثم ينضم إليهم 70 أو 80 إمرأة أخرى، وأيضًا بصحبة عدد غير معروف من الأطفال، ويستغرق حلق شعر هذا العدد 10 دقائق. وإذن كان عدد الموجودين بالغُرفَة يبلغ نحو 146 أو 147 شخصا، باستثناء الأطفال، وكانت هناك مساحة أخرى تحتلها المقاعد الخشبيَّة، كلّ هذا في مساحة لا تتجاوز 16 مترا مربعا. وهو كلّه محض هراء!

وكان الحلاقون الذين يقومون بالمهمة يواصلون العمل دون توقف. وكانوا أحيانًا يغادرون الغُرفَة ولكن لمدة خمس دقائق فقط، وهي فترة كافية لخنق الضحايا بالغاز ثم إخراج الجثث وتنظيف الغُرفَة: "لقد أصبح كلّ شيّء نظيفا مرة أخرى". ولا يحدثنا أحد عن نوع الغاز الذي كان يُستخدم ولا الوسيلة التي كان يتم بها إدخاله إلى الغُرفَة، ولا كيف كان يتم التخلص من الغاز بعد أن تنتهي

العمليَّة، فلانزمان لا يوجه أسئلة من هذا النوع. ويبدو أن الألمان كانوا يستخدمون غازًا من نوع خاص، أسرع في تأثيره من سرعة الضوء، وهو غاز لا يلتصق بالأسطح ولا يبقى له أثر في الجثث التي يتم إخراجها من الغُرفَة.

وأغلب الظن أن بومبا المصاب بنزعة جنونيَّة للكذب، يستلهم في "شهادته" ما ورد في الصفحة رقم 212 من كتاب "تريبلنكا" للكاتب ج. ف. شتاينر "14" وهو الكتاب الذي أدانه حتَّى بيير فيدال ناكيه، معتبرا إياه تزييفا خرافيا "15"، كتب أجزاء منه على الأقل الروائي جيل بيرو "16".

أما "الشاهد" رودلف فيربا فهو المسؤول الأصلي عن أسطورة أوشفتز. لقد سجن في بيركناو في أفضل الظروف. (كان على سبيل المثال يقيم في غُرفَة بمفرده). وقد سرد كثيرا جدا من الهراء عن أوشفتز في أبريل 1944م إلى أن واجه في محاكمة زوندال في تورنتو عام 1985م تجربة مهينة، فقد قرر ممثل الادعاء الذي طلب الاستعانة بشهادته لمواجهة طروحات المراجِعِين، فجأة، التراجع عن توجيه أي أسئلة له بعد أن اتضح أن فيربا كاذب لا يعرف الحياء. لقد اخترع تمامًا الكثير من الحقائق والأرقام، وقال بوجه خاص إنه شخصيا أحصي 150 ألف يهودي من فرنسا قتلوا بالغاز خلال 24 شهرا في بيركناو. ومع ذلك فقد أوضح اليهودي الملقب صياد النازيين "سيرج كلارسفيلد" أن الألمان لم يقوموا سِوى بترحيل 75

ألف و721 يهوديا من فرنسا إلى كلّ المعسكرات خلال سنوات الحرب العالميّة الثانية كلّها. وردًّا على سؤال بشأن زيارة هملر إلى أوشفتز بمناسبة افتتاح "غُرفَة غاز" جديدة، اضطر فيربا (الذي قدمه الكاتب الخفي ألان بيستك الذي كتب له كتابه، في المقدمة التي كتبها للكتاب، باعتباره رجلاً يتوخي أقصى درجات الدقة "17") اضطر إلى الاعتراف بأنه استفاد مما أطلق عليه "رخصة الشاعر" أي جواز أن يستوحي الشعراء من الخيال!

نساء عاريات ينقذن شاهدًا

أما "الشاهد" فيليب موللر فهو ليس أفضل حالا. إنه مؤلف كتاب "شاهد عيان على أوشفتز: ثلاث سنوات في غُرَف الغَاز""18". هذا الكتاب المقزز الواسع الانتشار، هو من تأليف الكاتب الألماني الخفي هيلموت فريتاج الذي لم يتردد عن المشاركة في التزييف"19". ويقول موللر في الفيلم إن ما يقرب من ثلاثة آلاف شخص كانوا يُقتلون بالغاز في وقت واحد في غُرفَة الغاز الكبيرة في بيركناو، وإنه في لحظة القتل بالغاز "كان الجميع تقريبا يهرعون في اتجاه الأبواب" وأخيرًا إنهم "كانوا يتكورون بعيدا عن مكان سقوط حبيبات الزيكلون في الغُرفَة". وهو يتجنب القول إن مساحة الغُرفَة التي يشير إليها (وهي في الحقيقة غُرفَة لحفظ الجثث) كانت تبلغ على أكثر تقدير 210 أقدام مربعة، الأمر الذي يجعل من المستحيل أن يتحرك أحد في داخلها. ويقول إن الأمر كان يستغرق أربع ساعات

منذ دخول ثلاثة آلاف شخص إلى غُرفَة خلع الملابس (ذات الثلاثة آلاف مشجب!) لخلع ملابسهم ثم الذهاب إلى غُرفَة الغاز والاختناق فيها، حتَّى نقل الجثث إلى غُرفَة المحارق حيث تحرق وتتحول إلى رماد. وهو لا يكشف أنه لم يكن هناك أكثر من 15 محرقة، وإذا ما افترضنا أن حرق جثة واحدة حرقا تاما يستغرق ساعة ونصف الساعة، فقد كان الأمر يقتضي مرور إثني عشر يوما واثنتي عشرة ليلة من العمل المتواصل لإنجاز ما يصفه.

ويقول موللر إنه كانت هناك مجموعات متعددة من الضحايا الذين كانوا يُقتلون بالغاز ويُحرقون كلّ يوم. ويصف موللر في الفيلم كيف كان الضحايا التشيك ينشدون النشيد الوطني التشيكي والنشيد الوطني اليهودي (الهاتيكفاه). وهو هنا متأثر بما ذكره بيير مارك في كتابه "أصوات في الليل" من أن البولنديين كانوا ينشدون النشيد الوطني البولندي "والهاتيكفاه" إلى أن يذوب النشيدان معا في النشيد الأممي الشيوعي"20".

ويسرد موللر في الكتاب (صفحة 113-114) وليس في الفيلم، كيف أنه بعد أن قرر أن يموت في غُرفَة الغاز، أقنعته مجموعة من النساء الشابات العاريات بالعدول عن ذلك، بعد أن جذبوه بقوة ودفعوه خارج الغُرفَة مفضلين الموت دونه حتى يصبح شاهدا على ما جري لهن. وفي صفحتَّي 46-47 يصف موللر كيف أخذ الأطباء النازيون يتحسسون أفخاذ وسيقان الرجال والنساء الذين

كانوا لا يزالون على قيد الحياة، وكانوا يختارون ما يطلقون عليه "أحسن القِطع" قبل إعدام الضحايا. وبعد إعدامهم كان الأطباء يتقدمون لقطع أجزاء من اللحم الذي كان لا يزال دافئا من الأفخاذ والسيقان ويقذفون بها في أوعية، وكانت عضلات الذين أُطلق عليهم الرصاص ما تزال تعمل وتنقبض، مما يجعل الوعاء يتقافز.

هذا هو فيليب موللر "شاهد" لانزمان العظيم.

ويتحدث "شاهد" آخر هو يان كارسكي بتركيز خاص على جيتو وارسو لكنه لا يقول شيئا. ولسوء الحظ لا يجعلنا لانزمان نستمع لتجربة كارسكي المزعومة في معسكر بيلزك، التي زعم بعدها كارسكي أنه كان يتم قتل اليهود هناك داخل عربات قطارات بواسطة الجير الحي. وفيما بعد سيقول راؤول هيلبرج عنه: "إنني لن أذكره حتَّى في هامش"[21].

أما "الشاهد" راؤول هيلبرج فهو أكثر إثارة للاهتمام. لقد تعرض لانزمان للنقد بسبب تخصيصه حيزا كبيرا من فيلمه لهذا البروفيسور الأمريكي من أصل يهودي نمساوي، والذي لم يمر بتجربة شخصيَّة في المعسكرات. غير أن هيلبرج هو المطران الأعلى الذي يمثل وجهة نظر الإباديّين. إنه الرجل الذي انتَهى إلى الاعتراف بعدم وجود أمر أو خطة أو ميزانيَّة لإبادة اليهود. لكنه رغم ذلك، يتشبث تمامًا بنظريَّة الإبادة، وتشبثه الفكري هذا لافت للاهتمام. وبوسع المشاهد

الذي يتمعن في الفيلم أن يَرى بوضوح أن هيلبرج يتشبث بالإشاعات المجردة للدفاع عن نظريته. ويتضح هذا بوجه خاص، عندما يتحدث عن خطوط السكك الحديديّة الألمانيَّة التي يقول إنّها كانت تنقل اليهود من وارسو إلى تريبلنكا بطريقة علنيَّة ومكشوفة تمامًا. وهو يذكر المواعيد المحددة الدقيقة لمغادرة ووصول القطارات. ويستنتج أن هذه هي الطريقة التي تم بواسطتها ترحيل اليهود إلى تريبلنكا، لكنه يعجز تمامًا عن إثبات وجود غرف غاز في تريبلنكا.

"الشاهد" فرانز شومل جندي سابق في تريبلنكا، وهو دقيق نسبيا فيما يقوله بخصوص أي شيّء باستثناء "غُرَف الغَاز" القاتلة، فعندما يتحدث عن "غُرَف الغَاز" يصبح حديثه غامضا، فهو لا يحدد لنا موقعها ولا حجمها وآليَّة تشغيلها. إنه يتكلم حينًا عن "غُرفَة غاز"، وحينًا آخر عن "غرف غاز" دون أن يوجه له لانزمان سؤالاً يجلي هذا الغموض. وهو لا يكشف حتي، عن نوع الغاز الذي استخدم، ويتحدث عن وجود "محركات"، وهي الأسطورة الرائجة عن محركات ديزل لقتل اليهود (كما في شهادة جريشتاين الكاذبة)، لكن محركات الديزل لا تصلح لخنق البشر. وهو لا يذكر أبدًا أنه كان حاضرا أثناء عمليَّة القتل بالغاز، ويقول عن يوم وصوله إلى المعسكر: "في اللحظة التي كنا نمر فيها بالقرب كانوا يفتحون أبواب غُرفَة الغاز.. وكان الناس يتساقطون خارجها مثل أكياس البطاطس". لذلك، ففي أفضل الأحول، يمكن أن يكون قد شاهد

بعض الجثث، ولكن لا شيّء يسمح له أن يزعم بأن المكان كان غُرفَة غاز. لقد كان قد وصل لتوه. وكان في أفضل الأحوال يردد إشاعة. وإلى جانب هذا، فإنَّ كلّ ما يقوله يتلخص في أنه رأي في هذا المعسكر بعض اليهود، أو بعض الجثث، وربما واحدا أو أكثر من ركام الحطب لحرق الجثث، وربما بعض مواسير الدُش وبعض غرف التطهير بالغاز. وهو يعرض جزءا من خطة ولكن فقط ،بشكل غامض جدا. ما هي هذه الخطة؟ إنه يتحدث بثقة عن القتل بالغاز في معسكر أوشفتز الذي لم تطأه قدماه قط. ويتحدث بنفْس الدرجة من الثقة عن القتل بالغاز في تريبلنكا، ولكن ليس أبدا كشاهد عيان. إنه مثل الأشخاص العصاميين الذين علموا أنفسهم بأنفسهم، والذين يميلون إلى استعراض نتائج قراءاتهم في موضوع معين، غير أنهم يرتبكون أمام سؤال بسيط ومباشر ودقيق. لكن لانزمان لا يوجه أبدا مثل هذا السؤال إلى شومل.

منذ أن أصبحت أسطورة "غُرَف الغَاز" عرضة للخطر، أصبح الإباديّون يميلون إلى التراجع عن قصة "شاحنات الغاز". لكن كلود لانزمان يصحبنا في جولة في هذه الشاحنات أيضًا. ويظهر "شهوده" في هذه النقطة تحديدًا أكثر شطحا وتناقضا. ومن أجل تقوية موقف الإباديّين، يرغمنا لانزمان على الاستماع لقراءة وثيقة (هو الذي لم يرغب في الاستعانة بوثائق) عن "شاحنات الغاز". هناك مشكلة واحدة فقط: لقد قام بوقاحة بتشويه الوثيقة، محاولاً بوجه خاص،

إخفاء عبثيتها الواضحة. وسيجد المتخصصون الوثيقة الكاملة في كتاب "القتل الجماعي بالغازات السامة""22".

في تريبلنكا: ليس هناك سر على الإطلاق

يبدو أن القرويين من القري المجاورة لتريبلنكا ومهندس الشاحنة البولندي انبهروا بوجه خاص بثراء اليهود الذين وصلوا في القطارات. وإذا كانوا قد اعتقدوا أنَّ الألمان سيقتلون اليهود، فقد اعتقدوا أنهم سيفعلون ذلك بخنقهم أو شنقهم. ولم يشهد أي واحد منهم ولا حتَّى الميكانيكي، عمليَّة إعدام بالغاز، ولم يكن من الممكن أن تفلت عمليَّة بهذا الحجم دون أن تلفت أنظارهم. لم يكن هناك سر في تريبلنكا الواقعة على مسافة مائة كيلومتر من وارسو. ولا يتعرض ريتشارد جلازر الذي يجري معه لانزمان مقابلة في الفيلم، إلى ما ذكره للمؤرخة جيتا سيريني هونيمان، من أن كلّ القرويين فيما بين تريبلنكا ووارسو كان لابد وأن يكونوا على علم بالمنطقة. لقد كانوا، وعلى الأخص القرويون، يذهبون إلى هناك لبيع السلع لليهود في المعسكر. وكانت العاهرات البولنديات تطهين الطعام لحراس المعسكر الأوكرانيين. لقد كانت تريبلنكا "سيركا" حقيقيا من القرويين والعاهرات "23".

يخشَى لانزمان المراجِعِين، فهو يقول: "إنني عادة ما أقابل أناسًا يقولون إن فيلم "شوا" ليس موضوعيا لأنه لا يتضمن مقابلات مع

الذين ينكرون الهُولُوكُوسْت. ولكن بمحاولة مناقشة هذه النقطة ستجد نفْسك وقد وقعت في مصيدة" "24".

والحقيقة أنه في تلك المناسبات النادرة حين نجح المراجِعون في استدراج الإباديّين إلى المناقشة، لم يكن أداء الإباديّين جيدا. لكن الجمهور العام لا يعرف لماذا يرفض الإباديّون مناقشة الموضوع في الإذاعة والتليفزيون. وإذا كان ما يقوله المراجِعُون أكاذيب، فلماذا لا يتم دحضها في العلن؟ وإضافة إلى ذلك، هل هي حقا أكاذيب؟ ألم يكن سيرج كلارسفيلد نفْسه هو الذي اعترف بأن أحدا لم ينشر بعد "أدلة حقيقيَّة" على وجود غُرَف الغَاز ولكن مجرد بدايات لهذه الأدلة" "25".

لقد انتهت الحرب الأخيرة مع ألمانيا في الثامن من مايو عام 1945م. لكن البعض يعتقد أن من الضروري الاستمرار في هذه الحرب عن طريق الاستمرار في نشر الافتراءات الفظيعة التي أنتجتها آلة الدعاية الحربيَّة. إنهم يواصلون الحرب عن طريق المحاكمات ومن خلال أجهزة الاعلام التي يتصاعد قرع طبولها للهُولُوكُوسْت. وقد آن الأوان أن يتوقفوا. لقد فعلوا الكثير بالفعل. إن السلام والمصالحة يستلزمان سلوكا مختلفا. إن "تجارة "شوا" لا تقودنا جميعا إلَّا إلى طريق مسدود. وأمام الأجيال الشابة من اليهود أشياء أخرى جديرة باهتمامهم، بدلاً من الانغماس في المعتقدات العبثيَّة لديانة الهُولُوكُوسْت. وإذا ما تأكد رفضهم الاهتمام بفيلم "شوا"، فسوف

يصبح هذا الموقف العلامة الأولى على رفض الجيل الجديد للمثيولوجيا الرسميَّة، على الأقل فيما يتعلق بالحرب العالميَّة الثانية ونتائجها.

1987م

هوامش

1) "لوموند"، 2 نوفمبر 1985م.
2) مجلة "حامور" عدد يونيو 1985م، صفحة 37.
3) لونوفيل أوبسرفاتور، أبريل 1983م، صفحة 33.
4) ليبراسيون، 25 أبريل 1985م، صفحة 22.
5) لوماتان دو باريس، 29 أبريل 1985م، صفحة 12.
6) لكسبريس، 10 مايو 1985م، صفحة 40 .
7) لفنمو دو جودي، 2 مايو 1985م، صفحة 48.
8) لوتر جورنال، مايو 1985م، صفحة 48.
9) أندريه جلوجسمان: "حق الحياة" فبراير-مارس 1986م، صفحة 21.
10) نيويورك تايمز، 20 اكتوبر 1985م.
11) ذي جويش جورنال، نيويورك، 27 يونيو 1986م، صفحة 3، و"جويش تيليغراف اجنسي"، 20 يونيو 1986م.
12) "في إس دي"، مقابلة أجراها جان بيير شابرول، 9 يوليو 1987م، صفحة 11 بوجهٍ خاصّ.
13) جان شارل زوريك: "المجموعة الأخرى"، سبتمبر 1986م، صفحة 65، وصحيفة "تايمز" (لندن)، 2 مارس 1986م، و"لوتر جورنال"، مايو م1985، صفحة 47.
14) جورج شتاينر: "تريبلكنا"، نيويورك 1967م.
15) "اليهود والذاكرة والحاضر"، ماسبيرو 1981م، صفحة 212.
16) لو جورنال دو ديمانش، 30 مارس 1986م، صفحة 5.
17) رودلف فيربا وآلان بيستك: "لا أستطيع أن أسامح"، كندا 1964م، صفحة 2.
18) "شاهد على أوشفتز: ثلاث سنوات في غُرَف الغَاز"، نيويورك 1979م. وقد كتب كلود لانزمان مقدمة الطبعة الفرنسيَّة.

19) انْظرْ مقال كارلو ماتوجنو: "تضليل فيليبل موللر" الذي أعيد نَشْره في كتاب "أوشفتز: حالة تضليل"، طبعة بارما، 1986م. وقد نَقل موللر عن كتاب "طبيب في أوشفتز" الذي زَعم أنَّ كاتبه هو ميكلوس نيزلي.
20) بير مارك "أصواتٌ في الليل"، تقديم إيلي فيزل، بلون، 1982م، صفحة 247.
21) "تسجيل الهُولُوكُوسْت"، جيروساليم بوست، الطبعة الدوليَّة، 28 يونيو 1986م، صفحة 9.
22) "القتل الجماعيّ بالغازات السامّة" (س. فيشر، 1983م)، صفحة 333-337.
23) جيتا سيريني: "في الظلام"، لندن 1974م، صفحة 1993.
24) جويش كرونيكل، 6 فبراير 1987م، صفحة 8.
25) "في إس دي"، 29 مايو 1986م، صفحة 37.

إيلي فيزل

شاهد بارز زائف

حصل إيلي فيزل Elie Wiesel على جائزة "نوبل" للسلام عام 1986م. لقد أصبح معترفا به بوجه عام كشاهد على "الهُولُوكُوسْت" اليهودي، وبشكل أكثر دقة، كشاهد على "غُرَف الغَاز" النازيَّة الأسطوريَّة. وقد أكدت صحيفة "لوموند" الباريسيَّة اليوميَّة في ذلك الوقت أن فيزل حصل على جائزة نوبل لأن:

"السنوات الأخيرة شهدت، ظهور فرضيات نظريَّة، تحت ما يُسمّى بـ"المراجَعَة التاريخيَّة"، خاصة في فرنسا، تُشكّك في وجود "غُرَف الغَاز"، وربما أكثر من ذلك، في إبادة اليهود""1".

ولكن على أي أساس يعتبر إيلي فيزل شاهدا على "غُرَف الغَاز" المزعومة؟ وبأي حق يُطلب منا أن نؤمن بوسائل الإبادة هذه؟ في كتاب سيرته الذاتيَّة، الذي يفترض أن يصف فيه تجاربه في أوشفتز وبوخنفالد، لا ترد كلمة واحدة عن غُرَف الغَاز"2". إنه يتحدث حقا عن إعدام الألمان لليهود، ولكن.. بالنيران، عن طريق إلقائهم أحياء في حفر مشتعلة بالنيران أمام عيون أقرانهم. ليس أقل من ذلك!

هنا لازم سوء الحظ الشاهد الزائف إيلي فيزل، فبعد أن وجد نفْسه مضطرا للاختيار من بين أكاذيب الدعايَة الحربيَّة للحلفاء، اختار الدفاع عن أكذوبة النيران بدلاً من أكاذيب الماء المغلي والغاز والصعق بالكهرباء.

في عام 1956م، عندما نشر فيزل شهادته بالعبريَّة، كانت أكذوبة النيران لاتزال حيَّة في بعض الأوساط. هذه الأكذوبة هي أصل كلمة "الهُولُوكُوسْت". أما اليوم، فلم يعد هناك، ولا حتَّى مؤرخ واحد، يؤمن بأن اليهود حُرقوا أحياء. وقد اختفت أيضًا أساطير الماء المغلي والصعق بالكهرباء. وظلت فقط أسطورة "غُرَف الغَاز".

كان الأمريكيون هم الذين روجوا لأكذوبة الغاز "3". وكان البولنديون هم الذين روجوا لأكذوبة قتل اليهود بالماء المغلي أو البخار (خصوصا في معسكر تريبلنكا) "4". أما أكذوبة الصعق بالكهرباء فقد روج لها السوفييت "5".

ولا يوجد هناك أصل محدد لأكذوبة الحرق في النار، فهي قديمة قدم الدعاية الحربيَّة نفْسها. وفي مذكراته التي نشرت في كتاب بعنوان "الليل" Night وهو طبعة أخرى لشهادته الصادرة بالعبريَّة، يقول فيزل إنه كانت هناك في أوشفتز حفرة تشتعل بالنيران مخصصة للبالغين، وأخرى مخصصة لإلقاء للأطفال الرضع. فهو يكتب "6":

"على مقربة منا كانت ألسنة اللهيب تشتعل في الحفرة، ألسنة لهيب عملاقة. كانوا يحرقون شيئا ما. توقفت شاحنة ضخمة قرب الحفرة وأفرغت حمولتها.. من الأطفال الصغار.. الرضع. نعم، لقد شاهدت ذلك.. شاهدته بعيني رأسي.. أولئك الأطفال في النيران. (لا عجب أنني لم أستطع بعد ذلك أن أنام، فقد هرب النوم من عيني).

وعلى مسافة من هذه الحفرة كانت هناك حفرة أخرى تشتعل فيها نيران عملاقة حيث كان "الضحايا يحتضرون ببطء في اللهيب". وقاد الألمان طابور فيزل إلى مسافة "ثلاث خطوات" من الحفرة، ثم أصبحوا على بعد "خطوتين". "ومن على بعد خطوتين من الحفرة أمرونا بالاتجاه يسارا وتركونا نذهب إلى الثكنات".

ويؤكد لنا فيزل باعتباره شاهدا استثنائيا، أنه التقى بشهود استثنائيين آخرين. وعن مكان في أوكرانيا يدعي "بابي يار" كان الألمان يعدمون فيه المواطنين السوفييت ومن بينهم اليهود كتب فيزل: "فيما بعد عرفت من أحد الشهود أن الأرض لم تتوقف أبدا، شهرا بعد شهر، عن الاهتزاز وكانت حمم الدماء تتدفق منها من وقت إلى آخر "[7].

إن لسان فِيزل لم يَزلَّ بمثل هذه الكلمات في لحظة جنون، فقد كتبها أولاً، ثم كان عليه إعادة مُراجَعَتها عشرات المرات (أو على

الأقل مرّةً واحدةً) خلال "بروفات" الطباعة. وأخيرًا، تُرجِمَت كلماته هذه إلى العديد مِن اللغات شأنها في ذلك شأن كلّ كتاباته.

أما نجاة فِيزل نفْسه فجاءتْ، بالطَّبع، نتيجةً لمعجزةٍ، فهو يقول:

"في بوخنفالد كانوا يرسلون بعشرة آلاف شخصٍ إلى حتفهم كلّ يوم. وكنتُ دائمًا في المائة الأخيرين قرب البوابة. ثُمَّ توقفوا. لا أعرف لماذا؟" "8".

في عام 1954م قدمت الباحثة الفرنسيَّة جيرمين تيليون تحليلاً لما أطلقت عليه "الأكذوبة المجانيَّة فيما يتعلق بمعسكرات الاعتقال الألمانيَّة" فقد كتبت تقول:

"إن عدد أولئك الذين (يكذبون مجانا)، اذا أردنا الصدق، أكبر بكثير مما يفترض الناس، وموضوع مثل موضوع معسكرات الاعتقال النازيَّة المحبوك جيدا، يتيح لهم الفرصة بكلّ أسف، لمنح الخيالات الساديَّة المازوكيَّة مجالاً استثنائيا للحركة. لقد عرفنا العديد من الأشخاص المختلين عقليا والمحتالين وأنصاف الحمقي، الذين اخترعوا قصصا عن الترحيل، وعرفنا آخرين من الذين تم ترحيلهم بالفعل، كافحت عقولهم المريضة من أجل الوصول إلى ما وراء البشاعات التي شاهدوها أو رواها لهم أناس زعموا أنَّها وقعت لهم. وتوفر الناشرون الذين يرحبون بنشر تلك الخيالات، لكن اللوم يقع على عاتق

الناشرين فقد كان بإمكانهم التحقق عن طريق البحث الجاد الكفيل بكشف التزييف" "9".

كانت تيليون تفتقد إلى الشجاعة مما جَعَلها تحجم عن ذكر الأسماء. لكن هكذا الحال دائما، فالناس يوافقون على أن هناك غرف غاز مزيفة يتم تشجيع السياح والزوار على زيارتها، لكنهم لا يقولون لنا أين، ويوافقون على أن هناك "شهودا" مزيفين، لكنهم بشكل عام لا يذكرون إلَّا "مارتن جراي"، المحتال الأشهر، الذي قام ماكس جاللو MAX GALLO بناء على طلبه، بتزييف كتابه الأكثر مبيعا "من أجل الذين أحببتهم" وهو يعلم تمام العلم ما يقوم به.

وأحيانًا يُذكر أيضًا اسم جان فرانسوا شتاينر، فروايته الشهيرة "تريبلنكا" (1966م) قدمت كعمل يتمتع كلّ ما فيه بالدقة، بضمان شهادات شفويَّة أو مكتوبة. لكن الرواية كانت في الواقع، مجرد تزييف يعود على الأقل في جانب منه، إلى الروائي جيل بيرو GILLES PERRAULT. وهناك ماريك هالتر "10"، الذي نشر من جانبه كتاب "مذكرات أبراهام" (1983م) ودأب على القول في أحاديثه الإذاعيَّة، إنه يروي فيه عن تجربته في جيتو وارسو. ومع ذلك، إذا كنا نصدق مقال نيكولاس بو المفضل لَدَى هتلر "11" فإنَّ ماريك الصغير (وكان وقتها في الثالثة من عمره)، وأمه لم يغادرا وارسو في عام 1941م وإنما في أكتوبر 1939م، أي قبل أن

ينشيّء الألمان الجيتو هناك. ويفترض أن يكون كاتب خفي هو جان بيير جيرجان هو الذي كتب كتاب هالتر.

أما فيليب موللر فهو مؤلف كتاب "شاهد على أوشفتز: ثلاث سنوات في غُرَف الغَاز""12" الذي نال جائزة "المنظمة الدوليّة لمكافحة العنصريّة ومعاداة الساميّة" (ليكرا) عام 1980م. هذا الكتاب المقزز الواسع الانتشار هو في الواقع من تأليف كاتب ألماني خفي يدعي هيلموت فريتاج، لم يتورع هو نفْسه عن الانتحال "13". أما مصدر الانتحال فهو كتاب آخر من الكتب واسعة الانتشار بعنوان "أوشفتز: تقرير طبيب شاهد" ملفق من خليط من الكتابات التي أعدها ميكلوس نيزلي Miklos Nyiszli "14".

وهكذا يتضح أن عشرات الكتب التي قُدمت على أنّها حقيقيَّة كالوثائق الأصليّة، مجرد تجميعات منسوبة إلى مختلف الكتاب المستترين: ماكس جاللو وجيل بيرو وجان نويل جيرجان وهيلموت فريتاج وآخرين.

كنا نود أن نعرف رأي جيرمين تيليون اليوم في إيلي فيزل، فالكذب عنده ليس بالتأكيد مجانيا. فهو يدعي أنه يمتلئ بالحب للإنسانيَّة، ومع ذلك، لا يتورع عن استثارة الكراهية. ففي رأيه:

"على كلّ يهودي، أن يخصص في جزء ما من تكوينه، مساحة للكراهية -الكراهية الصحيَّة النشيطة- لكلّ ما يمثله الألماني ولكلّ ما هو قائم في الألماني. ومن لا يفعل ذلك يكون قد خان الموتي" "15".

في بداية عام 1986م، بَادر 83 نائبا في البرلمان الألماني (البوندستاج) إلى ترشيح فيزل لجائزة نوبل للسلام، وقالوا إن حصوله عليها سيكون "تشجيعا عظيما لكلّ دعاة المصالحة" "16". وهو ما يمكن أن نطلق عليه "الإنتقال من الاشتراكيَّة الوطنيَّة إلى المازوكيَّة الوطنيَّة".

كان جيمي كارتر في حاجة إلى مؤرخ يرأس لجنة البيت الأبيض للهُولُوكُوسْت. وكما عبر عن ذلك ببراعة أرثر بوتز، لم يسند كارتر المهمة إلى مؤرخ Historian وانما إلى "ممثل مسرحي" Histrion هو إيلي فيزل. وحتَّى صحيفة "لوموند" اضطرت، في المقال المشار إليهسابقا، للإشارة إلى المسحة المسرحيَّة الذين يستنكرها الناس في إيلي فيزل:

"طبيعي أنه حتَّى بين أولئك الذين يُقَدّرون كفاح ذلك الكاتب الأمريكي اليهودي الذي اكتشفه الكاثوليكي فرانسوا مورياك، هناك من يأخذون عليه ميله الشديد لتحويل الحزن اليهودي إلى "حالة مرضيَّة"، أو لكونه أصبح الكاهن الأعظم "لإدارة الهُولُوكُوسْت المنظمة".

وقد كتب الكاتب اليهودي ليون جيك: "من المؤسف أن الرأي المدمر الذي يَرى أن تجارة "شوا" لا تعادلها تجارة أخرى، أصبح حقيقة لامناص منها" "17".

وجه إيلي فيزل تحذيرات ملتهبة ضِدَّ الكتاب المراجِعِين. لقد شعر أن الأمور تفلت من بين يديه، وأنه سيصبح من الصعب أكثر فأكثر بالنسبة له المحافظة على الاعتقاد المجنون بأن اليهود أبيدوا أو تعرضوا لسياسة الإبادة، خاصة فيما يُسمّى بـ "غُرَف الغَاز". وقد اعترف سيرج كلارسفيلد بأن الأدلة الحقيقيَّة على وجود "غُرَف الغَاز" لم تنشر بعد. ووعد بالعثور عليها "18".

في مجال البحث التاريخي الأكاديمي انتهت أسطورة "غُرَف الغَاز". والحقيقة أن هذه الأسطورة لفظت أنفاسها الأخيرة منذ عدة سنوات في المؤتمر الذي عقد في جامعة السوربون في باريس (من 29 يونيو إلى 2 يوليو 1982م) والذي رأسه ريمون أرون وفرنسوا فيوريه. ولم يبق إلَّا أن تعلن هذه الحقيقة للجمهور العام. ومع ذلك، فمن المهم للغاية عند إيلي فيزل ألَّا تُنشر هذه الحقيقة. وإلَّا كيف يستمر كلّ هذا الاهتمام الإعلامي ويتزايد. وكلّما بالغ الصحفيون فيما يكتبونه، بالغ المؤرخون في ركونهم إلى الصمت.

لكن هناك من المؤرخين من تجرأوا على رفع أصواتهم عاليا ضِدَّ الأكاذيب وحملات الكراهية، كما في حالة ميشيل دوبور Michel

de Bouard الذي كان عضوا في المقاومة أثناء الحرب وتم ترحيله إلى معسكر موثهاوزن، كما كان عضوا في لجنة تاريخ الحرب العالميّة الثانية من 1945م إلى 1981م وعضوا في معهد فرنسا، ففي مقابلة صحفيّة مثيرة معه عام 1986، اعترف بشجاعة بأنه شهد في عام 1954م على وجود غُرفَة غاز في ماثهاوزن ثم اتضح أخيراً أنَّها لم يكن لها وجود قط "19".

إن الاحترام الواجب تجاه معاناة كلّ ضحايا الحرب العالميّة الثانية وخصوصا، الذين عانوا الترحيل الجماعي، يتطلب من المؤرخين العودة إلى المناهج الراسخة والمشرفة للنقد التاريخي، وأن يتم فحص وتدقيق شهادات "شهود العيان" على "الهُولُوكُوسْت" بدلاً من قبولها واعتمادها كحقيقة لا تقبل الشك.

ربيع 1988م

هوامش "ايلي فيزل"

1) 17 أكتوبر 1986م. الصفحة الأولى.

2) هناك اشارةٌ واحدةٌ غامضةٌ تمامًا، وعابرةٌ في صفحتيّ 78-79: فيزل، الذي يتمتع كثيرًا بالحديث إلى الله، يقول لله: "ولكن ماذا يفعل هؤلاء الرجال هنا، الذين خنتهم، الذين تركتهم يتعذبون، ويُذبحون، ويُخنقون بالغاز؟ إنَّهم يصلّون أمامك". ("ليل"، نيويورك، مطبوعات ديسكوس/ أفون، 1969م، صفحة 79). وفي تقديمه للكتاب نفْسه، يَذكُر فرانسوا مورياك "غُرفَة الغاز والمحرقة" (صفحة 8). وفي الطبعة الألمانيَّة مِن الكتاب (الصادر عام 1962م) استبدلت كلمتا "مَحْرقة" و"مَحَارق" أربع عشرة مَرّة بكلمة Gaskammer أيّ غُرفَة الغاز. وجديرٌ بالذّكر أنَّه في يناير 1945م، مع اقتراب السوفيِّيت مِن معسكر أوشفتز في بولندا، بَادر الألمان إلى اخلاء المعسكر، وكان ايلي فيزل الشاب اليافع، يَقضي فترة النقاهة في ذلك الوقت، في مستشفى المعسكر بعد اجراء جراحةٍ له في قدمه، بعد أن أصيبت بعدوى، ونصحه طبيبه بالبقاء في المستشفى لمدّة أسبوعين لكي يتمتع بالغذاء الجيّد والراحة، ولكن وقبل أنْ تُشفى قدمه، أصبح استيلاء الروس على المعسكر وشيكًا، واعتُبر نزلاء المستشفى غير صالحين للقيام بالرحلة الطويلة مع النازحين مِن النزلاء إلى المعسكرات الواقعة داخل ألمانيا، وكان يُمكن أن يبقى ايلي فيزل في بيركناو في انتظار وصول الروس المحرِّرين. وكان مُصرِّحًا لأبيه بالبقاء معه في المستشفى، إلَّا أنَّه ناقش الأمر مع أبيه واستقر الاثنان على الانسحاب مع الألمان. (انْظرْ "ليل" صفحة 93).

3) انْظُر التقرير الأمريكيّ لمجلس لاجئي الحرب، معسكرات الاعتقال الألمانيَّة: أوشفتز وبيركناو (واشنطن دي سي)، نوفمبر1944م.

4) انْظُر وثيقة نُورمبْرج رقم (USA-293) PS- 3311. المنشورة في "الحزمة الزرقاء" مِن ملفات محاكمات نورمبرج، المجلّد 32، صفحة من 153- 158.

5) انْظُر التقرير المنشور في "براقدا"، فبراير 1945م، صفحة 4، وتقرير UP في "واشنطن ديلي نيوز"، 2 فبراير 1945م، صفحة 2.

6) "ليل". انْظُر خصوصًا الصفحات 41، 42، 43، 44، 79، 93.

7) Paroles d'etranger (طبعة دي سوليي، 1982م)، صفحة 86.

8) "مُؤلِّف، مُعلِّم، شَاهِد"، مجلة "تايم"، عدد 18 مارس 1985م، صفحة 79.

9) Le System concentrationmmaire allmand Revue d'histoire de la Deuxieme Guerre mondiale (1940م-1944م) ، في يوليو 1954م، صفحة 18.

10) لو جورنال دي ديمانش، 30 مارس 1985م، صفحة 5.

11) ليبراسيون، 24 يناير 1986م، صفحة 19.

12) أصدَره شتاين وداي (نيويورك) 1984م، تقديم يهودا باور مِن معهد اليهوديَّة المعاصرة، الجامعة العبريَّة، القدس.

13) كارلو ماتوجنو Auschwitz: un caso di plagio، بارما، ايطاليا 1986م، وأيضًا "حالة انتحال" جريدة المراجَعَة التاريخيَّة، ربيع 1990م، صفحة 5-24.

14) طبْعة شعبيَّة عام 1961م، ثُمَّ صَدَر فيما بعد عن فاوست كريست (نيويورك).

15) أسَاطير عَصْرنا (الفصل 12 بعنوان "مَوعد مع الكراهية"). نيويورك: مطبوعات سكوكن، 1982م، صفحة 142، أو نيويورك، أفون، 1968م، صفحة 177-178.

16) الأسبوع في ألمانيا (نُشِر في نيويورك بواسطة الحكومة الألمانيَّة في بون) 31 يناير 1986م، صفحة 2.

17) "الهُولُوكُوسْت: استخدامه واساءة استخدامه عند الجمهور الأمريكيّ"، دراسات معهد ياد فاشيم (القدس)، 1981م، صفحة 316.

18) VSD 29 مايو 1986م، صفحة 37.

19) غرب فرنسا، 2-3 أغسطس 1986م، صفحة 6.

شاهد في محاكمات الهُولُوكُوسْت الكُبْرَى

سقوط مطارنة الهُولُوكُوسْت وظهور تقرير لوشتر

كان عام 1985م عاما عظيما في تاريخ المراجعة التاريخيَّة، وسوف يدخل التاريخ باعتباره عام محاكمة زوندل (أو على وجه التحديد محاكمة زوندل الأولى، فقد انعقدت المحاكمة الثانية عام 1988م).

قابلت إرنست زوندل Ernest Zundel للمرة الأولى عام 1979م في لوس انجليس في المؤتمر الأول الذي عقده معهد المراجعة التاريخيَّة، وظل التفاهم والانسجام قائما بيننا منذ ذلك الوقت. وفي يونيو 1984م ذهبت إلى تورنتو حيث يعيش، لمساعدته في الإعداد لدفاعه في فترة ما قبل نظر القضيَّة، وهي الفترة التي يقرر القضاء الكندي خلالها ما إذا كان سيقبل إقامة الدعوى القضائيَّة ضِدَّ زوندل أمام قاضٍ ومحلفين أم يرفضها. وفي يناير 1985م، عدت إلى تورنتو حيث قضيت سبعة أسابيع قدمت خلالها شهادتي أمام المحكمة كما قدمت لزوندل كلّ ما أمكنني تقديمه من دعم، وسأظل أفعل ذلك في المستقبل، فهو شخصيَّة استثنائية.

كان زوندل حتَّى قبل المحاكمة، يعمل كفني متخصص في الرسم الإلكتروني (الجرافيك) وفي تصميم وتنفيذ مواد الدعاية. ويبلغ زوندل

من العمر خمسين عاما، فقد ولد في ألمانيا عام 1938م وظل محتفظا بجنسيته الألمانيَّة. وقد شهدت حياته تحولاً كبيرا منذ أن بدأ في أوائل الثمانينيات في توزيع كتيب "هل مات حقا ستة ملايين؟" لريتشارد هاروود. وكان هذا الكتيب الذي نشر للمرة الأولى في بريطانيا عام 1974م، قد أثار جدلاً كبيرا في المجلة البريطانيَّة "كتب وكتّاب" في العام التالي. وبناء على ضغط من جانب الطائفة اليهوديَّة في جنوب أفريقيا صدر قرار بحظر توزيعه هناك.

وفي عام 1984م، نظمت سابينا سيترون، رئيسة "اتحاد ذكْرى الهُولُوكُوسْت" في كندا، مظاهرات عنيفة ضِدَّ زوندل، وانفجرت قنبلة في منزله، ورفض البريد الكندي الذي يعامل مطبوعات المراجعين كما يعامل المطبوعات الإباحيَّة (البورنوجرافيَّة) حق زوندل في إرسال أو استقبال أي رسائل. ولم ينجح زوندل في استعادة حقه هذا إلَّا بعد عام من الطعون والإجراءات القانونيَّة. وفي الوقت نفْسه تدهورت أحواله العمليَّة رغم سمعته الممتازة في الأوساط المهنيَّة. وبتحريض من سابينا سيترون، وجه المدعي العام في مقاطعة أونتاريو، الاتهام رسميا إلى زوندل بطبع كتاب كاذب ونشر قصص وأخبار تتعارض مع الصالح العام.

تنص المادة 177 من القانون الجنائي الكندي على أن "كلّ من ينشر طواعية كتابًا أو قصة أو أخبارًا يعرف أنَّها كاذبة، تؤدي أو

يحتمل أن تؤدي- إلى الإضرار بالصالح العام، يعرض نفْسه لعقوبة السجن لمدة سنتين".

وقد جاء توجيه الاتهام إلى زوندل متسقا مع ذلك الخط في التفكير الذي يَرى أن: "المتهم فقد حقه في حريَّة التعبير عندما باع كتيب هاروود، فقد قام بنشر قصة يعرف أنَّها كاذبة، في حين أنه لا يمكن أن يكون جاهلاً بحقائق راسخة مثل "إبادة اليهود" و"غُرَف الغَاز"، وأنه يحتمل أن يضر بتصرفه هذا، بالتسامح الاجتماعي والعرقي في المجتمع الكندي" (حيثيات القضيَّة صفحة 1682). كذلك اتهم زوندل بكتابة وإرسال رسالة بالبريد إلى أناس خارج البلاد بعنوان "الغرب والحرب والاسلام" يردد فيها نفْس الأفكار الموجودة في كتيب هاروود.

رأس المحكمة القاضي هيو لوك، وكان ممثل الادعاء بيتر جريفيث. أما المحامي الذي دافع عن زوندل فكان دوجلاس كريستي من كولومبيا البريطانيَّة ومساعدته كيلتي زوبكو. وتكونت هيئة المحلفين من 12 شخصا. وقامت أجهزة الإعلام الناطقة بالإنجليزيَّة بتقديم تغطيةٍ مكثَّفةٍ للقضيَّة. ويجب أن نلاحظ أن تكاليف نظر القضيَّة أمام القضاء جاءت من أموال دافعي الضرائب الكنديين وليس من طرف سابينا سيترون رئيسة اتحاد ذكْرَى الهُولُوكُوسْت.

وتوصلت هيئة الملحفين إلى إدانة زوندل بسبب قيامه بتوزيع كتيب هاroود، لكنها برأته من كتابة الرسالة. وحكم القاضي على زوندل بالسجن لمدة خمسة عشر شهرا، وحظر عليه الحديث أو الكتابة في موضوع الهُولُوكُوسْت. وسحبت القنصليَّة الكنديَّة في تورنتو جواز سفر زوندل، وتقدمت الحكومة الكنديَّة بطلب لترحيله إلى ألمانيا، وقبل ذلك كانت السلطات الألمانيَّة (في ألمانيا الغربيَّة) قد شنت غارات بوليسيَّة مكثفة خلال يوم واحد في عموم البلاد على منازل أنصار زوندل.

لكن زوندل حقق نصرا إعلاميا. ورغم العدائيَّة الواضحة تجاهه فقد كشف الإعلام- وخاصة التليفزيون، للرأي العام الكندي الناطق بالإنجليزيَّة، أن لَدَى المراجعين وثائقَ وحججا من النوع الرفيع، في حين يواجه الإباديّون مشاكل خطيرة.

لقد ظهرت ديانة جديدة طوال الأربعين عاما الأخيرة منذ نهاية الحرب العالميَّة الثانية. هذه الديانة هي ديانة "الهُولُوكُوسْت" التي بدأت تتشكل خلال محاكمات نورمبرج في 45-1946م التي أعقبتها محاكمات أخرى، ما زال بعضها ينعقد حتَّى اليوم. وعرف الكثير من المؤرخين شهرةً ونجاحًا كبيرين بفضل تلك الديانة. وأكثرهم شهرة هو بلا شك راؤول هيلبرج. وقد تدافع جمع غفير من "الشهود" أو من يسمون بالشهود، للوقوف في منصات الشهادة في المحاكم للدفاع عن وقوع الإبادة الجماعيَّة لليهود على أيدي الألمان

واستخدام "غُرَف الغَاز"، ومن بين أكثر هؤلاء الشهود أهميَّة المدعو رودلف فيربا.

في محاكمة زوندل عام 1985م، كان الادعاء يستوحي محاكمات نورمبرج، بعد أن ضمن ظهور هيلبرج وفيربا. وتنبأ زوندل بأن محاكمته سوف تصبح "محاكمة لمحاكمات نورمبرج" وستكون "ستالينجراد الإباديّين". وقد أثبتت الأحداث أنه كان محقا في ذلك. لقد تجلي ظلم محاكمات نورمبرج، واتضح أن هيلبرج مؤرخ لا يتمتع بالكفاءة، وانكشف دجل فيربا. ولن أناقش هنا موقف الشهود الآخرِين الذين وقفوا في منصة الشهادة ومنهم أرنولد فريدمان الذي قُدم باعتباره شاهدا على "غُرَف الغَاز" في أوشفتز، لكنه انتَهَى تحت الأسئلة القويَّة التي وجهها له المحامي دوجلاس كريستي، إلى الاعتراف بعجزه عن إثبات أي شيّء فيما عدا ترديد إشاعة سمعها عن القتل في "غُرَف الغَاز" رغم أنه قضي بالفعل فترة في معسكر أوشفتز (حيث أُرغم على العمل مرة واحدة فقط في نقل البطاطس).

مظالم محاكمات نورمبرج

أُطلق على محكمة نورمبرج "المحكمة العسكريَّة الدوليَّة". والملاحظ أن هذه الكلمات الثلاث تحتوي على ثلاث أكاذيب. أولاً لم تكن هذه "المحكمة" محكمة بالمعْنَى الحقيقي للكلمة، بل كانت تحالفا للمنتصرين الذين يعتزمون التعامل مع المهزومين طبقا

لمبدأ وضعوه واعتبروه صحيحا. وثانيا: لم تكن المحكمة "عسكريَّة" لأن اثنين فقط من بين القضاة الذين رأسوها (وهم إثنان من أمريكا وإثنان من بريطانيا وإثنان من فرنسا وإثنان من الاتحاد السوفييتي) أي السوفيتيان كانا من العسكريين، وأهمهم نيكتشينكو وهو ستاليني بارز سبق أن أدار محاكمات موسكو الشهيرة في 36-1937م. ولم تكن المحكمة "دوليَّة" ولكن من دول الحلفاء، وكانت تقوم على أساس اتفاق لندن الذي قام بتعريف جرائم الحرب والجرائم ضِدَّ السلام (إعداد وشن حرب هجوميَّة) والجرائم ضِدَّ الإنسانيَّة. وقد وُقع اتفاق لندن في الثامن من أغسطس 1945م، أي بعد يومين فقط من قيام الحلفاء بإزالة هيروشيما من الوجود، وقبل يوم واحد من تدمير نجازاكي عندما كان الاتحاد السوفييتي قد بدأ في اليوم نفْسه، أي في الثامن من أغسطس، في شن حربٍ هجوميَّة ضِدَّ اليابان. وكانت القنبلة الذريَّة قد صنعت أساسا بغرض استخدامها ضِدَّ المدن الألمانيَّة، وإذا كان هذا قد حدث، فقد كان يمكن أن يتساءل المرء: أي درس أخلاقي هذا الذي كان الحلفاء يقومون بتلقينه للألمان، تمامًا كما يتساءل المرء بأي حق عقد الحلفاء "محكمة عسكريَّة دوليَّة" أخرى لمحاكمة اليابانيين في طوكيو.

لقد استندت "المحكمة" إلى قوانين ذات أثر رجعي وإلى نظريَّة الذنب الجماعي. وقد أصدرت أحكامها دون أن تتيح للمتهمين إمكانيَّة استئناف الحكم، وهو ما يعني أنَّها محكمة استبداديَّة لا

تحسب حسابا لرد أحكامها أو لنقضها. لقد كانت محاكمات جنائيَّة ولكن دون محلفين. وقد توفرت للادعاء إمكانات هائلة خاصة مع سيطرته الكاملة على وثائق الأرشيف العسكري الألماني. أما الدفاع فلم تتوفر له إلَّا إمكانيات هزيلة، وكانت حركته مقيدة بدرجة كبيرة جدا، وكان يخضع لرقابة مشددة. وعلى سبيل المثال، لم يكن لَدَى محامي الدفاع الحق في تقديم وثائق معاهدة فرساي لإثبات أن "الاشتراكيَّة الوطنيَّة" ظهرت جزئيا، كرد فعلٍ لأثر تلك المعاهدة وما فرضته على ألمانيا.

تقول المادة 19 و20 من ميثاق المحكمة العسكريَّة الدوليَّة:

"إن المحكمة لن تلتزم بالقواعد الاجرائيَّة أو البراهين، ولن تطالب بأدلة على حقائق معروفة للجميع".

والأسوأ من هذا أن المادة 21 تضفي قوة القانون على تقارير لجنة جرائم الحرب التي شكلها الحلفاء.

وتوحي لي محاكمات نورمبرج بالمثال التالي: في نهاية مبارة في الملاكمة انتصر فيها طرف على آخر، يبقي الخصمان في الحلبة: الفائز عملاق ما زال يقف على قدميه، بينما يرقد المهزوم على الأرض ينزف دما. يجذب المنتصر العملاق الضحيَّة من قدميه ويقول له: لا تظن أن القتال انتَهَى. سأذهب أولاً إلى غُرفَة استبدال الملابس، وعندما أعود سأكون مرتديا ثياب القاضي لكي أحاكمك

طبقا لقوانيني. سيتعين عليك أن تقدم تفسيرا لكلّ لكمة وجهتها لي، ولكن لا تهتم بالتساؤل عما وجهته أنا لك من لكمات، فلن يكون لديك حق في الحديث عنها إلّا إذا حدث أنني كنت في حالة مزاجيّة جيدة وقررت أن أسمح لك بمثل هذا الحديث".

وبسلوك هذا المسلك في عام 1945م، بدأ الحلفاء بارتكاب خطأ كبير، فقد عاملوا المهزوم بصلف وغرور ومنحوا أنفسهم الحريّة كاملة في الاختراع والكذب. لكنهم فضلاً عن هذا كلّه، تعاملوا بإهمال شديد. فقد كان يتعين عليهم التدليل على اتهاماتهم بطريقة تتسق مع الأعراف القانونيّة. فإذا افترضنا مثلاً أن الألمان أمروا ونفذوا خطة لقتل كلّ اليهود، فقد كان يتعين على الحلفاء إبراز دليل واحد على توفر سبق الإصرار الإجرامي، وإعداد تقرير عن السلاح الذي استخدم في الجريمة، وتقديم تقرير الطب الشرعي بعد تشريح ولو جثة واحدة من جثث ضحايا الجريمة. لكننا نتعامل هنا مع جريمة مزعومة ذات أبعاد هائلة، دون أن نَرَى دليلاً واحدًا على وجود النيَّة المسبقة أو سلاح الجريمة أو جثة واحدة من جثث الضحايا. ولم يحدث، لا خلال محاكمات نورمبرج ولا في المحاكمات التي اعقبتها، أن قدم الحلفاء هذه التقارير والأدلة، فقد أرضوا أنفسهم بشهادات شهود لم يخضعوا للاستجواب المضاد ولا للمطابقة في تحديد الطبيعة الماديَّة للجريمة المفترضة.

تكمن "الكاريزما" التي يتمتع بها إرنست زوندل في إدراكه أن المراجعين على حق عندما يزعمون أنه من أجل اكتشاف حقيقة الهُولُوكُوسْت، فإنّهم في حاجة فقط إلى التمسك بالأعراف التي تحكم عمل المحكمين والمؤرخين. وقد تجلت عبقريَّة زوندل في بساطته ومباشرته في تعامله مع قضيَّة فشل كلّ المحامين وممثلي الدفاع عن الذين اتهموا بما يُسمّى بـ"الجرائم ضِدَّ الإنسانيَّة" طوال أربعين عاما في التعامل الصحيح معها واكتفوا بالمناورة. والحقيقة أنه منذ عام 1945م حتَّى محاكمة كلاوس باربي في فرنسا عام 1987م، لم يجرؤ محام واحد على الإمساك بالثور من قرنيه. ولم يطالب واحد منهم الادعاء بتقديم دليل على الإبادة وعلى وجود غُرَف الغَاز. لقد اتبع كلّ المحامين تكتيك التأخير والتأجيل، وتذرعوا بوجه عام، بأن موكلهم لم يكن ضالعا في مثل هذه الجريمة، وقالوا إنه لم يكن موجودا في مكان وقوع الجريمة، أو كان بعيدا بحيث لم يدرك تمامًا حقيقة ما وقع أو لم يعرف بوقوع ما وقع. وحتَّى جاك فيرجاس محامي باربي، قال إن موكله حسب الوصفة التقليديَّة، "لم يكن ممكنا له أن يعرف بما جري". هذه الوصفة المهذبة جدا، تعني أن إبادة اليهود قد وقعت بالفعل في أوشفتز أو في أماكن أخرى في بولندا، ولكن الليفتنانت باربي لم يكن يمكنه أن يعرف عنها شيئا وهو الذي كان يعيش في مدينة ليون الفرنسيَّة.

وقد وصف وليام ستاجليتش بإقناع في كتابه "أسطورة أوشفتز" كيف ساهم هذا السلوك من جانب المحامين في محاكمات فرانكفورت (63- 1964م) في تعزيز موقف الادعاء بقبولهم أسطورة الإبادة الجماعيَّة. وكان سبب هذا الموقف الذي اتخذه المحامون، إما اقتناعهم الصادق مثل بعض المتهمين، بوقوع تلك الجريمة البشعة، أو بسبب خوفهم من التسبب في فضيحة إذا ما طالبوا باستجلاء أبعاد تلك الجريمة المزعومة. وكان الأمر سيصبح نوعا من الكفر إذا ما طالب المحامون باحترام الإجراءات القانونيَّة التقليديَّة في محاكمة "النازيين"، فيجب أن نفهم أن "النازي" ليس إنسانا "مثل سائر البشر"، وبالتالي لا يمكن محاكمته "مثل سائر البشر". وبفعل تجربتي مع المحامين في هذا النوع من القضايا، فقد أصبحت على قناعة بأن سبب ضعف الكثيرين منهم يكمن في جهلهم بالجوانب التاريخيَّة أو العلميَّة. لقد ترسخ لديهم الانطباع باستحالة التشكيك فيما يطرحه الإباديّون، وبات يصعب عليهم بالتالي شرح وجهة نظر المراجعين.

وقد عثر زوندل في شخص المحامي دوجلاس كريستي على محامٍ، لا يتمتع فقط بالشجاعة، ولكنه محام بطل أيضًا. ولهذا السبب وافقت على مساندة كريستي يوما بعد يوم بينما كان يستعد للقيام بهذه المهمة. وينبغي أن أضيف أنه دون مساعدة صديقته كيلتي زوبكو لم نكن لنتمكن من النجاح في محاكمة 1985م، وهي محنة

مضنية تبدو الآن كالكابوس. لقد كان الجو السائد في قاعة المحكمة غير محتمل، أساسا بسبب الطريقة التي تصرف بها القاضي هيو لوك. لقد حضرت محاكمات كثيرة في حياتي بما في ذلك فترة محاكمات المتعاونين في فرنسا بعد الحرب العالميَّة الثانية. لكني لم أر قط قاضيا بمثل هذا التعصب والتسلط والعنف كما رأيت في هذا القاضي.

يمنح النظام القضائي الأنجلو ساكسوني للمتهم الكثير من الضمانات أكثر مما يمنح النظام القضائي الفرنسي، ولكن يكفي أن يكون هناك قاض مثل هيو لوك لكي يتلاعب بالنظام. إنني أتذكر كيف كان لوك يصيح في اتجاهي صارخا: "اخرس" عندما كنت أقوم من على مسافة ودون أن أنبس ببنت شفة، بتمرير وثيقة لدوجلاس كريستي المحامي (هذا النوع من التصرفات لم يسجل في مضبطة المحكمة).

ومن بين الانفجارات العديدة للقاضي سأذكر فقط تلك المتعلقة بموضوع المتر المربع، فمن أجل أن نجعل القاضي يفهم استحالة وضع من 28 إلى 32 شخصا في مساحة متر مربع واحد (وهو ما شهد عليه كيرت جيرشتاين) أحضرنا أربعة عصي يبلغ طول كلّ واحدة منها مترا واحدا، وكنا نعتزم دعوة من 28 إلى 32 شخصا للوقوف وسط المربع الذي تصنعه الأضلع الأربعة، لكن القاضي انتفض صائحا إن تصرفنا هذا هو تصرف مهين للمحكمة، ومنعنا من القيام بما كنا ننوي القيام به، مضيفا ملحوظة يجدر بي أن أذكرها

بالحرف: "قبل أن أسمح للمحلفين بقبول موضوع المتر المربع، يجب أن أستمع (في غياب المحلفين) إلى الكثير من الشهود الذين قاموا بتدقيق قياس هذه العصي".

وقد أغضبت إحدَى الطرق التي لجأنا إليها خصومنا كما أغضبت القاضي، وكانت طريقة ماديَّة تمامًا. لقد كان لدينا الكثير من الخرائط والتصميمات لمعسكرات الاعتقال بما في ذلك صور فوتوغرافيَّة ملتقطة من الجو بواسطة الحلفاء. وكان لدينا الكثير جدا من الصور، أساسا بفضل الباحث السويدي ديتليب فيلدرر الذي يعرف كلّ بقعة من بقاع معسكري أوشفتز وماجدانيك. وكان هناك الكثير من الوثائق الفنيَّة عن الحرق في الهواء الطلق أو داخل المحارق، عن غاز زيكلون ب، وعن غرف التعقيم بالغاز. أنا نفْسي أحضرت معي خمس حقائب مليئة بالكتب والوثائق إلى تورنتو لكنني كنت مجرد باحث واحد فقط من بين الكثيرين الذين دعاهم زوندل من أماكن مختلفة من العالم.

لقد تصرف القاضي بطريقة تعيق جهودنا. وعلى سبيل المثال، فقد أنكر على حقي في الحديث عن غاز "زيكلون ب" والصور الجويَّة ومباني المحارق التي يُعتقد أنَّها كانت تحوي غرف غاز في أوشفتز وكنت أول شخص في العالم يقوم بنشر تصميمات تلك المباني لكي أثبت في الوقت نفْسه أن "غُرَف الغَاز" المزعومة لم تكن في الحقيقة إلَّا مجرد غرف لحفظ الجثث. وقد تمكن زوندل من صنع "ماكيت" ضخم لهذه

التصميمات لعرضه على المحكمة، لكن هنا أيضًا تدخل القاضي ومنعنا من عرض الماكيت الذي صنعه رجل محترف. والأهم من هذا أن القاضي منعني من الحديث عن غُرَف الغَاز التي تستخدم في الولايات المتحدة لإعدام السجناء قائلاً إنه لا يَرى علاقة بينها وبين وموضوع القضيَّة.

ورغم كلّ المعوقات التي وضعها القاضي في طريقنا فقد تمكنا من إسقاط شهادة الخبير راؤول هيلبرج وشهادة رودلف فيربا.

انعدام كفاءة خبيرهم الأول راؤول هيلبرج

ولد راؤول هيلبرج في فيينا عام 1926م وهو من أصل يهودي. وقد حصل على الدكتوراه في القانون عام 1955م. ولم يدرس هيلبرج التاريخ مثل كثير من المشتغلين بالكتابة من المراجعين والإباديّين الذين كتبوا عن الهُولُوكُوسْت. وقد عينه الرئيس الأمريكي الأسبق جيمي كارتر عضوا في مجلس إحياء ذِكْرَى الهُولُوكُوسْت. وهو عضو في اتحاد الدراسات اليهوديَّة ومؤلف الكتاب المرجعي "تدمير اليهود الأوروبيين" (1961م) The Destruction of the European Jews وقد صدرت الطبعة الثانية من هذا الكتاب عام 1985م بعد عدة أشهر من شهادة مؤلفها أمام المحكمة في قضيَّة زوندل. ولهذه النقطة في حد ذاتها أهميَّة خاصة سأعود إليها فيما بعد.

وصل راؤول هيلبرج إلى تورنتو باعتباره خبيرا تسبقه شهرته دون أن يحمل معه كتبا أو ملاحظات أو وثائق، واثقا من نفْسه تمامًا، كرجل اعتاد الإدلاء بشهادته في محاكمات عديدة ضِدَّ "مجرمي الحرب". وقد استغرقت شهادته عدة أيام، وكان يحصل على 150 دولارا في الساعة.

وردا على سؤال لممثل الادعاء، أخذ هيلبرج يصول ويجول متحدثا باستفاضة عن نظريته في إبادة اليهود مؤكدا أن الألمان قاموا بتنفيذ خطة مسبقة، وأنهم استخدموا "غُرَف الغَاز" وأن العدد الكلّي للضحايا اليهود بلغ خمسة ملايين ومائة ألف يهودي.

وبمجرد أن بدأ محامي الدفاع يوجه إليه الأسئلة، بدأ هيلبرج يفقد قُدْرته، فقد وجد نفْسه للمرة الأولى في حياته مضطرا للتعامل مع متهم قرر الدفاع عن نفْسه وكان مؤهلاً بالفعل للقيام بذلك. وأخذ المحامي دوجلاس كريستي . وكنت أجلس بجواره . يوجه الأسئلة إلى هيلبرج بقوة ودون رحمة لعدة أيام. وكانت أسئلته دقيقة ومحددة وغير مترددة. وحتَّى ذلك الوقت كنت أكن بعض الاحترام لهيلبرج بسبب إنجازه من الناحيَة الكميَّة وليس الكيفيه، وعلى أي حال فقد كان في أبحاثه أرقَى كثيرا من بولياكوف وويللرز وكلارسفيلد وغيرهم. وعندما بدأ في الإدلاء بشهادته، أخذ احترامي النسبي له يتضاءل ويحل محله شعور بالضيق والشفقة: الضيق لأن هيلبرج لجأ بإصرار إلى تفادي

الإجابة المباشرة على ما كان يُطرح عليه من أسئلة، والشفقة لأن المحامي كريستي كان ينهي كلّ جولة بتسجيل نقطة ضِدّه.

وعلى أي حال، كانت الخلاصة أن هيلبرج لم يكن بأي حال كما وصف نفْسه "خبيرا يتعامل مع المعطيات الماديَّة" بل أبعد ما يكون عن ذلك. لقد كان رجلاً تبخرت أفكاره في السحب، أشبه ما يكون برجل لاهوتٍ شيَّد حول نفْسه عَالَمًا فكريًا لا مكان فيه للحقائق الماديَّة. إنه بروفيسور أكاديمي للغاية، ومؤرخ "ورقي" مثل فيدال ناكيه. لقد بدأ يتلعثم في الكلام من السؤال الأول. وأعلن المحامي كريستي أنه سيقرأ عليه قائمة بأسماء معسكرات الاعتقال الألمانيَّة ثم يسأله أي منها قام بفحصه وكم مرة فعل ذلك. وهنا كشف هيلبرج أنه لم يقم بفحص أي معسكر منها سواء قبل أو بعد نشر الطبعة الأولى من كتابه الكبير عام 1961م، ولا حتَّى أثناء الإعداد للطبعة الثانية من الكتاب عام 1985م.

لقد كنا أمام رجل بدأ البحث في تاريخ الهُولُوكُوسْت عام 1948م، دون أن يكلف نفْسه ولو لمرة واحدة بفحص معسكر واحد من تلك المعسكرات خلال سبعة وثلاثين عاما. لقد قام فقط بزيارة اثنين منها هما: أوشفتز. بيركناو وتريبلنكا في عام 1979م (يوم واحد في تريبلنكا وربما نصف يوم في أوشفتز ونصف يوم في بيركناو، من واقع مضبطة الجلسة صفحة 779)، وقد كانت زيارته لحضور احتفال. ولم تدفعه حتَّى الرغبة في حب الاستطلاع لفحص المباني

نفْسها أو الاطلاع على وثائق معسكر أوشفتز. ولم يسبق له زيارة الأماكن التي توصف بأنها "غرف غاز" (مضبطة الجلسة صفحة 771- 773 و 822- 823). وعندما طُلب منه شرح الخرائط والصور الفوتوغرافيَّة والرسوم التخطيطيَّة للمحارق، رفض هيلبرج قائلا:

"إذا كنتم ستعرضون على خرائط للمباني وصورا ورسوما تخطيطيَّة، فليست لَديَّ الكفاءة لفحص هذه الأشياء كما أستطيع فحص الوثائق المكتوبة" (مضبطة الجلسة سفحة 826).

بعد ذلك وجه المحامي كريستي سؤالاً إلى هيلبرج عن المعسكرات التي يُزعم أنَّها كانت تضم غرف غاز، وأخذ كريستي يقرأ عليه أسماء المعسكرات طالبا منه أن يقول في كلّ مرة ما إذا كان كلّ معسكر منها يحتوي على غُرفَة غاز أو أكثر. وكان يجب أن تكون الإجابة سهلة بالنسبة لخبير بارز مثله، ولكن هنا ومرة أخرى، فقد هيلبرج قُدْرته. لقدْ أضاف إلى المعسكرات التي تحتوي أو لا تحتوي على غرف غاز، نوعين آخرين من المعسكرات قال إن أولها "ربما" كان يحوي غرف غاز (داخاو وفلوسنبرج ونيوننحام وشاسنهاوزن)، ونوع ثان كان يحتوي على "غرف غاز صغيرة جدا لدرجة أنه لا يَرى جَدوَى من تحمل مشقة الحديث عنها" (صفحة 896). ولم يفصح عن المعطيات التي دفعته إلى تمييز هذه الأنواع الأربعة من المعسكرات.

ثم سُئل هيلبرج ما إذا كان مدركا لوجود أي تقرير لخبير يؤكد أن مثل هذه المنشآت كانت بالفعل غرف غاز للقتل الجماعي. ولكنه صمت تمامًا في البداية، ثم أخذ يتهرب من الإجابة مرددا إجابات أبعد ما تكون عن السؤال. وأصبحت الطريقة التي يلجأ إليها في التهرب من الاجابة واضحة حتَّى للقاضي لوك. وكان القاضي عادة ما يسرع إلى نجدة الادعاء، لكنه شعر أنه مضطر لمقاطعة الشاهد وأمره بالإجابة على السؤال مباشرة. وعندئذ فقط جاءت إجابة هيلبرج دون مزيد من اللف والدوران، فقال إنه لم يسمع عن وجود أي تقرير من هذا النوع. وتستغرق الفترة منذ أن وجه إليهالمحامي هذا السؤال المحرج إلى أن أجاب هيلبرج عنه، 14 صفحة من مسودة الجلسة.

وردا على سؤال عما إذا كان هيلبرج على علم بوجود أي تقرير للطب الشرعي أُجرِيَ على أي جثة من جثث السجناء لإثبات القتل بالغاز السام، جاءت الإجابة مرة أخرى بالنفي.

ولأن هيلبرج اعتمد في نظريته كثيرا على شهادات الشهود، فقد وجه له المحامي أسئلة حول شهادة كيرت جيرشتاين. وقال هيلبرج إنه لم يعتمد في كتابه على هذا الضابط الألماني على الاطلاق، فرد عليه المحامي بأنه في كتابه "تدمير اليهود الأوروبيين" أورد إسم جيرشتاين 23 مرة وأنه اعتمد 10 مرات على الوثيقة رقم 1553 التي تتضمن شهادة جيرشتاين المزعومة. وأخذ المحامي يقرأ أمام المحلفين أجزاء من

تلك الشهادة، فاضطر هيلبرج أخيرًا إلى الإقرار بأن بعض الأجزاء في شهادة جيرشتاين "محض هراء".

وتكرر الأمر عند التعرض لشهادة رودلف هيس Hoes القائد السابق لمعسكر أوشفتز. واضطر هيلبرج إلى الإقرار بأن الشهادة "مروعة" وقال هيلبرج عن واحدة من أهم "الاعترافات" التي وقعها هيس: إننا هنا أمام رجل يدلي باعترافات في لغة (هي الإنجليزيَّة) ليست لغته الأصليَّة (الألمانيَّة) وهي شهادة مستحيلة تمامًا ويبدو "أنَّها تلخيص لأشياء قالها أو ربما يكون قد قالها أو يعتقد أنه ذكرها، أمام شخص كان موجودا أمامه ثم وقّع هو عليها، وهو أمر يؤسف له".

أما فيما يتعلق بما ورد في تلك "الشهادة" من أن عدد الضحايا اليهود الذين قتلوا في "غُرَف الغَاز" في أوشفتز يبلغ مليونين ونصف مليون شخص، فقد قال هيلبرج إن من الواضح أن هذا الرقم لا أساس له، وإنه مبالغ فيه كثيرا، وربما يكون قد ذاع أو انتشر نتيجة لبعض النتائج الخاطئة التي توصلت إليها لجنة التحقيق البولنديَّة الروسيَّة في أوشفتز (مسودة الجلسة، صفحة 1087).

وفي محاولة للحفاظ على مصداقيته، اتفق هيلبرج مع المحامي كريستي على أن بعض المؤرخين مثل وليم شيرر (مؤلف كتاب "صعود وسقوط الرايخ الثالث"- المترجم) لا قيمة لهم على الإطلاق.

بعد ذلك سُئل عن رأيه في شهادة فيليب موللر مؤلف كتاب "شاهد عيان على أوشفتز: ثلاث سنوات في غُرَف الغَاز". وقرأ عليه كريستي بعض الفقرات من الكتاب تمتلئ بالخيالات الجنسيَّة المنحطة عن النازيين، ثم استعرض كريستي أمام المحلفين، استنادًا إلى اكتشافات الباحث المراجع كارلو ماتوجنو، كيف ثبت أن فيليب موللر و كاتبه الخفي هيلموت فريتاج مزورين، فقد قاما بالنقل الحرفي من كتاب "طبيب في أوشفتز"، وهو عبارة عن شهادة أخرى مزورة تحمل اسم ميكلوس نيزلي. عند هذه النقطة، قام هيلبرج فجأة بتغيير تكتيكه، فقد تظاهر بالانفعال، وأعلن في نغمة صوت مثيرة للرثاء، أن شهادة فيليب موللر كانت مؤثرة للغاية بحيث لم تدع مجالاً للشكّ في حقيقتها. لكن كلّ شيء فيما يتعلق بهيلبرج الجديد هذا بدا زائفا، فقد كان يعبر عن نفْسه حتَّى هذه اللحظة بصوت رتيب وبحذر القط الذي يخشَى الاقتراب كثيرا من النار. ولم يجد كريستي من الضروري أن يضغط كثيرا على هذه النقطة.

وقد واجه هيلبرج صعوبة شديدة في الإجابة عن سؤالين، السؤال الأول حول الأوامر المفترضة التي أصدرها هتلر لإبادة اليهود، والسؤال الثاني حول ما أعتبره أنا "حجر الأساس في نظريَّة هيلبرج". في صفحة 177 من كتابه (طبعة 1961م)، يصل هيلبرج إلى جوهر الموضوع، أي سياسة إبادة اليهود. وفي الصفحة التي يتخذها مقدمة عامة للموضوع، يستعرض هيلبرج أساس نظريته، فهو يَرى أن

كلّ شيّء بدأ بصدور أمرين من هتلر على التوالي: الأمر الأول دعا إلى قتل اليهود في أماكن تواجدهم خاصة في روسيا، والأمر الثاني أباح اعتقال اليهود وترحيلهم إلى معسكرات إبادة (وكان هذا دور أيخمان ورجاله). ولم يوضح هيلبرج تاريخا دقيقا، ولا المصادر التي اعتمد عليها في إثبات وجود هذين الأمرين. ومن جهة أخرى، فقد حدد تاريخا معينا (هو الخامس والعشرين من نوفمبر 1944م) ومصدرا محددا (هو الوثيقة 3762) للأمر الذي أصدره هنريخ هملر بوقف إبادة اليهود بعد أن أدرك أن هزيمة ألمانيا تلوح في الأفق ("تدمير اليهود الأوروبيين" صفحة 631). وكان يمكن أن تصبح فرضيَّة هيلبرج صحيحة إذا كان قد ثبت أن هذا الأمر له وجود. ولكن لم يوجد أي أثر لهذه الأوامر الثلاثة (أمران من هتلر وأمر من هملر). لقد تأسست فرضيَّة هيلبرج على الاستنتاج الذهني.

وكان على المحامي كريستي أن يحاصر هيلبرج بالأسئلة قبل أن يتراجع في النهاية عن شهادته ويعترف بعجزه عن إثبات وجود هذه الأوامر. وقد استغرق الأمر 31 صفحة من مسودة الجلسة، من النقطة التي سُئل عندها هيلبرج عن وجود الأمرين المزعومين من هتلر إلى أن خسر المعركة بإقراره بعدم وجود أي أثر لهما. وقد أعاد كريستي أيضًا إلى ذاكرة هيلبرج ما كان قد أدلي به من قبل من بيانات في فبراير 1983م في قاعة أفري فيشر في مدينة نيويورك.

وكان هيلبرج قد اخترع هناك نظريَّة لا يمكن أن تتسق مع وجود أمر بالإبادة. فقد قال في ذلك الوقت:

"ولكن ما بدأ عام 1941م كان عمليَّة تدمير لم يُخطط لها مقدما، ولم تتول تنظيمها مركزيا أيَّة وكالة. لم تكن هناك أي خطة مكتوبة أو ميزانيَّة للإجراءات التدميريَّة. فقد تم تنفيذ الأوامر تدريجيا خطوة خطوة. وبالتالي لم يكشف الأمر عن خطة للتنفيذ ولكن عن تلاقٍ للعقول على نحو مدهش، اجماع عقلي أو تخاطر بين عقول البيروقراطيين المخلصين" (نيوسداي، لونج أيلاند، نيويورك، 23 فبراير 1983م).

هذا التفسير الملتوي يغرقنا في اللاهوتيَّة والتخاطر العقلي. وطبقا لهذه النظريَّة فقد تمت إبادة اليهود وهي عمليَّة هائلة. دون خطة ودون أي كيان بيروقراطي مركزي ودون ميزانيَّة، ولكن عن طريق قراءة إجماعيَّة للعقول أو للتفكير من طرف البيروقراطيَّة الموغلة في إخلاصها، في حين أن المرء في تصوري يمكن أن يتوقع أي شيّء من الآلة البيروقراطيَّة فيما عدا اعتمادها على التخاطر العقلي أو على قراءة التفكير.

أما بالنسبة للأمر الصادر من هملر، فقد اعترف هيلبرج أيضًا أنه لم يبق منه أي "أثر" (مسودة الجلسة، صفحة 860). أما التاريخ المحدد الذي ذكره، فلم يكن أكثر من محاولة لإهانة ذكاء القارئ.

ولكن ماذا يمكن القول عن "حجر الأساس في النظريّة"؟

في كتاب "خدعة القرن العشرين" كتب أرثر بوتز يقول: "لقد لجأ كتاب هيلبرج إلى شيّء لم تكن لتلجأ إليهقط المعارضة [يقصد الأدبيات المراجعة]. لقد أصبحت مقتنعا، ليس فقط بأن أسطورة إبادة ملايين اليهود في "غُرَف الغَاز" ما هي إلّا خدعة، ولكنني توصلت إلى "إحساس" يمكن الاعتداد به، بالعقليّة القبلانيّة الصوفيّة التي منحت الأكذوبة رداءها الخاص (وعلى الذين يرغبون في المرور بتجربة "الوعي الفظ" كما مررت بها، مراجعة الصفحات من 567- 571 في كتاب هيلبرج" (خدعة القرن العشرين، صفحة 7).

يلفت أرثر بوتز نظرنا إلى تلك الصفحات من كتاب هيلبرج التي تمثل قلب نظريته. وقد قمت بدوري بالبحث في "قلب القلب" أو في "حجر الأساس" في ذلك البناء العقلي القبلاني وأعتقد أنني قد عثرت عليه في أعلى الصفحة 570 التي جاء فيها:

"إن كميات غاز زيكلون ب المطلوبة من طرف معسكر أوشفتز لم تكن كبيرة ولكنها كانت كميات ملحوظة. وكانت كلّ الكميات المتوفرة في أوشفتز مطلوبة للاستخدام في خنق الناس، واستخدمت كميّة صغيرة جدا للتطهير. ولم تكن إدارة المعسكر تقوم بنفْسها بشراء الغاز بل كانت توكل تلك المهمة إلى الضابط جيرشتاين

المسؤول عن قسم التعقيم في مكتب رئيس الوقاية الصحيَّة، وكانت الشركة المنتجة للغاز (دساو) تشحن الغاز مباشرة إلى قسم الإبادة والتعقيم في أوشفتز".

في هذه الفقرة يقول هيلبرج بوضوح إنه كان هناك استخدامان للغاز في أوشفتز: أولاً لقتل البشر، وثانيا لتعقيم الأشياء، وكان قسم واحد يدير هذين الفرعين: الأول إجرامي والثاني وقائي، وكان هذا القسم يحمل اسما واحدا يترجمه هيلبرج "قسم الإبادة والتعقيم". وبمعْنَى آخر، أن الألمان لم يخفوا سر إبادة البشر بالغاز في أوشفتز طالما أنهم قاموا بتجهيز مكتب في المعسكر للقيام بهذا النشاط الإجرامي. هناك فقط مشكلة واحدة في هذا الكلام، فكلمة Entwesung لا تعني الإبادة البشريَّة بل "التعقيم". وعندما واجهناه بذلك في المحكمة بعد أن استعنا بعدد من القواميس، ارتكب هيلبرج خطأ عندما حاول التمسك بترجمته للكلمة والتدليل على صحتها. وعندما بدأ ممثل الادعاء في استجوابه، احضر هيلبرج قاموسا ألمانيا لاثبات أن كلمة Entwesung معناها الإبادة بغرض تشويه علم دراسة أصل الكلمات (الاتيمولوجيا). وقد جعلت محاولاته هذه ممثل الادعاء جريفيث يشعر بالضيق من شاهده المبجل الخبير وتحايلاته المضنية التي وصلت إلى حد استعانته بقاموس لا توجد فيه كلمة Entwesung ولكن فقط كلمة Wesen

وبعد فترة قصيرة من المحاكمة اكتشفت أن هيلبرج ارتكب شهادة الزور، فقد تجرأ على القول أمام القاضي وهو لا يزال تحت القسم في يناير 1985م، إنه أبقي في الطبعة الجديدة من كتابه (وكان وقتها في المطبعة)، على وجود تلك الأوامر التي صدرت من هتلر بعد أن كان قد اعترف لتوه بأنه لا يوجد لها أثر. لكنه كذب، ففي الطبعة الجديدة في المقدمة الموقعة بتاريخ سبتمبر 1984م (وكانت شهادته في يناير 1985م) قام بحذف أي أثر لأي أمر صادر من هتلر، وقد أشار إلى ذلك صديقه وزميله كريستوفر براوننج في مقال عرض فيه للطبعة الثانية من الكتاب بعنوان "هيلبرج المنقح" (حوليَّة معهد سيمون فيزنتال، 1988م، صفحة 294):

"لقد حذفت من الطبعة الجديدة أي إشارة وردت من قبل في الكتاب حول صدور قرار و أمر من هتلر بـ "الحل النهائي". وظل هناك هامش واحد صغير يقول: "يشير تعاقب الأحداث والظروف إلى صدور قرار من هتلر قبل نهاية صيف 1941م".

في الطبعة الجديدة لم تكن هناك قرارات اتخذت ولا أوامر صدرت. هذه الحقيقة مهمة، فهي تثبت أنه للرد على إرنست زوندل (الذي تقوم فرضيته على عدم وجود أمر من هتلر أو من أي شخص آخر بإبادة اليهود) لم يتورع أستاذ جامعي عن اللجوء إلى الكذب وشهادة الزور. هذه هي نوعيَّة رجل مثل راؤول هيلبرج، الأستاذ

الجامعي والباحث الذي سيصبح عليه في السنوات التالية أن يواجه "فشل عمره".

نزع القناع عن شاهدهم الأول: رودلف فيربا

الشاهد رودلف فيربا معروف على المستوى العالمي. إنه اليهودي السلوفاكي الذي سجن في أوشفتز وبيركناو وزعم أنه هرب من معسكر بيركناو في أبريل 1944م مع ألفريد فيتزلر. وعندما عاد إلى سلوفاكيا قال إنه كتب تقريرا عن أوشفتز وبيركناو وعن المحارق وغُرَف الغَاز الموجودة هناك.

وبمساعدة السلطات اليهوديَّة في سلوفاكيا والمجر وسويسرا، وصل التقرير إلى واشنطن حيث استخدم كأساس للتقرير المعروف باسم "تقرير مجلس لاجئي الحرب" الذي نشر في نوفمبر 1944م. وقد استخدمت نسخة من هذا التقرير الرسمي والمزيف لتاريخ المعسكرات من جانب، كلّ المنظمات التي قامت بتعقب "مجرمي الحرب" وكلّ ممثلي الادعاء من الحلفاء الذين تكفلوا بمحاكمة "مجرمي الحرب". إن رودلف فيربا ورفيقه ألفريد فيتزلر هما أصل وأساس التسليم الرسمي بأسطورة أوشفتز. وقد استعرض أرثر بوتز هذا الدور ببراعة مثيرة للإعجاب في كتابه "خدعة القرن العشرين".

وبعد الحرب، أصبح فيربا "مواطنا بريطانيًا"، وأصدر كتابه الأول الذي يروي فيه قصة حياته تحت عنوان "لا يمكنني أن أسامح" عام

1964م، لكن المؤلف الحقيقي للكتاب هو ألان بيستيك الذي يتجرأ في مقدمة الكتاب على توجيه التحيَّة لفيربا "للمشقة الكبيرة التي عاناها أثناء قيامه بتدقيق كلّ نقطة في الكتاب، وللاحترام الشديد بل والمتطرف الذي أبداه للدقة" (صفحة 2).

وفي الثلاثين من نوفمبر 1964م قدم فيربا شهادته أمام محكمة فرانكفورت (محاكمة المسؤولين في معسكر أوشفتز). وبعد ذلك استقر في كندا وحصل على الجنسيَّة الكنديَّة. وقد ظهر في أفلام تسجيليَّة كثيرة عن أوشفتز وخاصة فيلم "شوا" لكلود لانزمان. وهو يعيش حاليا في فانكوفر حيث يعمل أستاذا منتدبا لعِلم الأدويَة (الفارماكولوجيا) في جامعة كولومبيا البريطانيَّة.

وقد ظل الحظ يبتسم لفيربا إلى أن جاء اليوم الذي واجه فيه المحامي دوجلاس كريستي. وقد زودنا كتاب أرثر بوتز ببعض العناصر الممتازة التي تصلح أساسًا لاستجواب فيربا من طرف كريستي. وقد أتاحت الوثائق التي في حوذتي (خصوصا مفكرة الأحداث في معسكر أوشفتز، والدراسات التي تحتويها مجلدات مختلفة عن أوشفتز، وكتاب كلارسفيلد "مذكرات ترحيل اليهود من فرنسا" ووثائق أخرى متنوعة من أرشيف متحف أوشفتز) أتاحت لنا توجيه أسئلة محرجة لفيربا. وقد انكشف القناع عن تزوير فيربا في ثلاث نقاط أساسيَّة هي: معرفته المزعومة بغُرَف الغَاز والمحارق في بيركناو، وزيارة هملر المزعومة إلى بيركناو في يناير 1943م لافتتاح محرقة

جديدة تستطيع في أعلى معدلاتها قتل 3000 شخص بالغاز في وقت واحد، والرقم المزعوم للضحايا اليهود في "غُرَف الغَاز" في بيركناو الذي يُقَدِّره فيربا بنحو مليون وسبعمائة وخمسين ألف شخص في الفترة من أبريل 1942م إلى أبريل 1944م.

فيما يتعلق بالنقطة الأولى، أصبح واضحا أن الشاهد لم يسبق أن وطأ بقدميه المحارق أو "غُرَف الغَاز" التي قدم لها خريطة مزيفة تمامًا في تقريره إلى مجلس لاجئي الحرب (في نوفمبر 1944م)، وهي خريطة أصر عام 1985م على الزعم بأنَّها حقيقيَّة غير أنَّها أبعد ما تكون عن الحقيقة، سواء فيما يتعلق بما ورد فيها عن موقع الغرف ومساحاتها وعدد الأفران، أوغير ذلك. وعلى سبيل المثال، يضع الشاهد "غُرفَة الغاز" والغُرفَة التي تحتوي على أفران الحرق في مستوى واحد، مع رسم تخطيطي للخط الحديدي الذي كانت تمر عليه العربة المسطحة التي تنقل الجثث من الغُرفَة الأولى إلى الثانية. لكن الحقيقة أن افران المحارق كانت تقع في الطابق الأرضي بينما كانت "غُرَف الغَاز" (وهي في الواقع غرف لحفظ الجثث) تقع تحت الأرض، ولا يمكن بالتالي أن يربط خط حديدي بين غُرفَة تحت الأرض وغُرفَة على سطح الأرض.

وفيما يتعلق بالنقطة الثانية، قام فيربا أيضًا باختراع كلّ شيّء. فزيارة هملر الأخيرة إلى بيركناو حدثت في يوليو 1942م، وفضلاً عن ذلك ففي يناير 1943م كان أمام غُرفَة المحرقة الجديدة في

بيركناو وقت طويل قبل أن تصبح جاهزة (ولدينا وثائق من المهندسين المسؤولين عن التشييد تستعرض مشاكل البناء بسبب برد الشتاء القارس). ويبدأ كتاب فيربا بالزيارة المزعومة التي يقول إنَّها وقعت عام 1943م، ويصفها بمزيد من التفصيل، بل ويتعرض حتَّى لرد الفعل وللمحادثات التي دارت بين هملر ومساعديه. لكن كلّ هذا أيضًا مستمد من خيال فيربا الشخصي.

ورغم هذا، فقد أبدي الشاهد تماسكا استثنائيا. لقد زعم أنه كان شاهد عيان، ليلاً ونهارًا، على ما وقع في معسكر بيركناو الشاسع، وأنه شاهد كلّ شيّء، وأنه يتذكر كلّ شيّء بفضل ما يتمتع به من "طرق خاصة لتقويَّة الذاكرة" على حد تعبيره، وقُدْرته الخاصة على التواجد في كلّ مكان في وقت واحد.

وطبقا لفيربا، فقد قتل الألمان بالغاز نحو مليون و650 ألف شخص في بيركناو فقط خلال 25 شهرا (من أبريل 1942م إلى أبريل 1943م)، من بينهم حوالي 150 ألف يهودي من فرنسا. لكن سيرج كلارسفيلد في كتابه "في ذكْرَى ترحيل اليهود من فرنسا" اضطر على الإقرار بأنه طوال سنوات الحرب، قام الألمان بترحيل 75 ألف و721 يهودي من فرنسا (من اليهود الفرنسيين والأجانب والذين لا يحملون جنسيَّة). وقد طُلب من فيربا أن يشرح على أي أساس جاء تقديره للعدد الذي ذكره (أي 150 ألف) وتقديزه العام الذي يصل إلى شخص. وقد بدأ بالقول إن رقم الـ 75 ألف و721

هو رقم زائف، موجها السؤال للمحامي كريستي: "من أين أتيت بهذا الرقم؟ من الصحف النازيَّة؟". لكن الرقم جاء من سيرج كلارسفيلد صياد النازيين. وحاول بعد ذلك أن يقدم تبريرا للأرقام التي أوردها ولكن دون إقناع كما سنَرَى لاحقا. ورغم جرأته، فقد اضطر فيربا إلى التراجع المخزي بشأن ما ورد في كتابه. وبدلاً من الإصرار على أنه في كتابه أبدي تمحيصا شديدا متوخيا أقصى درجات الدقة، أعلن أن الكتاب كان مجرد جهد أدبي لجأ فيه إلى "رخصة الشاعر"، أي ما يجوز للشعراء. وهنا نص التعبيرات التي استخدمها:

"صورة فنيَّة، محاولة للوصف الفني، مقال أدبي، محاولة فنيَّة، قطعة فنيَّة في الأدب، أدب، فنان، رخصة شاعر، ما يجوز للشاعر" (محضر الجلسة، الصفحات 1392، 1446- 1448).

باختصار، كان استجواب الدفاع للشاهد رقم واحد في القضيَّة كارثة للادعاء. لقد انتظرنا بترقب لكي نَرَى كيف سيحاول ممثل الادعاء جريفيث خلال استجوابه لفيربا، علاج الشرخ الذي أحدثه استجواب الدفاع له وإصلاح صورة شاهده الأول. ولدهشة الجميع، أنهى جريفيث استجوابه للشاهد بعد سؤالين فقط، ربما بسبب إحساس جريفيث بالإجهاد من طول المحاكمة ومن الأكاذيب التي صدرت عن الشاهد الذي كان يعول عليه كثيرا. وكان سؤاله الأول الذي أنصت إليهاالحاضرون جميعا- كالتالي:

لقد ذكرت للسيد كريستي عدة مرات عند مناقشة كتابك وهو بعنوان "لا يمكنني أن أسامح" أنك سمحت لنفْسك باستخدام ما يجوز للشاعر وأنت تكتب كتابك. هل كنت تستخدم ما يجوز للشاعر وأنت تدلي بشهادتك هنا؟".

وغمغم فيربا مستاءًا. ثم جاء السؤال الثاني على الفور ودون انتظار للإجابة:

"هل تستطيع أن تخبرنا يادكتور، باختصار، كيف وصلت إلى رقم الـ المليون و650 ألف؟

ولكي نستوعب بالكامل السؤال في سياقه وأيضًا استخدام كلمة "باختصار"، يجب أن نشير إلى أن دوجلاس كريستي وجه إلى فيربا السؤال نفْسه في مواقف عديدة، وأن كلّ محاولة من محاولاته للإجابة كانت طويلة جدا ومشوشة وعبثيَّة، وأحيانًا أيضًا مضحكة، دون قصد منه بالطبع. وفي إجابته على سؤال جريفيث لم يملك فيربا إلَّا أن يكرر نفْسه:

"لقد قمت باستنباط طريقة خاصة في تقوية الذاكرة ساعدتني على تذكر كلّ عمليات الترحيل بالقطارات".

وأعلن جريفيث التائه بين أوراقه ووثائقه، أنه سيوجه لشاهده سؤالاً أخيرًا عن زيارة هملر. وطلب رفع الجلسة للاستراحة، وعندما عادت الجلسة للانعقاد، اتخذ فيربا مكانه في منصة الشهود التي

توجد بين القاضي والمحلفين في انتظار عودة المحلفين إلى القاعة لكي يواجه السؤال المتعلق بزيارة هملر. وهنا قال جريفيث وهو يتطلع إلى القاضي:

"قبل أن يعود المحلفون ياسيادة القاضي، أود أن أعلن أنني لن أوجه مزيدا من الأسئلة للدكتور فيربا".

ودُهش كلّ من في القاعة، وبدا فيربا وقد سحق تمامًا وشحب لونه. لقد تجمع حوله في اليوم الأول الصحفيون وأطقم التصوير التليفزيوني باعتباره الشاهد الذي سيلقن المراجعين درسا قاسيا، أما في اليوم الأخير، فقد غادر مبني المحكمة وهو يشعر بعزلة مخيفة. إنني لا أشعر بالشفقة للسيد فيربا، فقد كان يتمتع بغرور المزور المحترف، وسوف يرفع رأسه مرة أخرى ويعود مجددا إلى ترديد أكاذيبه. إنني على ثقة من ذلك.

هزيمة وانتصار إرنست زوندل

لقد تحولت المحاكمة لصالحنا. وأنا لا أريد أن أقول إن المحلفين في هذا الوقت كانوا سيقومون بتبرئة زوندل، فقرار مثل هذا يُتخذ امام القاضي والصحفيين والرأي العام، كان يتطلب نوعا من الشجاعة التي يصعب توفرها في مجموعة مكونة من اثني عشر شخصا اختيروا بشكل عشوائي من مجتمع تعرض طويلاً للدعاية المألوفة عن "جرائم النازيّة" طوال الأربعين عاما الماضية. لكن الإعياء كان قد بلغ مبلغه

بممثل الادعاء جريفيث، ثم جاء الشهود والخبراء الذين شهدوا لصالح الدفاع. وأصبح جريفيث أكثر اضطرابا، فهو لم يكن يتوقع كلّ هذا الزخم في المعلومات من جانب المراجعين. وكان القاضي لوك في حالة غضب دائم، وقد هدد بأنه في نهاية المحاكمة سيوجه الاتهام إلى المحامي كريستي بازدراء المحكمة. وظل سيف ديموقليدس هذا مسلطًا على رقبة المحامي حتَّى اليوم الأخير. ثم تحول التيار مرة أخرى لصالح الاتهام. وقرر دوجلاس كريستي أن يطلب شهادة زوندل نفْسه. وكان ذلك خطأ من جانب كريستي، فقد أتاح بذلك الفرصة لجريفيث لاستجواب زوندل ولاحت كارثة في الأفق.

كان زوندل بلا شكّ جديرا بالإعجاب، ولكنه أدان نفْسه برفضه إدانة "الاشتراكيَّة الوطنيَّة". لقد تم التغاضي عن معارف زوندل الواسعة وبلاغته وصدقه وآرائه العميقة، وتوقف المحلفون فقط أمام ما أبداه من إعجاب لأدولف هتلر وتعاطفه مع وطنه ألمانيا الذي أهين وأسيئت معاملته من جانب المنتصرين. وهنا عادت الثقة إلى جريفيث المرهق الضعيف المتوتر الذي كان مجهدا بفعل عدم القُدْرة على النوم والتدخين المتواصل كما علمنا فيما بعد. وفي مرافعته النهائيَّة، وصف جريفيث زوندل بالنازي الخطير. وسلك القاضي لوك في كلمته الأخيرة إلى المحلفين المسلك نفْسه. واستجاب المحلفون وأصدروا قرارهم بإدانة زوندل بتهمة نشر كتيب "هل مات حقا ستة ملايين؟" ولكنهم برأوه من إرسال رسالة خاصة بعنوان

"الغرب والحرب والإسلام" إلى أناس خارج كندا. وحكم عليه بالسجن خمسة عشر شهرا ومنع من الحديث عن الهُولُوكُوسْت.

وفي يناير 1987م، قررت محكمة الاستئناف المكونة من خمسة قضاة نقض الحكم وإلغاء العقوبة الصادرة عام 1985م. وجاء هذا القرار لأسباب أساسيَّة جدا: أن القاضي لوك لم يستمع لرأي للدفاع في اختيار المحلفين، وأنه على نحو غير مناسب، منع الخبراء من استخدام الوثائق والصور الفوتوغرافيَّة ومختلف المواد الأخرى، وأنه في كلمته النهائيَّة ضلل المحلفين فيما يتعلق بالمغزي الحقيقي للمحاكمة.

ومرة أخرى، خسر زوندل والمراجعون أمام القاضي لوك، لكنهم كسبوا أمام التاريخ.

محاكمة زوندل التالية

أقامت الحكومة الكنديَّة الدعوة ضِدَّ إرنست زوندل مرة أخرى عام 1988م. وقد بدأ نظر القضيَّة في 18 يناير 1988م تحت رئاسة القاضي رولاند توماس، وهو فيما يبدو صديق للقاضي السابق لوك. وكان القاضي توماس عادة، غاضبا وعدائيا تجاه الدفاع، ولكنه كان أقل فظاظة من سلفه. وقد فرض قرار القضاة الخمسة على رولاند توماس بعض المحاذير في طريقة تعامله مع الإجراءات، مما جعله يصبح أقل تشددا من سلفه، فقد سمح للدفاع -على سبيل

المثال- بهامش من الحريَّة، ولكنه اتخذ قرارا في بداية المحاكمة يغل أيدي المحلفين بناء على طلب الادعاء.

المذكرة القانونيّة للقاضي توماس

في القانون الأنجلوساكسوني يجب إثبات كلّ شيّء مطروح أمام القضاء، فيما عدا أي شيّء توجد عليه أدلة مطلقة لا تقبل الجدل (مثل أن لندن هي عاصمة المملكة المتحدة، أو أن النهار يعقب الليل.. الخ). لكن من حق القاضي أن يأخذ في الاعتبار الأدلة المتوفرة (بمذكرة قضائيَّة)، بناء على طلب طرف أو آخر من الطرفين المتنازعين.

وقد طلب ممثل الادعاء جون بيرسون من القاضي أن يصدر مذكرة قانونيَّة بشأن الهُولُوكُوسْت، وكان من الضروري بعد ذلك تفسير معْنَى مصطلح الهُولُوكُوسْت، وإذا لم يكن الدفاع قد تدخل لكان من المحتمل أن يتبنى القاضي نفْس التفسير الذي وضع عام 45- 1946م للهُولُوكُوسْت، وفي ذلك الوقت كان المستخدم هو تعبير "إبادة اليهود" (لم تكن كلمة هُولُوكُوسْت قد استخدمت بعد) وهو يتلخص في "وجود خطة منظمة وصادرة بأمر للقضاء على ستة ملايين يهودي، باستخدام "غُرَف الغَاز" أساسا".

وقد واجه الادعاء مشكلة عندما نصح الدفاع القاضي بأنه منذ 45- 1946م توالي التغيير في مفاهيم المؤرخين الإباديّين فيما

يتعلق بإبادة اليهود. أولاً وقبل كلّ شيّء، فقد كفوا عن الحديث عن "إبادة" بل عن "محاولة الإبادة". ثم أقروا أخيرًا أنه "بالرغم من معظم ما بذل من جهود أكاديميَّة (ريمون أرون ومؤتمر السوربون في 2 يوليو 1982م)، فلم يعثر أحد على أي أثر لأمر بإبادة اليهود". وحديثا، وقع خلاف بين "القصديين" و"التوظيفيين"، فالطرفان يتفقان على عدم توفر دليل على وجود نيَّة مسبقة للإبادة، لكن المؤرخين "القصديين" يعتقدون أنه يجب أن يفترض المرء وجود تلك النيَّة، في حين يَرى المؤرخون "التوظيفيون" أن الإبادة جاءت نتيجة لمبادرات فرديَّة متفرقة ومحدودة. وبمعْنَى آخر، أن النشاط هو الذي أدي إلى التنظيم. وأخيرًا جاء الإعلان عن أن رقم الملايين الستة هو رقم "رمزي" ووقعت خلافات كثيرة حول "مشكلة غُرَف الغَاز".

وقد قرر القاضي رونالد توماس الذي أدهشه كلّ هذا الفيض من المعلومات، أن يركن إلى الحذر. واستقر بعد فترة استراحة على التعريف التالي: "أن الهُولُوكُوسْت هو الإبادة أو القتل الجماعي ليهود" على أيدي النازيين. وكان هذا التعريف مثيرا لعدة أسباب: إنه لا يوجد أي دليل على وجود خطة أو أمر أو غرف غاز أو ستة ملايين يهودي أو حتَّى ملايين اليهود. ولذا فإنَّ هذا التعريف يخلو تمامًا من المعْنَى ولا يتفق مع الحقائق. ولا يستطيع المرء أن يفهم معْنَى "القتل الجماعي ليهود" (تحاشي القاضي استخدام كلمة "اليهود").

غير أن هذا التعريف الغريب هو في حد ذاته علامة تقدم على ما حققته المراجعة التاريخيَّة منذ عام 1945م.

راؤول هيلبرج يرفض الظهور مرة أخرى

كان في انتظار الادعاء محنة تتمثل في رفض راؤول هيلبرج الظهور أمام المحكمة كشاهد رغم الإلحاح المتكرر من جانب ممثل الادعاء جون بيرسون. وبعد أن علم الدفاع بالخطابات المتبادلة العديدة بين بيرسون وهيلبرج، طلب إلى المحكمة الحصول على نسخ من هذه الخطابات للاطلاع عليها وأهمها بالطبع خطاب "موثوق" أرسله هيلبرج إلى بيرسون، لم يخف فيه هايلرج أنه لا يزال يحمل ذكريات مريرة من تجربة استجواب دوجلاس كريستي له في عام 1985م، وكان يخشَى أن يعاود كريستي استجوابه حول نفْس النقاط مرة أخرى. وعلى وجه التحديد وبالرجوع إلى نص الخطاب نفْسه، فقد كتب هيلبرج يقول إنه يخشَى "أي محاولة لاصطيادي بإبراز ما قد يبدو تناقضا مهما كان تافها، بين شهادتي السابقة وشهادتي في 1988م". والحقيقة أن هيلبرج كما ذكرت بالفعل، ارتكب شهادة الزور، وربما كان يخشَى تعرضه للمحاكمة نتيجة لذلك.

شاهد الادعاء كريستوفر براوننج

وقد حل محل هيلبرج صديقه كريستوفر براوننج، وهو أستاذ أمريكي متخصص في الهُولُوكُوسْت. وحاول براوننج، الذي قبلت

شهادته أمام المحكمة كخبير (وتقاضي 150 دولارا في الساعة من أموال دافعي الضرائب الكنديين) إثبات أن كتيب هاروود "هل مات ستة ملايين حقا؟" عبارة عن حزمة من الأكاذيب، وأن محاولة إبادة اليهود هي حقيقة مثبتة علميا. ولكن كان هناك من الأسباب ما جعله يأسف للتجربة فيما بعد، فخلال استجوابه من طرف الدفاع، استخدم المحامي ضِدَّه نفْس حجته للقضاء على مصداقيته كشاهد. وخلال تلك الأيام التي قدم خلالها براوننج شهادته، شاهد الناس ذلك البروفيسور الطويل الساذج الذي كان يقف باختيال، بعد أن تضاءل وانزوى منكمشا خلف منصة الشهود مثل تلميذ أخطأ في الامتحان. وبصوت واهن خانع أنهى كلامه بالقول إنه تعلم شيئا جديدا عن البحث التاريخي.

لم يقم براوننج، تمامًا مثل سلفه هيلبرج، بفحص أي معسكر من معسكرات الاعتقال، ولم يقم بزيارة ما يُسمّى بغُرَف الغَاز، ولم يفكر قط في طلب دراسة خبير "لسلاح الجريمة". وقد كتب كثيرا في دراساته عن "شاحنات القتل بالغاز" لكن دون الاعتماد على أي صورة فوتوغرافيَّة أصليَّة، أو أي خريطة أو دراسة تقنيَّة أو أي دراسة لخبير. وهو لا يعرف أن الألمان كانوا يستخدمون كلمات مثل Gaswagen أو Spezialwagen أو Entlausungswagen (شاحنات تعقيم) دون أي دلالات إجراميَّة. إن مفاهيمه العلميَّة معدومة، فلم يسبق أن فحص صور الاستطلاع الجوي التي التقطها طيارو الحلفاء

لمعسكر أوشفتز، وهو لا يعلم بما وقع من تعذيب على ألمان مثل رودلف هيس الذي أرغم على الحديث عن الإعدام بالغاز، ولا يعرف أي شيّء عن الشكوك الكثيرة التي أثيرت حول بعض خطابات هملر أو مذكرات جوبلز.

لقد طرح براوننج، وهو متابع كبير لمحاكمات نورمبرج، تساؤلاته فقط حول ما جاء في عريضة الادعاء، لكنه لم يتطرق أبدا إلى موقف الدفاع، واتضح بجلاء، جهله الفاضح بنصوص محاكمات نورمبرج، بل إنه لم يقرأ قط ما كتبه هانز فرانك، الحاكم الألماني العام في بولندا، الذي قدم شهادته أمام محكمة نورمبرج بشأن ما ورد في "مذكراته الشخصيَّة" وبشأن "إبادة اليهود". والحقيقة أن براوننج زعم أنه عثر على دليل لا يقبل الشكّ على وجود سياسة منظمة لإبادة اليهود في مذكرات هانز فرانك. وقال إنه اكتشف عبارة في المذكرات تدين كاتبها. وهو لا يعرف أن فرانك قدم تفسيرا أمام المحكمة لتلك العبارة التي اختيرت بعناية من بين مئات الآلاف من الجمل التي تضمنتها سجلاته الخاصة التي كانت تدون كلّ ما كان يقوم به، والتي بلغ عدد صفحاتها 11 ألف و560 صفحة. وفضلاً عن ذلك، فقد سلم فرانك نفْسه طواعية للأمريكيين عندما جاءوا لاعتقاله. ويتضح لأي شخص يقرأ شهادة فرانك مصداقيتها. وحتَّى عندما استمع كريستوفر براوننج إلى أجزاء منها تُليت عليه في المحكمة، لم يصدر منه أي اعتراض. ولكن كانت هناك إهانة أخيرة

في انتظاره. لقد استشهد بفقرة وردت في "بروتوكول" مؤتمر فانسي الشهير (20 يناير 1942م) لكي يؤكد فرضيته، لكنه قدم ترجمته الخاصة للفقرة على نحو خاطئ تمامًا. وعند تلك النقطة، انهارت فرضيته، وأخيرًا لم يخرج تفسيره الشخصي "لسياسة إبادة اليهود" عن تفسير هيلبرج، فقد عزا كلّ شيّء إلى "إشارة" من هتلر، وحسب نص كلماته، فإنَّ فوهرر الشعب الألماني لم يكن بحاجة لإصدار أمر مكتوب أو حتَّى شفوي بإبادة اليهود، فقد كان يكفي أن تصدر منه "إشارة" أو "إيماءة" لكي تبدأ العمليَّة، ثم سلسلة من "الإشارات" لاستكمال الباقي. وكان هذا مفهوما!

تشارلز بيدرمان

كان الخبير الآخر الذي استدعاه الادعاء (والذي قدم شهادته قبل براوننج) هو تشارلز بيدرمان، وهو مواطن سويسري، وعضو في اللجنة الدوليَّة للصليب الأحمر، والأكثر أهميَّة، أنه مدير "الخدمة الدوليَّة للتتبع" International Tracing Service (ITC) ومقرها أرولسن (في ألمانيا الغربيَّة). وتملك هذه المؤسسة كميَّة هائلة من المعلومات عن مصير كلّ ضحايا الاشتراكيَّة الوطنيَّة (النازيَّة) خاصة النزلاء السابقين في معسكرات الاعتقال. وأعتقد أن بوسع المرء أن يعرف العدد الحقيقي لليهود الذين ماتوا خلال الحرب من خلال تلك المؤسسة. لكن الادعاء لم يستفد من شهادة بيدرمان، على العكس من الدفاع الذي نجح في تسجيل نقاط عديدة خلال

استجوابه. وقد اعترف بيدرمان بأن اللجنة الدوليَّة للصليب الأحمر لم تعثر قط على أي دليل على وجود "غُرَف الغَاز" في المعسكرات الألمانيَّة. ولم تسفر زيارة وفد من المؤسسة إلى أوشفتز في سبتمبر 1944م إلَّا عن التقاط إشاعة حول هذا الأمر. وقد شعر الخبير السويسري بالكثير من الحرج وهو يقر بأنه كان مخطئا عندما أرجع تعبير "معسكرات الاعتقال" إلى الألمان، فهو لم يلاحظ أن هذا التعبير من ابتكار الحلفاء.

وقال بيدرمان إنه لم يطلع على تقارير الصليب الأحمر عن الفظائع التي تعرض لها الألمان قبل أو بعد نهاية الحرب مباشرة، وخاصة المعاملة الفظيعة التي تعرض لها الكثير من السجناء الألمان. وقال إنه لا يعرف أن الصليب الأحمر يملك أي وثائق عن الترحيل الجماعي للأقليات الألمانيَّة من الشرق، أو عن عمليات الإعدام الفوري التي تعرض لها الألمان، وخاصة مذبحة داخاو التي راح ضحيتها 520 جنديا وضابطا ألمانيا كانوا قد استسلموا للأمريكيين في 29 أبريل 1945م، باستخدام البنادق والمدافع الرشاشة والمعاول والفؤوس (رغم وجود موفد الصليب الأحمر الدولي فيكتور ماورر هناك).

وقد ضمت "الخدمة الدوليَّة للتتبع" ضمن أولئك الذين اضطهدوا في عهد النازيَّة، المجرمين الجنائيين في معسكرات الاعتقال. واعتمد بيدرمان في شهادته على المعلومات التي جاءت من طرف

مؤسسة رسميَّة هي "متحف معسكر أوشفتز". فمنذ عام 1978م وبغرض إعاقة كلّ الأبحاث النقديَّة المراجعة، أغلقت "الخدمة الدوليَّة للتتبع" أبوابها أمام المؤرخين والباحثين فيما عدا الذين يحملون تصاريح خاصة من إحدَى حكومات الدول العشر التي تشرف على نشاط تلك المؤسسة (ومن بينها إسرائيل). ومن هنا منعت هذه المؤسسة نشر التقديرات والإحصائيات عن عدد الموتَى في مختلف المعسكرات. ولم يعد التقرير السنوي عن نشاطها متوفرا للاطلاع عليه من جانب الجمهور العام.

وقد أكد بيدرمان تقريرا صحفيا كان قد تسرب عام 1964م في محاكمة فرانكفورت يذكر أنه عند تحرير معسكر أوشفتز اكتشف السوفييت والبولنديون السجل الرسمي للموتي في ذلك المجمع المكون من 39 معسكرا وشبه معسكر. ويتكون السجل من 38 أو 39 مجلدا، وقد احتفظ السوفييت بـ 36 أو 37 مجلدا والبولنديون بمجلدين أو ثلاثة في متحف أوشفتز، وقد أرسلوا نسخة منها إلى "الخدمة الدوليَّة للتتبع" في أرولسن. لكن لم يسمح الروس أو البولنديون أو الخدمة الدوليَّة للتتبع للباحثين بالاطلاع على تلك السجلات. ولم يشأ بيدرمان أن يكشف عدد الموتَى كما ورد في المجلدين أو الثلاثة مجلدات التي حصلت الخدمة الدوليَّة للتتبع على نسخ منها. ومن الواضح أنه إذا أزيح الستار عن محتوى سجلات

الوفيات في أوشفتز، فسوف تكون تلك هي نهاية أسطورة ملايين اليهود الذين يقال إنهم ماتوا في ذلك المعسكر.

غياب الشهود "الناجين"

سأل القاضي ممثل الادعاء عما إذا كان سيستدعي "ناجين" لتقديم شهاداتهم في منصة الشهادة، لكن ممثل الادعاء أجاب بالنفي، فقد كانت تجربة محاكمة 1985م محرجة للغاية. وكان الاستجواب من جانب الدفاع مدمرا. ومن المؤسف أنه في محاكمة كلاوس باربي في فرنسا عام 1987م ومحاكمة جون ديميانيوك في إسرائيل عام 87-1988م، لم يتبع أي محام خُطى دوجلاس كريستي في محاكمة زوندل الأولى (1985م). لقد أوضح كريستي أن من الممكن تدمير الأساس الأولي لأسطورة "معسكرات الإبادة" عن طريق استجواب الشهود بدقة فيما يتعلق بعمليَّة القتل بالغاز نفْسها.

شهود وخبراء الدفاع

كان معظم الشهود والخبراء الذين قدموا تقاريرهم وشهاداتهم إلى جانب الدفاع، على قَدْرٍ كبيرٍ مِن الدقَّة والوضوح، بنفْس القَدْر الذي كان به هيلبرج وبراوننج غير دقيقين وخياليين. وقد عرض الباحث السويدي ديتليب فيلدرر 380 شريحة لمعسكر أوشفتز وللمعسكرات الأخرى في بولندا. وتولي الباحث الأمريكي مارك

ويبر، صاحب الاطلاع الواسع على الوثائق، توضيح جوانب عديدة في موضوع الهُولُوكُوسْت، كما تناول الألماني تيودور رودلف موضوع جيتو لودز والزيارات التي قام بها موفدو الصليب الأحمر في نهاية عام 1941م إلى أوشفتز وماجدانيك وغيرها مِن المعسكرات.

أما ثيس كريستوفرسون فقد كان مسؤولاً عن قسم الأبحاث الزراعيَّة في منطقة أوشفتز عام 1944م، وقد زار معسكر بيركناو عدة مرات، ولم يلاحظ قط الفظائع التي يدور الحديث عنها. وقد كرر في منصة الشهود نقطة بنقطة، ما كتبه عن المعسكر بدءا من عام 1973م في تقرير من 19 صفحة. أما ماريا فان هيروردي، النمساويَّة المولد الكنديَّة الجنسيَّة، فقالت إنَّها اعتقلت في بيركناو في أوائل عام 1942م، وأنَّها لم ترَ، لا عن قرب أو عن بعد، ما يبدو كقتل جماعي رغم أنَّها أكدت أن الكثير من المسجونين ماتوا جراء الإصابة بمرض التيفوس. أما الأمريكي برادلي سميث، عضو "لجنة الحوار المفتوح عن الهُولُوكُوسْت" فقد تحدث عن تجربته في أكثر من مائة مقابلة في محطات الإذاعة والتليفزيون الأمريكيَّة عن الهُولُوكُوسْت.

وعلق النمساوي إميل لاشوت على "وثيقة موللر" الشهيرة التي أوقعت ارتباكا كبيرا في صفوف السلطات النمساويَّة في ديسمبر 1987. وتكشف الوثيقة التي كتبت في الأول من اكتوبر عام 1948م، أنه حتَّى في ذلك الوقت، كانت لجان التحقيق التي

شكلها الحلفاء ترفض القصص التي ترددت عن القتل بالغاز السام في المعسكرات بما فيها داخاو ورافنسبروك وسترثوف وماثيوزن وشكاسينهاوزن. وتؤكد الوثيقة بوجه خاص، أن اعترافات الألمان انتزعت تحت التعذيب وأن شهادات النزلاء السابقين مزيفة.

وسرد الدكتور راسل بارتون اكتشافه المرعب لمعسكر بيرجن بيلسن وقت تحريره. وكان حتَّى ذلك الوقت يؤمن بوجود خطة متعمدة للإبادة. ثم لاحظ أن اكوام الجثث المكدسة والهياكل العظميَّة في ألمانيا المدمرة كانت نتيجة للظروف المرعبة في المعسكر المزدحم الذي انتشرت فيه الأوبئة في حين كان يتعذر تمامًا وصول الأدوية والأغذية والماء إليهبسبب قصف الحلفاء المتواصل.

وأوضح الألماني أودو وولندي الكثير من التزييفات التي اكتشفها في الصور التي يفترض أنَّها تصور فظائع الحرب والوثائق الأخرى التي قام بتعديلها أو تزييفها فريق من المتخصصين في الدعاية على رأسهم البريطاني سيفتون ديلمر. وتحدث ج. بيرج، وهو يهودي يعيش في ميونيخ عن تجربته في الحرب مؤكدا عدم وجود خطة نازيَّة لإبادة اليهود.

وشهد أكاديميون مثل البروفيسور الصيني الدكتور ك. ت. فان وهو ماركسي، والدكتور جاري بوتنج، الذي طرد من وظيفته في كلّيَّة رد دير (ألبرتا) بعد شهادته إلى جانب زوندل عام 1985م، بأن

كتيب هارووود هو أساسا عمل يعبر عن وجهة نظر صاحبه، ولا يصح بالتالي أن يصبح موضوعا للحظر القضائي. أما يرجن نيومان، وهو مساعد لصيق وصديق لإرنست زوندل، فقد شهد على حالة زوندل النفْسيَّة أثناء نشره الكتاب للمرة الأولى. وشهد إرنست نيلسن على ما واجهه من عقبات في جامعة تورنتو، عندما أراد إجراء مناقشة حول الهُولُوكُوسْت. واستعرض إيفان لاجاسيه، مدير محرقة كاليجاري، الاستحالة العمليَّة لحرق الأعداد الكبيرة التي زعم راؤول هيلبرج أنَّها حرقت في أوشفتز.

أما من جانبي، فقد أدليت بشهادتي كخبير، واستغرقت الشهادة ستة أيام، ركزت فيها بوجه خاص على ما أجريته من أبحاث على غرف الإعدام بالغاز في السجون الأمريكيَّة. وأكدت أن زيكلون ب يتكون أساسا من غاز الهيدرسيانيك، وأن هذا الغاز هو ما يستخدمه الأمريكيون في قتل المحكوم عليهم بالإعدام. وقلت أيضًا إنه كان ينبغي على الحلفاء في عام 1945م استدعاء خبراء أمريكيين في تشغيل غُرَف الغَاز في السجون الأمريكيَّة لفحص المباني والمنشآت الموجودة في أوشفتز والتي يفترض أنَّها استخدمت في قتل ملايين البشر. ومنذ عام 1977م كانت تشغلني الفكرة التالية: عندما يتعامل المرء مع مشكلة تاريخيَّة كبيرة مثل أسطورة الهُولُوكُوسْت، يجب أن يكافح للوصول إلى لب الموضوع. في هذه الحالة، فإنَّ أساس المشكلة هو أوشفتز، أما جوهر هذه المشكلة

فيتركز في مساحة 65 مترا مربعا لـ"غُرفَة الغاز" في المحرقة رقم 1 في أوشفتز، و210 مترا مربعا هي "غُرفَة الغاز" المزعومة في المحرقة رقم 2 في بيركناو. وفي عام 1988م كانت الفكرة لا تزال قائمة: دعونا نحصل على دراسات يجريها خبراء لتلك المساحة الكليَّة المحصورة في 275 مترا مربعا، وسوف نعثر على حقيقة تلك المشكلة الكبيرة القائمة حول الهُولُوكُوسْت. وقد أطلعت المحلفين على الصور التي قمت بالتقاطها بنفْسي لغُرفَة الغاز في سجن ولاية ماري لاند في بالتيمور، وكذلك خرائط "غُرَف الغَاز" المزعومة في أوشفتز، مؤكدا الاستحالة الفيزيائيَّة والكيميائيَّة لوجودها.

تقرير لوشتر

كان في حوذة إرنست زوندل المراسلات المتبادلة بيني وبين ستة من مسؤولي السجون الأمريكيَّة المزودة بغرف غاز. وقد أوكل زوندل إلى المحاميَّة باربره كولاسكا (عضو فريق الدفاع عنه) مهمة الاتصال بهم لكي تعرف ما إذا كان أحدهم على استعداد للظهور أمام المحكمة لشرح كيفيَّة عمل غُرفَة غاز حقيقيَّة. وقد وافق بيل أرمونتراوت، مدير سجن مدينة جيفرسون (ولاية ميسوري) على تقديم شهادته بهذا الشأن، لكنه أشار إلى أنه لا يوجد شخص في الولايات المتحدة الأمريكيَّة أَقْدَر من فريد لوشتر على التصدي للتحقيق العلمي الدقيق في موضوع "غُرَف الغَاز".

فريد لوشتر (45 سنة) مهندس يعيش في بوسطون بولاية ماساشوسيتس، وهو متخصص في تصميم أجهزة الإعدام التي تستخدم في السجون الأمريكيَّة. ومن بين أكبر مشاريعه تصميم غُرفَة غاز جديدة في سجن ولاية ميسوري بمدينة جيفرسون.

وقد قمت بزيارة لوشتر في الثالث والرابع من فبراير عام 1988م، ووجدت أنه لم يسبق له أن طرح أي أسئلة على نفْسه بشأن "غُرَف الغَاز" في المعسكرات الألمانيَّة، فقد كان يؤمن ببساطة، بوجودها. وبعد أن بدأت أعرض عليه ما يوجد في ملفاتي، أصبح مدركا للاستحالة العمليَّة للقتل بالغاز على نطاق واسع، ووافق على فحص الوثائق التي في حوذتنا في تورنتو. وقد تركت إجابات لوشتر على أسئلتي، وقُدْرته على شرح تفاصيل الإعدام بالغاز، انطباعا جيدا لَدَيّ. وقد أكد لوشتر لي الخطورة الاستثنائية للإعدام بغاز الهدروسيانيك. وكان قد بدأ استخدام هذا الغاز في الإعدام للمرة الأولى في الولايات المتحدة عام 1924م، ولكن وحتَّى عام 1988م، كانت لا تزال هناك مشاكل وصعوبات عديدة قائمة في تصميم غرف الإعدام بالغاز بما في ذلك مشكلة التسرب.

وبعد عودتي من بوسطون إلى تورنتو وحديثي مع إرنست زوندل حول مناقشاتي مع فريد لوشتر، قرر زوندل أن يكلف لوشتر بإعداد "تقرير خبير" بشأن "غُرَف الغَاز" في أوشفتز وبيركناو وماجدانيك.

وقبِل فريد لوشتر القيام بالمهمة بعد أن قضي يومين في تورنتو في مراجعة الصور الفوتوغرافيَّة التي التقطت جوًا للمعسكرات وكذلك خرائط للمحارق و"غُرَف الغَاز" المزعومة ووثائق خاصة بغاز زيكلون ب وشرائح مصورة للمواقع المختلفة في المعسكرات التقطها في السبعينيات الباحث السويدي ديتليب فيلدرر.

وفي 25 فبراير 1988م، رحل لوشتر إلى بولندا بصحبة زوجته كارولين والرسام هوارد ميللر والمصور السينمائي يرجن نيومان والمترجم البولندي تيودار رودلف. وعادت المجموعة بعد ثمانية أيام في الثالث من مارس.

وبعد عودته كتب فريد لوشتر تقريره المكون من 192 صفحة الذي يتضمن بعض الملاحق. وكانت استنتاجاته واضحة: هناك أدلة طاغية على استحالة وجود إعدام في غرف غاز في أوشفتز وبيركناو وماجدانيك، وأن "غُرَف الغَاز" المزعومة في تلك الأماكن لم يكن ممكنا أن تستخدم أو تقام كغرف إعدام بالغاز في أي وقت من الأوقات.

وفي الحادي والعشرين والثاني والعشرين من أبريل 1988م، وقف لوشتر في منصة الشهود في محكمة تورنتو. وأخذ في البداية يجيب عن الأسئلة التي وجهها إليهودجلاس كريستي محامي زوندل، ثم واجه

لوشتر استجواب ممثل الادعاء جون بيرسون الذي ساعده مستشارون يهود كانوا يجلسون وراءه مباشرة في قاعة المحكمة.

وتم الاستجواب والاستجواب المضاد في وجود قاض وهيئة محلفين مكونة من أحد عشر شخصا. وكان الجو في القاعة مشحونا للغاية. وكنت أجلس بجوار عدد من الخبراء المراجعين من بينهم دكتور ويليام لندسي الذي كان يشغل وظيفة كبير الكيميائيين في مؤسسة ديبون قبل تقاعده عام 1985م. وكان الجميع في القاعة، بغض النظر عن آرائهم الشخصيَّة في الموضوع محل النظر، يدركون جيدا كما أعتقد، أنهم يشهدون حدثا تاريخيا. لقد كانوا شهودا على نهاية أسطورة "غُرَف الغَاز".

وفي اليوم السابق، كان بيل أرمونتراوت مدير مصلحة السجون في ولاية ميسوري، قد قدم شهادته شارحا الإجراءات والجوانب العمليَّة لغُرفَة الغاز التي تعمل باستخدام السيانيد. وقد أصبح واضحا أمام الجميع أنه إذا كان يصعب للغاية إعدام شخص واحد فقط بالغاز، فإنَّ قيام الألمان -كما يقال- بإعدام مئات الآلاف من الأشخاص باستخدام غاز زيكلون ب، يماثل مشكلة تحويل المربع إلى دائرة.

وقدم كن ويلسون وهو متخصص في الصور الجويَّة، عرضا عمليا بالصور، أكد من خلاله أن "غُرَف الغَاز" في أوشفتز وبيركناو لا

تحتوي على مداخن وهو شيّء أساسي إذا كانت قد استخدمت حقا في هذا الغرض. وقد أشار أيضًا إلى أنني كنت محقا في اتهامي لسيرج كلارسيفلد وجان كلود بريساك بتزوير خريطة بيركناو المنشورة في "ألبوم أوشفتز" (عام 1983م) فقد لجأ هذان المؤلفان إلى التزييف لإقناع القراء بأن مجموعات من النساء والأطفال اليهود الذين فوجئوا بالمصور وهو يلتقط صورة لهم وهم يسيرون بين المحرقة الثانية والثالثة، لم يستطيعوا التقدم أبعد من ذلك وأنهم كانوا بالتالي يتجهون إلى "غُرَف الغَاز" داخل مباني المحارق، فقد حذفا ببساطة من الصورة، ذلك الطريق الذي يؤدي إلى Zentralsauna أي إلى غُرفَة الاستحمام (الواقعة خلف منطقة المحارق) حيث كان يتجه النساء والأطفال في الواقع.

وبعد شهادة فريد لوشتر صعد إلى منصة الشهود دكتور جيمس روث مدير معمل تحاليل "ألفا" في أشلاند بولاية ماساشوستس. وقدم نتيجة تحليله لاثنتين وثلاثين عينة لم يكن يعرف من أين جاءت، وأثبت تحليله أن كلّ العينات المأخوذة من "غُرَف الغَاز" تحتوي على كميَّة ضئيلة للغاية من السيانيد، مقارنة مع ما تحتويه العينات التي جاءت من غرف التطهير والتعقيم، فقد وجد أن الأخيرة تحتوي على كميات هائلة من السيانيد (وتثبت الكميات الموجودة في "غُرَف الغَاز" المزعومة أن تلك الغرف كانت في الحقيقة

غرف لحفظ الجثث وأنه كان يتم تطهيرها أحيانًا باستخدام زيكلون ب).

وكما سبق أن ذكرنا، فقد تنبأ زوندل بأن محاكمته ستصبح "محاكمة لمحكمة نورمبرج"، وأنَّها ستكون "ستالينجراد الإباديّين". وقد أثبتت الأحداث أنه كان مصيبا، رغم أن المحلفين بتوجيهات من القاضي الذي اعتبر الهُولُوكُوسْت "حقيقة مثبتة" لا يمكن لأي شخص عاقل التشكّك فيها، أدانوا زوندل. لكن زوندل كان قد انتصر بالفعل.

أواخر 1988م

ملحوظة من المترجم

في 11 مايو 1988م، حكم على إرنست زوندل بالسجن لمدة تسعة أشهر بتهمة نشر أنباء كاذبة عن الهُولُوكُوسْت. لكنه خرج بكفالة بعد أن وقع على تعهد بعدم الحديث أو الكتابة عن الهُولُوكُوسْت إلى أن تنتهي فترة إجراءات استئناف الحكم من طرفه. وفي السابع والعشرين من أغسطس 1992م، ردت المحكمة العليا في كندا الحكم الصادر ضِدَّ زوندل وحكمت بعدم دستوريَّة القانون الذي صدر بموجبه الحكم والذي خضع زوندل بموجبه، لمدة تسع سنوات للتحقيق والمحاكمة. وقد رفضت الحكومة الكنديَّة الاعتذار لزوندل أو تعويضه عن النفقات القانونيَّة الباهظة التي تكبدها. لكن الأمر لم ينته عند هذا الحد، فقد تم نقل قضيَّة زوندل إلى نوع من المحاكم الاستثنائية التي أنشئت في كندا باسم "المنبر الكندي لحقوق الانسان" واستمر نظر القضايا وتأجيلها عدة سنوات أخرى. وفي 14 ديسمبر 2000م، قضت المحكمة العليا في كندا برفض الاستئناف المقدم من زوندل، وهو ما يقضي على أمله في الحصول على الجنسيَّة الكنديَّة. والمعروف أن زوندل دخل إلى كندا للإقامة الدائمة عام 1958م. وكالعادة، لم توضح المحكمة العليا أسباب رفض الاستئناف. وكان هذا الاستئناف الذي تقدم به زوندل واحدا ضمن سلسلة من الطلبات المشابهة التي أعقبت رفض منحه الجنسيَّة الكنديَّة عام 1993م بعد أن تدخلت الأجهزة الأمنيَّة الكنديَّة

التابعة لوزارة الداخليَّة، وكانت توصية وزير الداخليَّة لَدَى القضاء تنص على اعتبار أن زوندل يمثل "تهديدا" للأمن العام في البلاد.

وقد ظل زوندل يسعي إلى الطعن في قرار وزير الداخليَّة، ويطالبه بكشف الأسباب التي دعت إلى اعتباره يمثل تهديدا للأمن العام الكندي. وكانت المحكمة قد رفضت استئنافين آخرين من زوندل ضِدَّ تقرير لجنة حقوق الإنسان الكنديَّة التي تطالب بعقابه بسبب ما ينشره في الموقع المخصص له على شبكة "الإنترنت" والذي يحتوي على كتيب "هل مات حقا ستة ملايين". وطالب زوندل باستبعاد عضو من أعضاء اللجنة بسبب تعصبه الشخصي ضِدَّه، وبالتالي برفض القضيَّة برمتها. وطالب زوندل أيضًا بحقه في استجواب الشهود والتحقق من صحة ما ورد في الكتيب. وأخيرًا وفي ربيع 2000م، نجحت السلطات الكنديَّة أخيرًا في استصدار حكم بترحيل إرنست زوندل من كندا، وقد توجه بمساعدة زوجته الأمريكيَّة الجنسيَّة إلى الولايات المتحدة. وفي فبراير 2003 ألقت السلطات الأمريكيَّة القبض على زوندل بدعوى مخالفته القواعد الخاصة بتأشيرة الدخول ثم قضت محكمة أمريكيَّة بإعادته إلى كندا حيث ألقي القبض عليه وقضي عامين في السجن بدعوى أنه يمثل خطرا على أمن البلاد. وفي فبراير 2007 أصدرت محكمة كنديَّة حكما بترحيل زوندل إلى ألمانيا حيث قضت محكمة في مانهايم بسجنه لمدة 5 سنوات بتهمة إنكار الهُولُوكُوسْت.

في 2010 أطلق سراح زوندل، ولكن السلطات الكنديَّة أصدرا قرارا بمنع عودته بصفة نهائيَّة إلى كندا، وهو يعيش حاليا في بلدته الأصليَّة في ألمانيا، مجبرا على الصمت التام.

لماذا لم تظلم السماء؟

الحل النهائي في التاريخ

في عدد مايو 1989م، أشارت صحيفة "نيويورك تايمز" إلى "العاصفة التي أثارها كتاب جديد" مخصص لبحث "إبادة اليهود" خلال الحرب العالميَّة الثانية. والكتاب بعنوان "لماذا لم تظلم السماء: الحل النهائي في التاريخ".

مؤلف الكتاب هو أرنو ماير، من مواليد 1926م لأسرة يهوديَّة في لوكسمبورج، وهو أستاذ التاريخ الأوروبي بجامعة برينستون الأمريكيَّة. وقد أطلق بيير فيدال ناكيه في كتابه "مغتالو الذاكرة" الصادر عام 1987م على أرنو ماير "زميلي وصديقي" (صفحة 203) وذكر اسمه تسع مرات. وقد كتب على سبيل المثال يقول: "إنني أدين بالكثير لأرنو ماير، الذي أشكره بحرارة" (صفحة 216). وذكر أنه قرأ مخطوطة الكتاب الذي كان ماير يعتزم نشره في 1988م، وأنه ربما يحمل عنوان "الحل النهائي في التاريخ". ويبدو أن البروفيسور الأمريكي أثار غضب زميل إسرائيلي له أثناء المؤتمر الدولي عن "الهُولُوكُوسْت" الذي انعقد في جامعة السوربون عام 1982م برئاسة فرنسوا فوريه وريمون أرون (من 29 يونيو إلى 2 يوليو). في ذلك الوقت كانت لَدَى ماير الشجاعة لأن يبدي بعض التحفظات

على عقيدة "الهُولُوكُوسْت" و"غُرَف الغَاز". على أي حال لم تنشر ورقة البحث التي شارك بها ماير في كتاب "ألمانيا النازيَّة وإبادة اليهود" (الذي صدر عن دار جاليمار عام 1985م في 607 صفحة) وكان يفترض أن يضم نتائج ذلك المؤتمر وأبحاثه.

ويذكر المؤلف أنه قدم المخطوطة الأخيرة لكتابه، فيما عدا المدخل، إلى ثلاثة أسماء بارزة في مجال دراسة التاريخ اليهودي هي: راؤول هيلبرج (الولايات المتحدة) وهانز مومسن (ألمانيا الغربيَّة) وبيير فيدال ناكيه (فرنسا). وعلى غلاف كتاب ماير نقرأ كلمات المديح التالية: "أكبر جهد بذله مؤرخ على الإطلاق في التفكير النقدي فيما يستعصي على التفكير" (بيير فيدال ناكيه، كلِّيَّة الدراسات العليا في العلوم الاجتماعيَّة، باريس).

مصادر دراسة "غُرَف الغَاز" نادرة ولا يعتد بها:

يقول أرنو ماير إنه يؤمن بوجود خطة منظمة لإبادة اليهود في ألمانيا النازيَّة، كما يؤمن بحقيقة وجود "غُرَف الغَاز"، لكنه في الوقت نفْسه، يكتب أفكارا كثيرة وملاحظات لا يمكن أن يختلف معها المراجعون. وفضلاً عن ذلك، تضم قائمة المصادر والمراجع التي استعان بها في وضع كتابه، كتابين من الكتب الأساسيَّة في المراجعة التاريخيَّة هما "أكذوبة عوليس" لبول راسينييه، و"خدعة القرن العشرين" لأرثر بوتز. وحسب ما يقول ماير، فليس هناك أي أثر أو خطة لإبادة

اليهود. أما فيما يتعلق بغُرَف الغَاز، فإنَّه يصل في الفصل الذي خصصه لموضوع معسكر "أوشفتز" إلى النتيجة التالية التي يبدو مُدهشًا أن تصدر عن صديق لبيير فيدال ناكيه: "إن مصادر دراسة "غُرَف الغَاز" نادرة ولا يعتد بها" (صفحة 362). ثم يضيف:

"معظم ما هو معروف (في هذا الموضوع) يقوم على الشهادات التي قدمها مسؤولون وجلادون نازيون في المحاكمات التي دارت بعد الحرب العالميَّة الثانية أو وردت في مذكرات الناجين وشهود العيان وهي شهادات يتعين التدقيق فيها فربما تكون قد جاءت متأثرة بعوامل ذاتيَّة شديدة التعقيد" (صفحتا 362- 363).

أليس من الأصح القول إنه يجب أن نتشكّك فيما يُسمّى بالشهادات والاعترافات والتقارير التي يستخدمها الإباديّون دون حياء. ثم يضيف المؤلف بخصوص المصادر المذكورة: "إننا لا ننكر وجود الكثير من التناقضات والالتباسات والأخطاء في المصادر الموجودة" (صفحة 363). ويود المرء أن يَرى كيف يمكن أن يتناول أرنو ماير بالنقد هذه التناقضات والالتباسات والأخطاء. فلا شكّ أنه يفكر في "المصادر" التي استخدمها الإباديّون أنفْسهم لأكثر من أربعين سنة.

إنه يتحدث عن وقوع "قتل في غُرَف الغَاز" في معسكرات شيلمنو وبيلزك وسوبيبور وتريبلنكا، غير أن هذه الإشارات تتبخر بسرعة وتضيع في فيض من القضايا الأخرى الغربيَّة على القارئ.

وبوجه عام، يلاحظ القارئ أن الموضوع الأساسي للكتاب، أي الإبادة المفترضة لليهود وغُرَف الغَاز المزعومة، تُدفن تحت ركام من الاستطرادات التي تدور حول مواضيع مثل العداء للساميَّة في القرون الوسطي، وحملة هتلر العسكريَّة في روسيا، وهو ما يطلق عليه الأكاديميون بدماثة "دراسة السياق"، وأنا أفضل من ناحيتي دراسة النص، أو بمعْنَى آخر، دراسة الموضوع.

عن الموتى والضحايا:

يتخذ ماير وجهة نظر المراجعين أيضًا عندما يؤكد على ما سببه وباء التيفوس من موت وخراب في التجمعات اليهوديَّة في الشرق وفي معسكرات الاعتقال. وعادة ما يتجاهل الناس أن أحد أهم دوافع الألمان لإنشاء "الجيتو" كان خوفهم من انتشار التيفوس إلى العالم كلّه الذي كان يعاني بالفعل من الحرب. وحتَّى رغم غموض أرنو ماير في تناول موضوع "القتل بالغاز" إلَّا أنه يتحدث بدقة وإسهاب عن تأثير وباء التيفوس. خلال الفترة من 1942م إلى 1945م، أو بمعْنَى أدق في الوقت الذي كان "القتل في غُرَف الغَاز" يدور- كما يزعم المؤرخون الإباديّون، فإنَّه يذكر أن عدد الذين ماتوا نتيجة لأسباب طبيعيَّة (مثل المجاعات والأمراض والأوبئة والعمل الشاق) يفوق عدد الذين ماتوا لأسباب "غير طبيعيَّة" (الإعدام بشتَّى أنواعه). ويقول بشكل محدد إن هذا كان ينطبق "بالتأكيد على

أوشفتز ولكن ربما على ما وقع في غيره من الأماكن أيضًا" (صفحة 365).

هذه الإشارة لم تمر دون أن تثير ضَجَّة كُبرى بالطبع. وفي موضع آخر، يشرح ماير الحجج والوثائق التي أقنعت الجميع حتَّى الآن، بأن الألمان مارسوا سياسة منظمة لإبادة اليهود، ثم يفندها واحدة بعد الأخرى (خطاب جورنج إلى هايدرخ في 31 يوليو 1941م، مخطوطة مؤتمر فانسي، دور القوات النازيَّة الخاصة (إس إس) في روسيا، الخطب التي ألقاها هملر في بوسن في أكتوبر 1943م.. إلخ).

وهو يصف ما يقدم إلينا علينا كحقائق راسخة، قائلاً إنَّها معلومات تفتقر للدقة، أو لا يمكن الوثوق بها. ويعبر ماير عن عدم ثقته في الأرقام والإحصائيات المقدسة التي تتبناها التفسيرات الرسميَّة. وبعد أن يفرق ماير بين "الذاكرة" اليهوديَّة من ناحية -ولا يقول الأسطورة اليهوديَّة أو الميثولوجيا- وبين "التاريخ" من ناحية أخرى، يستنكر وجود عبادة الذاكرة التي أصبحت "شديدة التعصب" بما تفرضه من تشويه لحقائق التاريخ (صفحة 16). وهو يعتقد أن الذاكرة تميل إلى "الجمود"، بينما يتطلب التاريخ "المراجعة" (صفحة 18). وعلى عاتق المؤرخين اليوم "تقع مهمة التفكير النقدي فيما يستعصي على التفكير" (صفحة 363).

اقتراحان للمستقبل:

عن "غُرَف الغَاز"، كتب أرنو ماير:

"ربما تخرج من الأرشيف السوفييتي عندما يفتح، أدلة ودلائل مهمة. إضافة إلى هذا، قد يسفر التنقيب في الأماكن التي وقع فيها القتل الجماعي أو حولها مباشرة عن معلومات جديدة". وأود أن أذّكر القارئ بأن هاتين الفكرتين من أفكار المراجعين التاريخيين وقد خضت أنا شخصيا معارك شرسة بسبب دعوتي إلى هذا. ففي عام 1988م وخلال محاكمة إرنست زوندل في تورنتو، استطعت بالتعاون مع المحامي دوجلاس كريستي أن أجعل تشارلز بيدرمان، وهو أحد الخبراء الذين استعان بهم الادعاء، يؤكد أن الجزء الأكبر من "سجلات الموتَى" في أوشفتز التي تركها الألمان وراءهم، سليمة ومحفوظة في موسكو. والفضيحة هي أن هذه السجلات محظور الاطلاع عليها، تمامًا كما هو شأن المجلدات المحفوظة في متحف أوشفتز.

ويتعاون الأمريكيون والبريطانيون والفرنسيون والألمان والإسرائيليون في إخفاء هذه الوثائق، ويرفضون إطلاع الباحثين على عدد الأسماء الموجودة فيها والمحفوظة في سجلات عديدة في متحف أوشفتز، كما توجد منها صور في "خدمة التتبع الدوليّة" (وهي فرع من فروع منظمة الصليب الأحمر الدولي ومقره في ألمانيا الغربيَّة غير أنه يخضع

لإشراف الحلفاء والإسرائيليين خوفا من تطفل الباحثين المراجعين).
فهل يطالب ماير بفتح هذا "الملف السري"؟

أما بالنسبة للتنقيب، نجد هنا مرة أخرى، أن المراجعين هم الذين يادروا بهذه الدعوة رغم الحظر المفروض على نشاطهم. قد أشرت إلى هذا في تقديمي لتقرير لوشتر المنسوب إلى المهندس الأمريكي الذي درس ما يُسمّى بغُرَف الغَاز في أوشفتز وبيركناو وماجدانيك (راجع دوريَّة معهد المراجعة التاريخيَّة، نهاية 1988م).

في لوس أنجيلوس، في فبراير 1989م، خلال المؤتمر الدولي التاسع للمراجعة التاريخيَّة، طالب فريد لوشتر بإنشاء لجنة دوليَّة للتحقيق في موضوع "غُرَف الغَاز". فهل يخرج ماير عن زملائه الإباديّين ويستجيب لتقرير لوشتر بأن يفعل شيئا أكثر من مجرد الصمت الخجول أو اللجوء إلى إحدَى تلك التحايلات التي يلجأ إليها سيرج كلارسفيلد وأتباعه؟ وما هو رأي ماير في تشكيل لجنة دوليَّة من الخبراء؟

التقدم الذي حدث في عشر سنوات:

قبل عشر سنوات، بادر بيير فيدال ناكيه وليون بولياكوف بإصدار بيان علني موجه ضِدّي جاء فيه إنه بسبب غزارة الأدلة ومصداقيتها، "لا يوجد ولا يصح أن توجد أي مناظرة حول وجود غُرَف الغَاز" (لوموند، 21 فبراير 1979م، صفحة 23). وكان من

بين الأربعة والثلاثين شخصا الذين وقعوا على هذا البيان فيليب أرييه وفرناند بروديل وبيير شونو وفرنسوا فيوريه وجاك لوجوف وإيمانويل ليروي لادوريس. لكن رينيه ريمون رفض التوقيع. وكان علينا أن ننتظر حتَّى عام 1988م إلى أن جاء مؤرخ راسخ مثل أرنو ماير لكي يقول في الفصل المخصص لأوشفتز من كتابه، إن مصادر دراسة "غُرَف الغَاز" بعيدة تمامًا عن الغزارة والمصداقيَّة (وهو ما أكده هؤلاء)، بل إنَّها في الحقيقة نادرة ولا يمكن الاعتداد بها. هذا مجرد مثال واحد على أهميَّة ما حققته المراجعة التاريخيَّة من تقدم في المجال الأكاديمي.

وسوف يتعين على البروفيسور اليهودي من جامعة برنسيتون أن يدفع ثمن التساؤل حول "تابو" القرن. لقد توخي ماير أكثر درجات الحذر وهو يكتب كتابه، مبتعدا عن الهجوم والاستفزاز، لكنه، إضافة إلى بعض ردود الفعل الإيجابيَّة، تعرض بالفعل لبعض الهجوم، فقد اتهمه دانييل جولدهاجن من جامعة هارفارد، في مقال بعنوان "شاهد زائف"- بالتزييف والتشويه والمراجعة، وبأنه "يهزأ من الذاكرة والتاريخ" (ذي نيو ريبليك، 17 أبريل 1989م، صفحة 39-40).

وهذا كلّه يبدو عاديًا، ولكن من حسن حظ البروفيسور أرنو ماير أنه يعيش في الولايات المتحدة وليس في فرنسا مثل فوريسون، أو في السويد مثل فيلدرر، أو في ألمانيا مثل ستاجليتش.

ملحوظة: لا يحتوي كتاب ماير الذي يقع في أكثر من 500 صفحة، على هامش واحد. وبالتالي لا يمكن التثبت من الكثير من استشهاداته إلَّا بجهدٍ شخصيٍّ في البحث يبذله القارئ. في أوائل عام 1981م، كان أرنو ماير لا يزال عدائيا تجاه المراجعة التاريخيَّة عندما كتب: "للأسف فإنَّ كتاب فوريسون الجديد "مذكرة في الرد على الذين يتهمونني بتزييف التاريخ" يحتوي على مقدمة مبالغ فيها بقلم نعوم شومسكي استخدمت لتنصيب فوريسون باعتباره دارسا مخلصا للهُولُوكُوسْت. ويزعم شومسكي -غير المؤهل لأن يكون مدافعا عن الحريات المدنيَّة- متظاهرا بقلة المعرفة، أنه لم يقرأ الكتاب الذي قدمه" (مجلة الديموقراطيَّة، أبريل 1981م، صفحة 68).

متحف الهُولُوكُوسْت الأمريكي التذكاري

هذا التحدي الجديد

قبل افتتاح متحف الهُولُوكُوسْت التذكاري في واشنطن في الثاني والعشرين من أبريل 1993م كان الرأي السائد أن من الصعب أن يتجاهل المتحف "غُرَف الغَاز". لكن السؤال ظل قائما: كيف سيقوم المتحف بتجسيد ذلك السلاح المرعب تجسيدا ماديا وعمليا؟ وقد أصبحت الإجابة معروفة الآن. وهي إجابة مفزعة: فبسبب عدم وجود أي شيّء أفضل يمكنهم استخدامه، لم يجد المتحف الذي كلّف دافعي الضرائب الأمريكيين والمتبرعين من الجالية اليهوديَّة الأمريكيَّة 150 مليون دولار، سِوى أن يعرض على زواره كنموذج وحيد لغُرفَة الغاز النازيَّة، نموذجا لغُرفَة من غرف التعقيم بالغاز في معسكر ماجدنيك في بولندا. وحتَّى جان كلود بريساك الذي وضع كتابًا في موضوع "غُرَف الغَاز" يقع في 564 صفحة صدر عام 1989م بالتعاون مع مؤسسة بيتي كلارسيفلد في نيويورك- اضطر إلى الاعتراف بأن هذه الغُرفَة ليست إلَّا غُرفَة للتعقيم.

وليس في هذا جديد. فمن البداية، في عام 1945م عرض الأمريكيون أربع غرف للتطهير (أو التعقيم) في معسكر داخاو باعتبارها غرف غاز.

وقد لجأ المسؤولون عن متحف الهُولُوكُوسْت الجديد في واشنطن إلى هذه الخديعة كما أعتقد، لأنهم اضطروا لذلك: فهم لا يستطيعون أن يقدموا لزوارهم تجسيدا ماديا في أي شكل كان، لتلك الغرف التي يقال لنا بإلحاح إن الألمان استخدموها في قتل ملايين اليهود.

وكنت في 17 مارس 1992م قد ألقيت القفاز في وجه المنظمات اليهوديَّة في العالم كلّه. في ذلك اليوم، بعد أن وصلت إلى ستكهولم بدعوة من أحمد رامي* وجهت ذلك التحدي إلى ممثلي أجهزة الإعلام السويديَّة: "إطلعوني أو إرسموا لي غُرفَة غاز نازيَّة". هذه الكلمات تبعها نص من صفحتين.

وحسب معلوماتي فقد سارع الصحفيون والاعلاميون السويديون إلى البحث وإجراء الاتصالات سعيًا للإجابة عن سؤالي، وأخذوا يبحثون عن أي مصدر ممكن للحصول على صور لـ"غُرَف الغَاز"، ولكنهم ذهلوا عندما اكتشفوا عدم وجود مثل هذه الصور، وأن المنشآت أو الصور التي تعرض على السياح في معسكر أوشفتز وغيره باعتبارها غرف غاز نازيَّة، لا تنطبق عليها المواصفات التي تجعلها سلخانات كيميائيَّة. ورغم ما شنته الصحافة السويديَّة من هجوم شديد ضِدّي، فإنَّها لم تشر ولو بمجرد إشارة إلى التحدي الذي أعلنته في أي صحيفة، أو بكلمة واحدة في محطات الإذاعة والتليفزيون.

وقد ازداد الشعور بالحرج خلال الأشهر التالية عند أولئك المروجين لنظريَّة الإبادة الجماعيَّة التي تعرض لها اليهود خلال الحرب العالميَّة الثانية، ومن هنا إزدادت حدة السعار المجنون الذي أصاب المنظمات اليهوديَّة في العالم.

وفي 21 أبريل 1993م جددت ذلك التحدي في واشنطن. هذه المرة إلى المسؤولين عن متحف الهُولُوكُوسْت الذي كان سيفتتح هناك في اليوم التالي بحضور الرئيس الأمريكي بيل كلينتون وعدد من رؤساء الدول وإيلي فيزل. ومن بين مسؤولي المتحف كنت أفكر بشكل خاص في مايكل برنباوم، مدير الأبحاث في المتحف الجديد.

ويمكن تلخيص التحدي الجديد الذي عرضته أمامهم في واشنطن فيما يلي:

غدا سيفتتح متحف الهُولُوكُوسْت الجديد في واشنطن. إنني أتحدي سلطات المتحف أن يقدموا لنا تجسيدا ماديا لغُرفَة الغاز السحريَّة. لقد ظللت أبحث لمدة 30 عاما عن هذا التجسيد دون أن أعثر عليه، لا في أوشفتز ولا في أي معسكر غيره من معسكرات الاعتقال، ولا في كتاب، أو قاموس أو موسوعة أو صورة فوتوغرافيَّة، ولا في نموذج مجسد أو فيلم تسجيلي.

إنني معتاد بالطبع على المحاولات التي جرت لتجسيد غُرفَة الغاز، لكنها جاءت مضللة لا يمكنها الصمود أمام الفحص الدقيق.

وعندما يدرك المرء الأخطار الهائلة التي تنتج عن استخدام مادة زيكلون ب (وهي عبارة عن مبيد حشري) أو استخدام حمض الهيدروسيانيك، سيدرك بسرعة أن الأماكن التي يعرضونها على السياح كغرف غاز، لا يمكن أن تكون قد استخدمت أبدا كغرف للقتل الجماعي بالغاز السام دون أن يؤدي استخدامها إلى وقوع أخطار شديدة لكلّ الموجودين بالمنطقة. (راجع "آليّة عمل غُرَف الغَاز" الفصل الثاني في هذا الكتاب).

إنني أحذر المسؤولين عن متحف الهُولُوكُوسْت في واشنطن، خاصة السيد برنباوم، من ضرورة الامتناع غدا الثاني والعشرين من أبريل 1993م، عن تقديم غُرفَة تطهير أو غُرفَة استحمام "دوش"أو مشرحة للجثث أو ملجأ من الغارات الجويّة على أنّها غرف غاز نازيّة. إنني لا أريد أيضًا أن أري مقطعا من جدار أو باب أو كومة أحذية أو حزمة من الشعر أو كميّة من النظارات. أريد تصويرًا لغُرفَة غاز كاملة تعطينا فكرة دقيقة عن تجهيزاتها وآليّة تشغيلها.

وكنت أعرف أنهم لن يستطيعوا الاستجابة لهذا التحدي، فالحقيقة أنهم ظلوا طوال نصف قرن يحدثونا عن "غُرَف الغَاز" النازيّة دون أن يعرضوا علينا واحدة منها. وتوقعت أيضًا أن يحاول المتحف التلاعب بشكل ما. وكان السؤال: ما هي بالضبط الخدعة التي سيستخدمونها؟

وجاءت الإجابة في اليوم التالي، الثاني والعشرين من أبريل يوم الافتتاح الرسمي (لم يفتح المتحف أبوابه للجمهور العام إلّا في السادس والعشرين من أبريل). وفي الثاني والعشرين من أبريل حصلت على نسخة من كتاب يقع في 250 صفحة عبارة عن كتالوج للمتحف الجديد. هذا الكتاب من إعداد مايكل برنباوم وعنوانه "يجب أن يعرف العالم: تاريخ الهُولُوكُوسْت كما يرويه متحف الهُولُوكُوسْت التذكاري الأمريكي".

وتوجد في صفحة 138 ثلاث صور:

* **الصورة الأولى** لعلبة من علب مادة زيكلون ب وبعض حبيبات زيكلون كتب تحتها أنّها "مبيد حشري شديد الفعاليّة".

* **وتوضح الصورة الثانية** "باب غُرفَة الغاز في ماجدنيك، ومن الخارج يقف ضباط الإس. إس يراقبون القتل من خلال الفتحة الزجاجيّة في الباب".

* **والصورة الثالثة** "جزء لغُرفَة الغاز في معسكر ماجدنيك من الداخل. اللون الأزرق الذي تصطبغ به الجدران هو لون الزيكلون ب"..

لا تؤكد لنا الصورة الأولى شيئا أكثر من مجرد أن الألمان كانوا يستخدمون مادة زيكلون ب (وكان هذا المبيد الحشري يستخدم في العالم كلّه). أما الصورتان الثانية والثالثة فيعرفهما الذين زاروا معسكر

ماجدنيك السابق في بولندا. وبوسعهم التعرف على الباب الخارجي والباب الداخلي، وأيضًا على جزء من داخل الغُرفَة الأولى التي تعرض على السياح باعتبارها غُرفَة غاز، حتَّى لو كانت كلّ خصائص هذه الغُرفَة تكشف بوضوح أنَّها كانت مجرد غُرفَة للتطهير. ولذا فلن أعرض هنا للأبحاث التي قمت بها، أو الصور الفوتوغرافيَّة التي تصور الغُرفَة كاملة بما في ذلك الملحق الموجود فيها الذي يحتوي على موقد كمصدر الحرارة. وقد كانت الحرارة ضروريَّة لتوليد غاز الهيدروسيانيك من مادة زيكلون ب. (في الصورة الثانية التي وصفناها فيما تقدم، يمكن رؤية الفتحة التي يدخل منها الهواء الساخن بفعل الموقد). ولن أتعرض هنا لما ورد في تقرير الخبير الأمريكي فريد لوشتر الذي أثبت بشكل قاطع أن هذه الغُرفَة كانت غُرفَة للتطهير بالغاز وليس لقتل البشر وأنه لم يقتل فيها إلَّا القمل الذي يحمل جرثومة الطاعون.

اعتراف جان كلود بريساك:

سوف أكتفي هنا بما جاء في كتاب جان كلود بريساك ربيب مؤسسة بيتي كلارسفيلد ومؤلف كتاب "تقنيَّة وآليَّة غُرَف الغَاز" (وهو بالمناسبة عنوان مضلل). هذا هو على سبيل المثال، رأي بريساك في الغُرفَة المشار إليها:

"في رأي برنار جونو (ممثل الادعاء الذي واجه فوريسون عام 1982م في إحدَى القضايا في باريس) كان الطوب الأحمر المصطبغ بالصبغة الزرقاء الداكنة دليلاً ماديًا كافيًا على وجود "غُرَف الغَاز".

لكن المشكلة أن كلّ شيّء في غُرفَة الغاز التي قدمها كدليل، يشير إلى أنَّها كانت غُرفَة للتطهير بالغاز. إنني لا أقول إنَّها لم تشهد قتل بشر، فهذا أمر محتمل (بريساك مخطئ في هذا) لكن وجود الصبغة الزرقاء على جدرانها يؤكد تمامًا استخدامها كغُرفَة لأغراض التطهير"(صفحة 555).

ويمضي بريساك فيلاحظ أن وجود الفتحة الزجاجيَّة في منتصف الباب الخارجي ليس دليلاً على أنَّها غُرفَة غاز لقتل البشر فمن الممكن أن تزود غُرفَة التطهير بهذه الفتحة. ثم يصل إلى القول:

"آسف أن أقول، وأنا لست الوحيد القائل بهذا في الغرب- إن غُرفَة الغاز الموجودة في معسكر ماجدنيك ما زالت في انتظار مؤرخ حقيقي، وهو أمر مؤسف إذا ما أخذنا في الاعتبار أنَّها وقعت سليمة في أيدي الجيش الروسي عام 1944م"(صفحة 555).

وفي صفحة 557 يقدم بريساك صورة لغُرفَة الغار محل النقاش من الخارج، وصورة لغُرفَة غاز أخرى تقع في نفْس المبنى. وجاء في التعليق المكتوب تحت الصورة:

"هذه صورة لإحدَى غرف التطهير بالغاز التي كان يُعتقد أنَّها غُرفَة من غرف القتل الجماعي بالغاز. ونلاحظ بين البابين اللذين توجد في منتصف كلّ منهما فتحة مغطاة بالزجاج للمشاهدة، اللون الأزرق الداكن الذي يصبغ الجدران المبنيَّة من الطوب الأحمر، وهي

دليل على استخدام غاز السيانيد الذي يُعرف بالهيدروسيانيك لفترة طويلة والذي يباع كمبيد حشري تحت إسم "زيكلون ب".

وينبغي ملاحظة أن "غُرَف الغَاز" المشار إليها تقع في المبنى الذي يحمل لافتة كتب عليها "حمام وغرف تعقيم"، وهو يقع إلى اليمين من مدخل المعسكر في مكان مكشوف تمامًا.

ومن الطبيعي ألَّا تحتوي الببلوغرافيا الموجودة في نهاية كِتاب مايكل برنباوم على أي إشارة إلى كتاب بريساك المكون من 564 صفحة.

تقدمٌ جديدٌ للمراجَعَة التاريخيّة:

في عام 1978م أسَّس الرئيس جيمي كارتر لجنة لإنشاء متحف تذكاري للهُولُوكُوسْت تابع للحكومة الفيدراليَّة، ووقع الاختيار على إيلي فيزل كرئيس له، وهو ما ألهم أرثر بوتز التعليق الصحيح والساخر: "كانت هناك حاجة إلى مؤرخ، لكنهم اختاروا ممثلاً مسرحيًا".

أما اختيار برنباوم كحُجَّة "أكاديميَّة" للمتحف فلا يختلف كثيرا، فهو أستاذ مساعد لعلوم اللاهوت في جامعة جورج تاون. وبينما كانت هناك حاجة لاختيار مؤرخ، تم اختيار رجل لاهوت، وهو اختيار مناسب تمامًا، فقد استبدلت المنظمات اليهوديَّة منذ سنوات، "تاريخ الهُولُوكُوسْت" بـ"ديانة" الهُولُوكُوسْت Holocaustianity.

والعمود الأساسي الذي تقوم عليه هذه الديانة كما قلت مرارا، هو "غُرفَة الغاز السحريَّة"، فهي كالسراب.. مجرد مرآة لشيء لا وجود له.

ولتصوير ذلك "العمود الأساسي" اختار مسؤولو المتحف غُرفَة تطهير وضعوا عليها لافتة تشير إلى أنَّها غُرفَة قتل بالغاز. ورغم أن الألمان صمموها وشيدوها كمنشأة لحماية أرواح السجناء اليهود وغير اليهود، فهي تعرض علينا كأداة من أدوات تعذيب وقتل هؤلاء السجناء، وهو ما يعكس صورة مصغرة لتضليل ووقاحة المتعصبين من أتباع "ديانة الهُولُوكُوسْت".

لقد حان الوقت للحديث بنزاهة وشرف عن المعاناة الحقيقيَّة للشعب اليهودي خلال الحرب العالميَّة الثانية. ومن حق زوار متحف الهُولُوكُوسْت التذكاري في واشنطن- خصوصا دافعو الضرائب الأمريكيين الذين لم يكن المتحف ليقام إلَّا بفضلهم- أن يطالبوا بمحاسبة السيد برنباوم وأصدقائه. لقد حمل مقال نشر مؤخرا في صحيفة "لوس أنجليس تايمز" العنوان التالي "استطلاعات الرأي تجد أن واحدا من بين كلّ ثلاثة أمريكيين يشكّ في وقوع الهُولُوكُوسْت"(عدد 20 أبريل 1993م). وسوف يزداد الشكّ.

بعد أيام عدة من الافتتاح الرسمي للمتحف، صرح برنباوم لإحدَى الصحف بقوله: "إننا محاطون بالموت (في المتحف). الأمر يشبه العمل

في غُرفَة طوارئ أو مشرحة.. لقد انتهيت على أريكة الطبيب النفْسي. (صحيفة "واشنطن بوست"، 26 أبريل 1993م).

وليس من المستبعد أن يعود برنباوم إلى أريكة الطبيب النفْسي عندما تنكشف العواقب الوخيمة لتضليله.

كان من المفترض أن يكون الثاني والعشرين من أبريل عام 1993م تاريخا لتكريس ديانة "الهُولُوكُوسْت"في الولايات المتحدة. ولكن الحقيقة أنه دخل التاريخ باعتباره تاريخا لانتصار من الانتصارات الكبيرة التي حققها مؤرخو المراجعة التاريخيَّة.

1993م

ملحوظة.. المترجم:

أحمد رامي، مغربيٌّ، مُؤسّس محطة "راديو الإسلام" ومدير الموقع الشهير بالإسم نفْسه على شبكة الإنترنت. كان ضابطًا في الجيش في الطيران المغربي، وشَارك في المحاولة الانقلابيَّة التي وقعت عام 1972م ضِدَّ الملك الحسن السادس، ثم فرَّ إلى الخارج واستقر في السويد كلاجئ سياسيّ منذ 1973م. وقد اعتقل وحُوكم في السويد عام 1993م بتهمة العداء للساميَّة، وسُجن ستة أشهر وأغلقت السلطات محطة الإذاعة التابعة له.

شهود على "غُرَف الغَاز" في أوشفتز

1- موجز

من الضروري دائما التحقق من شهادات ما يُسمّى بالشهود. في الحالات الجنائيَّة هناك عنصران أساسيان للتحقق من هذه الشهادات: أولا: مواجهة الشهود بعناصر ماديَّة (خصوصا تقرير يعده خبير عن سلاح الجريمة)، وثانيا: الاستجواب التفصيلي في المحكمة للشاهد عما شاهده أو عما يزعم أنه شاهده. وهكذا، ففي الإجراءات القانونيَّة المتعلقة بـ"غُرَف الغَاز" في معسكر أوشفتز، لم يزعم أي قاض أو محام أنه خبير في سلاح الجريمة، وفضلاً عن هذا، لم يواجه أي محام الشهود قط ويطالبهم بتقديم وصف تفصيلي ولو لواحدة فقط من تلك الغرف المزعومة للقتل الجماعي.

ظل هذا هو الحال حتَّى عام 1985م. فعندما تمت أخيرًا في تلك السنة مواجهة الشهود واستجوابهم حول هذه الأمور في محاكمة زوندل الأولى في تورنتو، لقوا هزيمة منكرة. ونتيجة لهذه الهزيمة المدويَّة وما حل بهم من كوارث قبل أو بعد عام 1985م، اضطر المدافعون عن فرضيَّة الإبادة اليهوديَّة إلى التخلّي عن تاريخ أوشفتز القائم على الشهادات، وألزموا أنفسهم في الوقت الحالي باستبداله بأساس علمي أو على الأقل، بأساس يبدو علميًا في استناده إلى البحث والقرائن

العمليَّة. لقد انتَهى تاريخ أوشفتز الذي يستند فقط إلى شهود على شاكلة إيلي فيزل وكلود لانزمان. لقد إنقضي زمانه، وظل الأمر متروكا للإباديين لكي يحاولوا العمل مثل المراجعين في مجال عرض الحقائق والقرائن.

المقصود بـ "غُرَف الغَاز" في هذه الدراسة هي "غُرَف الغَاز المخصصة للقتل الجماعي" أو "غُرَف الغَاز النازيَّة". أما كلمة "أوشفتز" فتشير إلى معسكر أوشفتز-1 وأوشفتز- ستاماجر وكذلك أوشفتز-2 أو بيركناو. أما عبارة "شهود غُرَف الغَاز" فالمقصود بها الإشارة دون تمييز، إلى أولئك الذين يزعمون أنهم شاركوا في إعدام السجناء بالغاز في تلك المعسكرات، وأيضًا أولئك الذين يعترفون عن طيب خاطر بأنهم شاهدوا أو عرفوا بوجود "غُرَف الغَاز" هناك. وخلاصة الأمر أنني أقصد بـ "الشهود" أولئك الذين يشار إليهم عادة بكونهم كذلك، سواء أكانوا شهودًا أمام القضاء أو أمام أجهزة الإعلام. الفصيلة الأولى من هؤلاء أقسم أفرادها اليمين في إطار الإجراءات القضائيَّة، بينما قدم أفراد الفصيلة الثانية شهاداتهم في الكتب والمقالات المنشورة في الصحف والمجلات أو في الأفلام أو محطات الإذاعة والتليفزيون. وفي كثير من الأحيان جمع بعض الشهود بين الشهادة أمام القضاء وأجهزة الإعلام.

ولا تقيم هذه الدراسة أي اعتبار للعوامل النفْسيَّة أو الإجتماعيَّة وراء الاعترافات الخاصة بـ"غُرَف الغَاز" في أوشفتز، كما تخلو من أي

اعتبارات تتعلق بما هو فيزيائي وكيميائي وطوبوغرافي ومعماري ووثائقي وتاريخي والتي دونها لا يمكن قبول هذه الشهادات. فهذه الدراسة تهدف أساسا إلى أيضّاح نقطة واضحة لم ترد من قبل في كتابات المراجعين رغم أهميتها القصوى: فحتَّى عام 1985، لم يسبق أن تعرض الشهود على "غُرَف الغَاز" لفحص شهاداتهم واستجوابهم المضاد فيما يتعلق بالطبيعة الماديَّة لأقوالهم، بينما تمكنت أنا في تورنتو خلال محاكمة زوندل الأولى عام 1985م، من فرض مناقشة الشهود واستجوابهم بشأن شهاداتهم وهو ما أدي إلى إنهيارهم. ومنذ ذلك التاريخ، لم يتم تقديم أي شاهد من شهود "غُرَف الغَاز" أمام القضاء، ربما باستثناء محاكمة ديميانيوك في إسرائيل حيث انكشف مجددا زيف الشهادات.

وسوف أبدأ بالتطرق إلى الأسباب المؤلمة التي أدت منذ عام 1983م إلى اعتراف سيمون فيل Simon Veil بعدم وجود شهود على "غُرَف الغَاز".

(ملحوظة: سيمون فيل هي وزيرة العدل الفرنسيَّة السابقة والرئيسة السابقة للبرلمان الأوروبي).

2- فرضيّة سيمون فيل

بعد نهاية الحرب، أصبح الوهم بوجود شهود عديدين على "غُرَف الغَاز" في أوشفتز مقبولاً تدريجيًا. وفي نهاية السبعينيات، مع

وصول المراجعة التاريخيَّة إلى ساحة الإعلام خاصة في فرنسا، بدأ يسري الإعتقاد بأن هؤلاء الشهود ربما لم يكونوا بهذه الكثرة كما كان يُعتقد. وهكذا، وخلال الاستعداد لنظر القضيَّة الكبرى التي رفعتها المنظمات اليهوديَّة ضِدّي في أوائل الثمانينيات، واجه محاموهم، خاصة المحامي روبير بادينتيه، الذي سيصبح فيما بعد وزيرا للعدل في فرنسا، مصاعب جمة في العثور على الأدلة والشهود. وقد ذهب مساعدوه إلى بولندا وإسرائيل في محاولة للعثور على ما فشلوا في العثور عليه في فرنسا. ولكن كانت الحصيلة صفرًا.

نُظرت قضيتي الأولى عام 1981م ثم أعقبها نظر الاستئناف عام 1983م. ولم يجرؤ أي شاهد على الظهور أمام المحكمة. وفي 26 أبريل عام 1983م، أصدرت محكمة باريس للاستئناف حكمها. وطبيعي أنَّها وجدتني مذنبا كما كان متوقعا "بالتسبب في الإضرار بالآخرِين"، أو بمعْنَى أصح، الإضرار باليهود عن طريق عرض أفكاري وآرائي في الصحافة العامة. غير أن المحكمة أضافت إلى حكمها هذا بعض الملاحظات التي كانت كافية لأن تصيب خصومي بالذهول، فقد حكمت بأن أبحاثي متماسكة ولكنها خطيرة، خطيرة لأنَّها في نظر المحكمة، أتاحت الفرصة للاستغلال من جانب آخرين لتحقيق أهداف تستحق الإدانة. ومع ذلك فقد وجدت المحكمة أنه ليس من الممكن العثور في أبحاثي على أي إهمال أو تهور أو جهل عدواني أو أكاذيب، على العكس مما أكده

خصومي الذين اتهموني بـ"الإساءة للآخرين عن طريق تزييف التاريخ".

وفيما يتعلق بالشهادات مضت المحكمة قائلة في حكمها:

"لقد تناولت أبحاث السيد فوريسون موضوع غُرَف الغَاز التي استخدمت خلال الحرب العالميّة الثانية- حسب ما تقوله شهادات متعددة، في القتل المنظم لشريحة من الأشخاص الذين تم ترحيلهم من جانب السلطات الألمانيَّة".

ولخصت المحكمة بشكل دقيق ما أطلقت عليه "الخيط المنطقي" و"الإستنتاج العقلي"بتحديد وجهة نظري التي تتلخص في التالي:

"إن وجود غرف غازٍ كتلك التي يتم وصفها منذ عام 1945م، يتناقض مع اعتبارات تؤكد الاستحالة التامة لوجودها وتكفي في حد ذاتها لهدم كلّ الشهادات أو على الأقل لإلقاء الشكّ عليها".

وأخيرًا، توصلت المحكمة إلى استنتاج عملي من هذه الاعتبارات، مؤكدة على حق كلّ فرنسي في ألَّا يؤمن بالشهود أو الأدلة على "غُرَف الغَاز" (كان هذا قبل صدور قانون فابيوس-جيسو عام 1990م الذي يجرم هذا النوع من الآراء- المترجم) عندما قالت:

إن قيمة إستنتاجات السيد فوريسون (فيما يتعلق بمشكلة غُرَف الغَاز) مطروحة أمام الخبراء والمؤرخين والجمهور".

وبعد أسبوعين، تصدت سيمون فيل لقرار المحكمة علانية غاضبة لنفْسها ولرفاقها في الدين، بإعلان في غاية الأهميَّة. فبعد أن أقرت بغياب أي دليل أو آثار أو حتَّى شهود على "غُرَف الغَاز"، أضافت أن هذا الغياب يرجع إلى أن "إن الجميع يعرفون أن النازيين قاموا بتدمير "غُرَف الغَاز" والتخلص التام من الشهود".

وبدايةً أري أن عبارة "إن الجميع يعرفون" لا ترقى إلى مستوى اللغة التي يستخدمها شخص يعمل في القانون. وفضلاً عن هذا، فقد أساءت سيمون فيل عرض قضيتها في حين كانت تعتقد أنَّها تقدم ما يدعم مزاعمها، بإثبات ليس فقط وجود "غُرَف الغَاز" بل وأن الألمان قاموا بتدميرها وتصفية كلّ الشهود عليها: وجريمة بهذا الحجم تجعل المرء يتساءل: بموجب أي أمر، ومتي، ومع مَن، وبأيّ الوسائل نفذها الألمان وبهذا القَدْر الكبير مِن السريَّة.

ولكن ماذا يهم؟ سوف نأخذ في اعتبارنا تراجع سيمون فيل عندما أقرت بغياب دليل أو أثر أو شهود على "غُرَف الغَاز". وما حدث هو أن سيمون فيل في محاولة منها لطمأنة دائرتها، صاغت تراجعها في لغة تقليديَّة. لذا، نقتبس هنا نص كلماتها من الحديث الصحفي الذي أجرته معها مجلة "فرانس سوار"(عدد 7 مايو 1983م، صفحة 47) بعنوان "تحذير سيمون فيل فيما يتعلق بمذكرات هتلر: إننا نخاطر بتهميش الإبادة":

"إن ما يصدمني اليوم هو مأزق الوضع الحالي: ينشر شخص ما مذكرات تنسب لهتلر بالدعاية الهائلة والمال الوفير دون أن يتخذ احتياطيات كافية فيما يبدو، للتأكد من أصالة هذه المذكرات. ورغم ذلك، وفي الوقت نفْسه، من خلال القضيَّة المرفوعة ضِدَّ فوريسون لإنكاره وجود "غُرَف الغَاز"، فإنَّ على أولئك الذين رفعوا القضيَّة التقدم بدليل رسمي على وجود "غُرَف الغَاز". ومع ذلك يعرف الجميع أن النازيين قاموا بتدمير "غُرَف الغَاز" وإبادة الشهود بصورة منتظمة".

ليس من الممكن أن نفسر بسهولة ما توصلت إليهسيمون فيل بكلّ نتائجه، استنادًا إلى كارثة واحدة هي تلك التي وقعت في 26 أبريل 1983م (أي يوم صدور حكم المحكمة في قضيَّة فوريسون – المترجم)، ولكن باستعراض سلسلة الأحداث التي جعلت عام 1982م بالنسبة لها عاما أسود فيما يتعلق بتاريخ "غُرَف الغَاز" ومصداقيَّة الشهود عليها. وسوف أرجع هنا إلى ثلاثة أحداث:

في 21 أبريل 1982م، أسس مؤرخون وسياسيون وسجناء سابقون في المعسكرات الألمانيَّة إتحادا في باريس، هدفه البحث عن دليل على وجود وتشغيل "غُرَف الغَاز" النازيَّة (وأطلقوا على هذا الاتحاد إسم "اتحاد دراسة القتل بالغاز تحت النظام الاشتراكي الوطني). وبعد سنة واحدة، لم يكن هذا الاتحاد قد عثر على أي دليل (ولا يزال الوضع كذلك وأنا أكتب هذا المقال في 1993م،

وما يزال الاتحاد قائما رغم أن من المفروض حله لأن القائمين عليه وضعوا في قانونه الأساسي نصا يقول "إن هناك حدا زمنيا لتحقيق هدفه").

في مايو 1982م، افتتح وزير شؤون المحاربين القدماء معرضا في باريس بعنوان "معرض الترحيل: 1933م-1945م". وكان من المفترض أن يستمر هذا المعرض ويتجول في أرجاء فرنسا. وعلى الفور أرسلت نصا أوضحت فيه المغالطة التي وقع فيها هذا المعرض عندما فشل في تقديم أي دليل حقيقي أو شهادة دقيقة تدلل على وجود "غُرَف الغَاز" النازيَّة. وإضافة إلى هذا، بادرت السيدة جاكوبز المسؤولة عن المعرض وممثلة للوزارة بإلغاء المعرض.

من 29 يونيو إلى 2 يوليو 1982م عقد بجامعة السوربون مؤتمر بعنوان "ألمانيا النازيَّة وإبادة اليهود" أعلن أنه جاء كردٍ على هجوم المراجعين في فرنسا. وكان من المفترض أنْ ينتهي هذا المؤتمر بمؤتمر صحفي صاخب، إلَّا أن ما حدث كان مختلفا تمامًا: في اليوم الأول قمنا بتوزيع نسخ من دراستي في الرد على بيير فيدال ناكيه في بهو مدخل السوربون (ليس دون مخاطرة من جانبنا)، وكان المؤتمر ينعقد وراء أبواب مغلقة في مناخ مضطرب. وأخيرًا خلال المؤتمر الصحفي، لم يستطع منظما المؤتمر الرئيسيان وهما المؤرخان فرنسوا فيوريه وريمون أرون ذكر كلمتي "غُرَف الغَاز".

ودائما ما أقول إنه في ذلك اليوم أي في الثاني من يوليو 1982م، ماتت أسطورة "غُرَف الغَاز" وشهودها أو دخلت طور الاحتضار، على الأقل على مستوى البحث التاريخي. فقد اكتشفوا في قلب السوربون بشكل مزعج، غياب أي دليل مادي وأي شهود ذوي قيمة. ورغم ذلك كان منظمو المؤتمر قد رددوا بتبجح أن هذا المؤتمر سيضع نهاية لـ "حماقة فوريسون" بتقديم أدلة وشهادات لا حصر لها. وجاء الصمت في نهاية المؤتمر يفضح تلك الجعجعة.

3- شهادة فاينزيلبرج - يانوفسكي Fajnzylberg-Janowski المكتوبة:

لقد ذكرت سابقا أنه أثناء محاكمتي لم يخاطر أي شاهد بالظهور أمام المحكمة. وفي اللحظة الأخيرة قدم خصومي شهادة مكتوبة من يهودي كان يعيش في باريس ولكنهم منعوه عن قصد من الظهور أمام المحكمة. كان هذا اليهودي ألتر صامويل فاينزيلبرج المشهور. وهو من مواليد ستوكيك في بولندا، في 23 أكتوبر 1911م. هذا النادل السابق وهو يهودي ملحد، كان مندوبا سياسيا للحزب الشيوعي في الألوية الدوليّة التي عملت في إسبانيا، وقد سجن لمدة ثلاث سنوات في أوشفتز- بيركناو.

وفي شهادته المختصرة المكتوبة، يقرر أساسا أنه كان يعمل في محرقة أوشفتز، وأنَّه قضى وقتًا طويلاً محبوسًا مع زملائه في غُرفَة الفحم، وأنه شاهد الضباط الألمان من الإس. إس وهم يسوقون

اليهود داخل غُرفَة الغاز المجاورة، وأنهم كانوا يحتاطون للأمر بأن يحبسوا معاونيهم اليهود (السوندركوماندوز أو الذين يسوقون أقرانهم) في غُرفَة الفحم حتَّى يضمنوا أنه لا يوجد شاهد يهودي على القتل داخل غُرفَة الغاز. وبعد أن تكتمل عمليَّة القتل بالغاز، كان الألمان يطلقون سراح المتعاونين اليهود ويجبرونهم على حمل جثث الضحايا وحرقها. و كان الألمان بالتالي يخفون الجريمة ثم يكشفون نتائجها!

هذا الشاهد الخفي معروف أيضًا باسم ألتر فينسيلبر وستانيسلاف ياكوفسكي، أو كاسكوفياك. وبوسع المرء أن يقرأ شهادته في شكل آخر في كتاب "يوميات أوشفتز".

4- نسف الشهود في محاكمة زوندال الأولى (1985م):

النصر المهم الذي حققه المراجعون في فرنسا في 26 أبريل 1983م سوف يعيد نفْسه في 1985م مع محاكمة إرنست زوندل الأولى في تورنتو. وأريد أن أتمعن قليلاً في هذه المحاكمة لكي نفهم تأثيرها على كلّ وجهات النظر، خاصة ما يتعلق بـ"غُرَف الغَاز" في معسكر أوشفتز: فللمرة الأولى منذ نهاية الحرب العالميَّة الثانية، يخضع الشهود اليهود للاستجواب المضاد cross examination وفضلاً عن ذلك، ودون محاولة للتقليل من أهميَّة محاكمة زوندل الثانية في 1988م، أود أن يكون مفهوما أن محاكمة 1985م كانت تحتوي

بالفعل على بذور كلّ ما تحقق في 1988م، بما في ذلك تقرير لوشتر وكلّ التقارير العلميَّة التي جاءت فيما بعد إنطلاقا منه.

في عام 1985م وأيضًا في عام 1988م، عملت مستشارا لإرنست زوندل ومحاميه دوجلاس كريستي. في 1985م، قبلت تلك المسؤوليَّة الثقيلة بشرط واحد هو أن يخضع كلّ الشهود اليهود للمرة الأولى للاستجواب المضاد وفحص شهاداتهم وتدقيقها، دون رحمة وبشكل مكشوف. وكنت قد لاحظت أنه من 1945م إلى 1985م ظل كلّ الشهود اليهود يتمتعون بالحصانة الفعلة. ولم يسبق لأي محام أن فكر أو تجرأ على توجيه أسئلة لهم تتعلق بالتفسير المادي لغُرَف الغَاز (الموقع بدقة، الشكل المادي، الأبعاد، التصميم الداخلي والخارجي)، أو عن عمليَّة القتل بالغاز (الإجراء العملي من البداية للنهاية، الأدوات المستخدمة، الاحتياطيات التي اتخذها الجلادون قبل وأثناء وبعد الإعدام). وفي أحوال نادرة، كما في محاكمة تيستش وروسين وفينباخر، كان المحامون يوجهون أسئلة غير مألوفة ذات طبيعة ماديَّة لكنها لم تكن عائقا أمام الشهود. إلَّا أنَّ هؤلاء المحامون ظلوا واقفين على هامش الأسئلة الأكثر جوهريَّة وعمقا التي كان يتعين عليهم توجيهها.

لم يطالب محام واحد بأيضًاحات حول سلاح الجريمة الذي لم يشاهده أحد ولم يعرضه أحد قط. وفي محاكمات نورمبرج الكبرى (45-1946م) اتبع المحامون الألمان أقصى درجات الحذر فيما

يتعلق بهذه النقطة. وفي محاكمة أيخمان في القدس عام 1961م، لم يشأ المحامي الدكتور روبرت سيرفاتيوس طرح أسئلة حول الموضوع. وفي خطاب عن هذا الموضوع بتاريخ 21 يونيو 1974م كتب لي قائلا: "أيخمان نفْسه لم ير أي غُرفَة غاز، ولم يناقش السؤال ولكنه أيضًا لم يتطرق لموضوع وجودها". وفي محاكمات فرانكفورت 1963م-1965م، أثبت المحامون أنهم جبناء. ويجب أن أذكر أن المناخ كان عدائيا بالنسبة للدفاع والمتهمين. هذه المحاكمة الاستعراضيَّة ستظل وصمة عار في جبين العدالة الألمانيَّة. فخلال 180 جلسة، قبِل القضاة والمحلفون، المدعي العام والمحامون والمتهمون، وكذلك الصحفيون الذين أتوا من شتّى أرجاء العالم، قبلوا جميعا وكتجسيد مادي كامل لسلاح الجريمة، مجرد خريطة لمعسكر أوشفتز وخريطة لمعسكر بيركناو حُددت عليها خمسة أشكال هندسية ضئيلة باعتبارها مواقع "غُرَف الغَاز" الخمس المزعومة.

هاتان الخريطتان عرضتا في قاعة المحكمة. وقد ظل المراجعون دائما يقارنون محاكمات فرانكفورت بمحاكمات الساحرات التي دارت لمدة قرنين بين 1450 و1650. ومع ذلك، فعلى الأقل خلال تلك المحاكمات، اهتم أحدهم بوصف أو رسم طقوس الساحرات. أما في فرانكفورت، حتَّى من بين المحامين الذين بذلوا جهدا كبيرا مع شاهد مثل فيليب موللر، لم يطلب أحدهم من أي شاهد يهودي أو أي ألماني من المتهمين التائبين، أن يصف له بالتفصيل الشديد ما زعم أنه

شاهده. ورغم القيام بزيارتين إلى مكان الجريمة في أوشفتز بصحبة بعض المحامين الألمان، لا يبدو أن أحدا من المحامين أصر على أي تفسير تقني أو شهادة خبراء في القتل بالغاز بالنسبة لسلاح الجريمة. على العكس، فقد كان أحدهم- وهو المحامي أنتون رينرز من فرانكفورت، معجبا بنفْسه لدرجة أنه وقف أمام المصورين الصحفيين يرفع غطاء الفتحة التي قيل إن رجال الإس. إس الألمان كانوا يصبون منها حبيبات الزيكلون داخل غُرفَة الغاز المزعومة.

في تورنتو عام 1985م قررت أخيرًا أن أستبعد ذلك الوضع الشاذ، وأن أحطم التابو وأطرح، أو أجعل كريستي يطرح أسئلة للخبراء اليهود وللشهود كما يفعل المرء عادة في كلّ محاكمة يفترض أن يؤسس فيها المرء ما إذا كانت جريمة ما قد ارتكبت، وما إذا كان الأمر كذلك، كيف ومتي.

ولحسن الحظ فقد قبل إرنست زوندل شروطي ووافق دوجلاس كريستي على تبني هذا التكتيك وطرح على الخبراء والشهود الأسئلة التي زودته بها. وكنت على قناعة بأن هذه الطريقة قد تغير كلّ شيّء، وأن من الممكن تمزيق القناع المنسوج من شهادات عديدة زائفة. وبينما لم أكن أعول كثيرا على تبرئة زوندل وكنا جميعا على استعداد لدفع ثمن جرأتنا، كان يراودني الأمل بأنه بمساعدة هذا الرجل ذي النظر البعيد ومحاميه الشجاع، فإنّ زوندل سيتحول أخيرًا إلى أسطورة.

ومن اللحظة الأولى للاستجواب المضاد، سرت رعشة رعب بين صفوف الادعاء. وكنت أسهر كلّ ليلة وأقوم بإعداد الأسئلة التي يمكن توجيهها للشهود، وفي الصباح أقوم بتسليم الأسئلة مصحوبة بالوثائق للمحامي دوجلاس كريستي الذي كان يتولي الجوانب القانونيَّة الضروريَّة بمساعدة زميلته. وقد احتفظت بمقعد قريب من المحامي خلال استجواباته المضادة وظللت أزوده بملاحظاتي وتنقيحاتي للأسئلة المكتوبة على أوراق صفراء باستمرار حسب رد فعل الشهود الذين يتم استجوابهم.

وتعرض الشاهد الكير راؤول هيلبرج مؤلف كتاب "تدمير اليهود الأوروبيين" للمهانة يوما بعد يوم، حتَّى أنه عندما استدعى للشهادة عام 1988م، في محاكمة زوندل الثانية، رفض العودة للشهادة خوفا من تعرضه مجددا لأسئلة دوجلاس كريستي كما شرح في رسالة بعث بها إلى ممثل الادعاء.

وقد اتضح من استجواب راؤول هيلبرج بشكل نهائي، أن لا أحد يملك أي دليل على وجود أمر أو خطة أو تعليمات أو ميزانيَّة كدليل على الإبادة المزعومة لليهود. وفضلاً عن ذلك، لا يملك أحد أي تقرير لخبير في الجريمة، ولا أحد يملك دليلاً على وجود سلاح الجريمة سواء كان غرف غاز أو شاحنات قتل بالغاز، أو أي تقرير للطب الشرعي بعد تشريح جثة أو أكثر للتأكد من وقوع القتل

بالغاز السام. ورغم غياب دليل على سلاح الجريمة هل كان هناك شهود على الجريمة؟

يجب دائما فحص الشهادة ومطابقتها. وتتمثل أولي خطوات هذه المطابقة في مواجهة الشهود بنتائج التحقيق أو آراء الخبراء فيما يتعلق بالطبيعة الماديَّة للجريمة. في هذه القضيَّة، لم يكن هناك تحقيق ولا آراء خبراء بالنسبة لغُرَف الغَاز المزعومة في أوشفتز. وهذا ما جعل أي استجواب مضاد صعبا. ومع هذا لا يجب أن تمثل هذه الصعوبة مبررا للتقاعس، بل إنَّ الاستجواب المضاد لا غنى عنه، فدونه لا تبقى هناك أي طريقة لمعرفة ما إذا كان الشاهد يروي الحقيقة أم لا.

5- استجواب الشهود اليهود أخيرًا: فريدمان وفيربا:

بالنسبة لأولئك الذين يرغبون في معرفة الجوانب التقنيَّة والوثائقيَّة التي ساعدتنا في استجواب الشاهدين الرئيسيين: أرنولد فريدمان ودكتور رودلف فيربا، ليس هناك أفضل من مراجعة نص المحاكمة المنشور عام 1985م، وتغطي الصفحات من 304 إلى 371 استجواب أرنولد فريدمان الذي انتَهَى إلى الاعتراف بأنه لم ير شيئا في الحقيقة، وأنه تكلم عما سمعه، لأنه، طبقا لما قاله، قابل أشخاصا مقنعين، وأضاف أنه ربما كان سيتبني رأي المحامي كريستي وليس رأي هؤلاء الأشخاص إذا كان قد التقى به في ذلك الوقت واستمع إلى رأيه الذي يقوله الآن.

(ملحوظة المترجم: يسبق استعراض شهادة د. رودلف فيربا في الفصل الوارد في هذا الكتاب بعنوان "شاهد على محاكمات الهُولُوكُوسْت الكُبْرَى").

6- تخلّي الادعاء عن استدعاء الشهود:

بعد ثلاث سنوات، في عام 1988م، خلال محاكمة زوندل الثانية، وجد الادعاء أن من الحكمة أن يَتخلّى عن استدعاء الشهود. لقد استوعب القضاء الكندي درس المحاكمة الأولى: أي عدم وجود شهود لهم مصداقيَّة يمكن أن يعول عليهم فيما يتعلق بوجود وآليَّة عمل "غُرَف الغَاز".

وتدريجيا، تعلمت كلّ دول العالم الدرس نفْسه. في محاكمة كلاوس باربي في فرنسا عام 1987م، كان هناك حديث حول "غُرَف الغَاز" في أوشفتز ولكن لم يتقدم أحد بشهود يمكنهم الحديث عنها. وفضل المحامي فيرجاس، وهو شجاع لكنه ليس أحمق، أن يتفادي الموضوع. وكانت تلك ضربة حظ لليهود الذين لا يخشون شيئا بَقَدْرِ ما يخشون أن يروني إلى جانب فيرجاس. ولو كان هذا المحامي قد قبل نصيحتي بأن أعمل مستشارا له لكنا قد تمكنا في توجيه ضربة إلى أسطورة "غُرَف الغَاز" في فرنسا.

وخلال محاكمات عديدة للمراجعين في فرنسا، جاء شهود يهود أحيانًا لتأكيد وجود "غُرَف الغَاز" لكن لم يشهد أحد منهم أمام

المحكمة بأنه شاهد واحدة منها أو شارك في عمليَّة القتل بالغاز السام.

وقد أصبح الشهود على "غُرَف الغَاز" نادرين تمامًا اليوم، وساهمت محاكمة ديميانيوك في إسرائيل في تأكيد غياب الشهود بعد أن كشفت زيف الشهادات التي عرضت في القضيَّة (ملحوظة المترجم: كان قد تم اعتقال ديميانيوك، وهو من أصل أوكراني هاجر إلى أمريكا، وقد تمت تبرئته وأعيد إلى الولايات المتحدة مرة أخرى بعد أن كان قد تم ترحيله منها إلى إسرائيل لكي يواجه المحاكمة بتهمة التعاون مع النازيين في قتل اليهود في غُرَف الغَاز).

وبعد عدة سنوات، تصادف أنني كنت أجلس في الصفوف الخلفيَّة في إحدَى المحاكم، وأخذ بعض اليهود المسنين يستجوبونني بشراسة بعد أن قدموا لي أنفسهم باعتبارهم "الدليل الحي على "غُرَف الغَاز" في أوشفتز" مشيرين إلى الوشم المنقوش على أذرعهم. وكان يكفي أن أطلب منهم التطلع مباشرة إلى وأن يصفوا لي إحدَى "غُرَف الغَاز"، لكنهم أجابوا على الفور: "كيف يمكننا أن نفعل ذلك ؟ إذا كنا قد شاهدنا غُرفَة غاز لكان الألمان قد قضوا علينا على الفور". وهذا يعيدنا مجددا إلى سيمون فيل وتصريحها في 3 مايو 1983م الذي نعرفه الآن.

7- شهود الإعلام:

بعيدا عن الشهود القضائيين، هناك شهود الإعلام على "غُرَف الغَاز" أو القتل بالغاز في أوشفتز وبيركناو. هنا يفكر المرء في أسماء مثل روجا لينجايل وجيسلا بيرل وفانيا فينيلون وأوتا كاروس وهرمان لونجبين وأندريه ليتيش وصمويل بيزار وموريس بيندروبي وأندريه روجيري وروبرت كلاري... وتمتلئ مكتبتي بشهادات كثيرة تكرر نفْسها طوال الوقت. لقد كان بول راسينييه أول من أوضح لنا كيف يمكن كشف زيف هذه الشهادات. لقد فعل ذلك بالنسبة لأوشفتز في كتابه "محاكمة أيخمان الحقيقيَّة أو المنتصرون الفاسدون" (دار الألوان السبعة، 1962م)، حيث يخصص الملحق الخامس لتناول كتاب "طبيب في أوشفتز" الذي يروي فيه ميكلوس نيزلي شهادته المزعومة.

من الخمسينيات إلى الثمانينيات، ساهم المراجعون في إجراء عشرات الدراسات النقديَّة للشهادات. واليوم، يبدو لي أن هذا الجهد قد أصبح غير ضروري. دعونا نمتنع عن مطاردة سيارات الإسعاف، وأن نترك نقد هذا النوع من الأدب للإباديين أنفسهم، وخاصة جان كلود بريساك، لأنه يثبت كما يستطيع المرء أن يؤكد حتَّى الآن، أن أكثر المعادين للمراجعة التاريخيَّة خطورة ينتهون بوضع أنفسهم في مدرسة المراجعة. والنتيجة أحيانًا جديرة بالسخريَّة.

في عام 1991م، أعلنت مطبوعة دوريَّة بعنوان "المرحلون إلى الحريَّة" صادرة عن "الاتحاد الوطني لجمعيات المرحلين والسجناء وأسر المفقودين"على غلافها، أنَّها "تنشر في الصفحات الأخيرة من هذا العدد، الجزء الأول من شهادة هنري بيللي، أحد الذين تمكنوا بشكل نادر من الهرب من حراس "غُرَف الغَاز". وفي الحلقة التي نشرت في نوفمبر 1991م، استمر بيللي في تقديم شهادته عن تجربته في أوشفتز تحت عنوان "قصتي المدهشة".

ومع ذلك، ففي الملحق الذي صدر من المطبوعة نفْسها في ديسمبر 1991م-يناير 1992م، نشرت الدوريَّة "توضيحا يتعلق بإقحام نص هنري بيللي في مطبوعتنا". لقد كشف مدير تحرير المطبوعة ورئيس تحريرها التزييف، ففي الجزء الأكبر من شهادة هنري بيللي "نسخ السيد بيللي كلمة كلمة، ودون أي إشارة في الهوامش، (خاصة الفصول 7 و 21) من كتاب "طبيب في أوشفتز"لميكلوس نيزلي الذي صدر عام 1946م وترجم ونشر عام 1961م في فرنسا عن دار رينيه جوليار للنشر. ولسوء الحظ، أنه كرر الأخطاء التي وقع فيها الدكتور نيزلي. وأخيراً، كانت أكثر الأجزاء التي استعارها هي الأجزاء التي تصف وظيفة المتعاونين اليهود مع النازيين في أوشفتز وبيركناو الذين يعلن السيد هنري بيللي [بشكل مخادع] أنه كان يعمل معهم.. ونتيجة هذا التحليل ليس من الممكن بأي حال، اعتبار نص هنري بيللي نصا أصليا وشهادة شخصيَّة".

ويدرك القارئ اليقظ لهذا التصريح أن عبارة "لسوء الحظ، أنه كرر الأخطاء التي وقع فيها الدكتور نيزلي" قد تسمح للمرء بأن يدرك أن الأسوأ من هذا كلّه، أن بيللي، وهو تاجر يهودي تافه، أعاد نسخ شهادة هي نفْسها شهادة زائفة. وكما ذكرت من قبل، فقد أثبت بول راسينييه منذ وقت طويل، أن كتاب "طبيب في أوشفتز"- وهو كتاب عزيز لَدَى جان بول سارتر الذي نشر عام 1951م أجزاء منه في مجلة "الأزمنة الحديثة"- ليس سِوى أحد أكثر أعمال الدجل. وقد أكد هذه الفرضيَّة منذ ذلك الحين كثير من المراجعين وبوجه خاص كارلو مونتوجنو. أما بالنسبة لي، فقد ضمنت تقريري في الرد على كتاب جان كلود بريساك "أوشفتز: آليَّة وعمل غُرَف الغَاز" (مؤسسة كلارسفيلد، نيويورك 1989م)، قسما بعنوان "المهرج بريساك غير الاضطراري ميكلوس نيزلي". وقد أوصيت المهتمين بالشهادات المزيفة عن أوشفتز، بقراءة هذا القسم، تلك الشهادات المزيفة التي يحاول الصيدلي بريساك الدفاع عنها بأي ثمن عن طريق الالتفاف والتلفيق والإشاعات المغرضة، ويفقدها بالتالي مصداقيتها تمامًا.

8- الشاهدان المزيفان: إيلي فيزل وبريمو ليفي:

بالنسبة للشاهد إيلي فيزل، فقد خصصت له موضوعا بعنوان "إيلي فيزل: شاهد زائف بارز" في ربيع 1988م (راجع الفصل الخامس من هذا الكتاب).

أما بريمو ليفي Primo Levi فقد رفعته أجهزة الإعلام عاليا كواحد من أهم الشهود على "غُرَف الغَاز" في أوشفتز. إنه مؤلف كتاب "إذا كان هذا هو الإنسان"، دار جوليار برس، طبعة الجيب، 1993م).

الجزء الأول من هذا الكتاب هو أطول أجزائه وأهمها، فهو يتكون من 180 صفحة وقد كتبه عام 1947م. ويقول المؤلف في الصفحة 19 إنه عرف بأمر القتل بالغاز في بيركناو بعد الحرب، وكان هو نفْسه يعمل في معسكر مونامونوفيتز ولم يسبق أن وطأ بقدميه معسكر بيركناو. ويتحدث في كلمات شديدة الغموض ولكن ست مرات، عن "غُرفَة" الغاز. وفي مرة واحدة فقط يتحدث عن "غُرَف الغَاز". وهو راض لدرجة أنه يذكرها بالمفرد وكإشاعة كان "الجميع يتكلمون عنها". وفجأة في الملحق الذي أضافه إلى الكتاب عام 1976م، أي بعد ثلاثين عاما، أصبح تعبير "غُرَف الغَاز" تعبيرا متكررا، وفي 26 صفحة يمكن اعتبارها 30 صفحة إذا ما أخذنا في الاعتبار الحجم المضغوط للحروف الذي صفت فيه، يذكر المؤلف "غُرَف الغَاز" أحد عشر مرة: مرتان في صفحة 198، وثلاث مرات في صفحة 199، ومرة واحدة في صفحة 201، ومرتان في الصفحات: 202 و209، ومرة واحدة في صفحة 210. في مناسبتين يتحدث المؤلف عن "الغاز"، ويتحدث تسع مرات عن "غُرَف الغَاز" (دائما في صيغة الجمع). إنه يكتب كما لو كان قد

شاهد "غُرَف الغَاز" حقا: "لقد كانت غُرَف الغَاز مموهة فقد كانت تظهر مثل غُرفَة استحمام وتوجد فيها مواسير وصنابير وأماكن لنزع الملابس ومشاجب للمناشف ومقاعد خشبيَّة"(صفحة 198). ولا يخشَى ليفي عندما يضيف: "لقد أقيمت غُرَف الغَاز والمحارق عمدا لقتل ملايين البشر، والمعسكر الأكثر رعبا في هذا المجال هو معسكر أوشفتز الذي كان يقتل فيه 24 ألف شخص في اليوم الواحد خلال شهر أغسطس 1944م" (الصفحتان 201- 202).

كان بريمو ليفي مهندسا كيميائيا. وبالنسبة لما أصابه من اضطراب أو هذيان من وجهة النظر العلميَّة كما يتضح من خلال كتابه "إذا كان هذا هو الإنسان"، من الضروري مراجعة كتاب بيير مارياس "قراءة متأنية لكُتَّاب شوا الأسطوريين: بريمو ليفي، جورج ويللرز، جان كلود بريساك" (دار المرفأ القديم،1991م)، وأنظر بوجه خاص الفصل المعنون "الكيميائي وبطاريَّة الشاحنة وغُرَف الغَاز"، وهو الفصل الذي يتعلق ببريمو ليفي (صفحة 7- 21).

انتحر بريمو ليفي في الحادي عشر من أبريل عام 1987م. وبسبب تشبثه بيهوديته لم تقتله الميليشيا الفاشيَّة في 13 ديسمبر عام 1943م وكان عمره وقتذاك 24 عاما. "لقد قبض عليه الفاشيون باعتباره أحد رجال المقاومة (كان ما زال يحمل مسدسا)، وقال إنه يهودي حتَّى لا يقتلونه على الفور. وهكذا في دور اليهودي تم تسليمه للألمان. وأرسله الألمان إلى أوشفتز.."(فريديناندو كامون:

"الكيمياء. ليفي. الموت"، صحيفة ليبراسيون، 13 أبريل 1987م، صفحة 29).

1994م

كم عدد الموتَى في "أوشفتز"؟

* **9 ملايين شخص:** حسب فيلم "ليل وضباب" (1955م) الذي عمل فيه المؤرخان هنري ميشيل وأولجا وورمسر ميجوت كمستشارين تاريخيين "1".

* **8 ملايين شخص:** حسب المكتب الفرنسي للبحث في جرائم الحرب ومركز معلومات جرائم الحرب الفرنسي (1945م) "2".

* **7 ملايين شخص:** حسب ما أورده رافاييل فيجلسون (1945م) "3".

* **6 ملايين يهودي:** حسب ما ذكره تيبير كريمر، كاتب مقدمة كتاب ميلكوس نيزلي (الصادر عام 1951م) "4".

* **من خمسة ملايين إلى خمسة ملايين ونصف مليون شخص:** حسب برنارد زارديون (1945م)، وحسب الاعترافات المنسوبة لبعض ضباط الإس. إس الألمان وصحيفة لوموند (1978م) التي أضافت "وكان 90% منهم من اليهود" "5".

* **4 ملايين ونصف مليون شخص:** حسب هنريك ماندلباوم (1945م) "6".

* **4 ملايين شخص**: حسب وثيقة سوفيتيَّة اعتمدتها محكمة نورمبرج العسكريَّة. وتم تعلق تسع عشرة لوحة تحمل هذا الرقم على متحف معسكر أوشفتز بلغات مختلفة. وقد كرر هذا الرقم عدد من المؤرخين المعروفين من بينهم المؤرخ البولندي فرنشيسك بايبر. وفي عام 1990م استبدلت هذه اللوحات بلوحات أخرى تحمل رقم مليون ونصف مليون شخص باعتماد السيد بايبر نفْسه الذي اعتبر أن هذا الرقم هو الحد الأقصى، بينما قال إن الحد الأدنى هو مليون ومائة ألف شخص. وحسب ما ذكرته ميريام نوفيتش (1967م) فقد مات أربعة ملايين شخص من بينهم 2 مليون وسبعمائة ألف يهودي. وحسب الحاخام موشيه فايز (1991م) مات أكثر من أربعة ملايين شخص في معسكر أوشفتز من بينهم ثلاثة ملايين يهودي"7".

* **ثلاثة ملايين ونصف مليون شخص**: حسب قاموس اللغة الفرنسيَّة الصادر عن دار "هاشيت"(1991م). وذكر كلود لانزمان (عام 1980م) أن ثلاثة ملايين ونصف مليون شخص قتلوا في غُرَف الغَاز 95% منهم من اليهود، وقتلت أعداد أخرى بوسائل أخرى "8".

* **ثلاثة ملايين شخص:** قتلوا حتَّى الأول من ديسمبر 1943م حسب الاعتراف الذي انتزع من رودلف هيس، القائد السابق لمعسكر أوشفتز "9".

* **ثلاثة ملايين يهودي في غُرَف الغَاز:** حسب ما أورده ديفيد سسكند (1986م) وحسب ما نشرته مجلة "هيريتاج" Heritage أهم مجلة يهوديَّة في كاليفورنيا (1993م) "10".

* **مليونان ونصف مليون شخص:** حسب شهادة رودلف فيربا في محاكمة أيخمان (1961م) "11".

* **من 2 إلى 4 مليون شخص:** حسب يهودا باور (1982م) "12".

* **من 2 إلى 3 ملايين يهودي إضافة إلى عدة آلاف من غير اليهود:** حسب اعترافات منسوبة للضابط الألماني في القوات الخاصة الألمانيَّة (الإس. إس) بيري برود "13".

* **من مليونين إلى مليونين ونصف شخص:** حسب اعترافات منسوبة لطبيب الإس. إس الألماني دكتور فريدريك أنتريس (1945م) "14".

* **2 مليون شخص**: حسب ما ذكره المؤرخ ليون بولياكوف (1951م)، والمؤرخ جورج ويللرز (1973م) والمؤرخة لوسي دافيدوفيدش (1975م) "15"

* مليون و600 ألف: حسب المؤرخ يهودا باور (1989م)، الذي يقول إن مليونا و980 ألف و352 منهم كانوا من اليهود"16" (الرقم الأخير من جورج ويللرز، 1983م).

* **مليون ونصف مليون شخص**: هذا الرقم اختاره الزعيم البولندي ليش فاونسا لكي يحل محل رقم الأربعة ملايين الذي تم التراجع عنه عام 1990م، وقد وضع الرقم رسميًا على متحف "أوشفتز"عام 1995م "17".

* **مليون و471 ألف و595 شخص**: منهم مليون و352 ألف و980 يهودي حسب المؤرخ جورج ويللرز (1983م) "18".

* **مليون و250 ألف** منهم مليون يهودي قتلوا وأكثر من ربع مليون من غير اليهود حسب المؤرخ راؤول هيلبرج "19".

* **ما بين مليون ومليون ونصف شخص**: حسب المؤرخين يسرائيل جوتمان ومايكل برينباوم وفرانشيسك بايير (1994م) "20".

* **مليون شخص**: حسب جان كلود بريساك (1989م) وقاموس الأسماء الصحيحة الصادر عن دار هاشيت (1992م) "21".

* **من 800 ألف إلى 900 ألف شخص**: حسب المؤرخ جيرالد ريتلنجر (1992م) "22".

* **من 775 ألف إلى 800 ألف شخص**: حسب جان كلود بريساك (1993م) منهم 630 ألف يهودي قتلوا في غُرَف الغَاز "23".

* **من 630 ألف إلى 710 ألف شخص**: حسب جان كلود بريساك (1994م) منهم ما بين 470 ألف إلى 550 ألف يهودي قتلوا في غُرَف الغَاز "24".

والرقم الأخير حسب ما أعرف، هو أقل الأرقام التي طرحها المؤمنون بوجود عمليَّة إبادة منظمة لليهود. ويقال أحيانًا إنه في 46-1947م كان الرقم الذي أعلنته السلطات البولنديَّة هو 300 ألف قتيل، لكن هذا خطأ، فالسلطات البولنديَّة قدَّرت عدد الموتَى في معسكر "أوشفتز" بـ 300 ألف من الأشخاص الذين سُجلوا عند وصولهم إلى المعسكر، لكنها أضافت إلى ذلك من ثلاثة إلى أربعة ملايين شخص لم يتم تسجيلهم "25".

وخلال أكثر من أربعين سنة، أخفت السلطات البولنديَّة والسوفييتيَّة والألمانيَّة الشرقيَّة أي معلومات تشير إلى وجود سجلات للوفيات في المعسكر وهي السجلات التي كانت محفوظة طوال سنوات الحرب لَدَى ادارة معسكر أوشفتز. وتحت ضغوط المراجعين أثناء وقائع محاكمة إرنست زوندل (في تورنتو عامي 1985م و1988م)، أعلنت تلك السلطات بعد انتظار طويل، بعض تفاصيل تلك السجلات. وقد أكدوا أن السجلات التي في حوذتهم تغطي فقط الفترة من 27 يوليو 1941م إلى 31 ديسمبر 1943م. ولأن المعسكر أفتتح في 20 مايو 1940م وأخلاه الألمان في 18 يناير 1945م، فإنَّ تلك الفترة تمثل أكثر قليلاً من نصف الفترة التي ظل فيها المعسكر قائما تحت الإدارة الألمانيَّة. ويبلغ عدد السجلات المستعادة 46 سجلا، وتشمل 69 ألف إسم (وليس 74 ألفا كما ورد في بعض التقارير الصحفيَّة) "26".

وقد أضطر أنصار التفسير الرسمي للهُولُوكُوسْت أمام تحديات المراجعين إلى مراجعة الأرقام المطروحة باستمرار في اتجاه تقليل أعداد الذين ماتوا في معسكر أوشفتز.

كيف يمكن تفسير غياب الحقيقة من السجلات القضائيَّة لمحاكمات نورمبرج (45-1946م) بفضل البند الحادي والعشرين من ميثاق إنشاء المحكمة نفْسها؟ وكيف يمكن تفسير دعوة كبار الشخصيات العالميَّة أمثال البابا يوحنا بولص الثاني في الاحتفالات

الرسميَّة للركوع أمام أكذوبة من أكاذيب المحتالين؟ وكيف يمكن تفسير أن تسلح فرنسا نفْسها في عام 1990م بقانون مناهض للمراجعة التاريخيَّة يحظر أي خلاف حول ما أطلق عليه وتم تعريفه في محاكمات نورمبرج بكونه "جرائم ضِدَّ الانسانيَّة"؟ وإذن كيف يمكن الإبقاء على عدد الموتَى اليهود خلال الحرب العالميَّة الثانية بأسرها في حدود من خمسة إلى ستة ملايين شخص دون أي مراجعة أو إعادة نظر رغم أنه أمكن إعادة النظر إلى هذا الحد في رقم الموتَى في أوشفتز؟

يفسر بعض اليهود الأمر اليوم بقولهم إن البولنديين وحدهم هم الذين اخترعوا أكذوبة رقم الـ 4 ملايين ضحيَّة، وإنهم، أي البولنديون ويدافع من العداء للساميَّة والتعصب القومي معا، أضافوا حوالي مليوني ونصف مليون من البولنديين أو من جنسيات أخرى إلى نحو مليون ونصف مليون يهودي"27".

هذا التفسير ما هو إلَّا محض تضليل، فالحقيقة هي أنه مع نهاية الحرب ظل الشيوعيون اليهود والسلطات القضائيَّة في بولندا تكرر باستمرار أن أغلبيَّة الذين ماتوا في أوشفتز كانوا من اليهود. وفي كراكوف عام 46-1947م في قضيَّة رودلف هيس، توصلت سلطات التحقيق القضائي والادعاء إلى أنه إلى جانب مئات الآلاف من الموتَى "المسجلين"، قتل في أوشفتز إما 4 ملايين أو

على الأقل مليونان ونصف مليون شخص "معظمهم من اليهود" "28".

وخلال شتاء 63-1964م شيد نصب تذكاري خاص تحيَّة لذكْرَى "ملايين اليهود من الشهداء والمقاتلين" الذين أبيدوا في هذا المعسكر، وكانت الكلمات المنقوشة على ذلك النصب باللغات البولنديَّة واليديشيَّة والعبريَّة "29".

وأخيرًا دعونا نضيف أن مؤرخي "الهُولُوكُوسْت" يتفقون على أن معظم الذين "قُتلوا" في أوشفتز قتلوا بالمبيد الحشري زيكلون ب. وعند آرثر بوتز وغيره من المراجعين، ربما يكون العدد الكلّي للموتى في معسكر أوشفتز قد بلغ 150 ألف شخص من بينهم 100 ألف يهودي "30".

والحقيقة أن معظم اليهود "ماتوا" ولم "يُقتلوا"، أساسا بسبب وباء التيفوس. ويوضح المراجعون أنه إذا كان قد توفر لَدَى الألمان كميات أكبر من المبيد الحشري زيكلون ب لمقاومة تلك الأوبئة، لكان عدد الموتَى قد انخفض كثيرا عن ذلك الرقم، ليس فقط من الموتَى اليهود بل والبولنديين والروس وغيرهم من السجناء، بل وأيضًا من بين الأطباء والموظفين والحراس الألمان.

وكانت الكتابة المنقوشة على النصب التذكاري في أوشفتز حتَّى عام 1990م كالتالي:

"لقد عاني أربعة ملايين شخص وماتوا على أيدي المجرمين النازيين خلال الفترة من 1940م و1945م".

وقد أصبحت الكتابة المنقوشة على نفْس النصب التذكاري عام 1995م كالتالي:

"لعل هذا المكان الذي قتل فيه المجرمون النازيون مليون ونصف مليون رجل وامرأة وطفل معظمهم من اليهود من بلدان أوروبيَّة مختلفة، يصبح للأبد صرخة رجاء وتحذير للإنسانيَّة. *

ملحوظة: الهوامش والملاحظات الواردة فيما بعد هي جزء لا يتجزأ من هذه الدراسة التي لا تعد أكثر من بداية متواضعة لاستعراض الإجابات التي وردت أو فرضت فرضا السؤال التالي: "كم عدد الذين ماتوا في أوشفتز"؟ ويسهل ذكر آلاف المصادر الأخرى، ولكن صعوبة العمل تتلخص في أن التقديرات لا تقوم على أسس واضحة، ففي بعض الحالات نجد أن الأرقام تشير إلى عدد اليهود الذين "قُتلوا" أو "سُمموا بالغاز"، وفي حالات أخرى يجري التقدير على أساس "الموتي"، أو "الضحايا" دون تفرقة بين "اليهود" و"غير اليهود". وأحيانًا تنحصر التقديرات في فترة زمنيَّة محددة فقط. وقد تحاشيت التفسيرات المتعددة التي قد تكون قد بنيت على رقم معين في فترة محددة من تاريخ معسكر أوشفتز.

ديسمبر 1995م

* مِن بين المؤرخِين الذين يُحافظون على فرْضيَّة أنَّ معسكر أوشفتز كان مُعسْكرًا للإبادة، تَبرز دراسات الفرنسيّ جورج ويللرز حول عَدد الموتَى في المعسْكر التي نَشرها عامي 1983م و1990م، ودراسات بول فرانشيسك بايبر المنشورة في 1991م و1992م و1994م على التوالي.

* جورج ويللرز: "مُحاولة لتقدير عَدد الموتَى في مُعسْكر أوشفتز"، مجلة "لوموند جويف"، أكتوبر-ديسمبر 1983م، و"حَوْل عَدد الموتَى في مُعسْكر أوشفتز"، "لوموند جويف"، أكتوبر-ديسمبر 1990م.

* فرانشيسك بايبر: "تقدير عَدد المرَحّلين إلى مُعسْكر أوشفتز-بيركناو وضحاياه"، دراسات معهد ياد فاشيم، المجلَّد الحادي والعشرين (1991م).

1) "ليلٌ وضباب" فيلم أبيض وأسود، 32 دقيقة، فُرِض عَرْضه في كلّ المدارس الثانويَّة والجامعات الفرنسيَّة وكذلك في التليفزيون الفرنسيّ طوال الأربعين عامًا الماضية. والفيلم مِن إخراج آلان رينيه، المستشارون التاريخيُّون: هنري ميشيل (رئيس لجنة تاريخ الحرب العالميَّة الثانية) وأولجا وورمسر ميجوت. كَتَب النصّ: جان كايرول. حَصَل على جائزة جان فيجو 1956م. في هذا الفيلم يَقول التعليق الصوتي إنَّه "لا يُوجد أيّ فَرقٍ بين غُرفَة الغَاز والمبنى العاديّ". ويَعرض الفيلم السقف المسلَّح لغُرفَة الغَاز "الذي تَآكل بِفِعْل الأظافر" ويُضيف مُعلِّقًا على هذا بقوله "حتَّى الجدران تَآكلتْ". ويُؤكِّد الفيلم أنَّ الجُثث كانت تُستخدَم في صناعة الصابون، وأنَّ الألمان كانوا يَقومون بدَبْغ جِلْد الموتَى كما نَرى في الصور. هذه القصص عن الجدران المتآكلة والصابون البشري ما هي سِوى جُزءٍ مِن مُكوّنات الأُسْطورة. وعندما تُتابع الكاميرا الفضاء

الطبيعيّ المحيط بمُعسْكر بيركناو يَقول التعليق الصوتي: "إنَّ أرواح تِسْعة ملايين مَيِّتٍ تَسْكن هذا الفضاء".

2) جاك بيلييه، مدير مركز معلومات جرائم الحرب: وثائق أُسْتُخدِمتْ في كتابة تاريخ الحرب وتاريخ معسكرات الاعتقال، طبعة عام 1945م صفحة 7 (جاك بيلييه نفْسه) وكذلك صفحة 196 (سلسلة مِن تقارير مكتب أبحاث جرائم الحرب)، وهذه التقارير تُقدِّر عدد الذين ماتوا في كلّ معسكرات الاعتقال في ألمانيا والدول التي احتلتها، مِن أسرى الحرب والسجناء السياسيين، بستة وعشرين مليون شخص، صفحة 197. التقرير من إعداد يوجين أرونيو.

3) المصْدر السابق: صفحة 196.

4) في مقدمته لنصٍّ منسوبٍ لميكلوس نيزلي بعنوان "طبيب الإس. إس دكتور منجل: مذكرات طبيب مِن نزلاء معسكر أوشفتز" كتب تيبير كريمر: "لقد ذهب ستَّة ملايين بريئ عبر مداخن الأفران في أوشفتز لأنَّ أحد أجدادهم القريبِين أو البعيدِين كان ينتمي للديانة الإسرائيليَّة". مجلة "الأزمنة الحديثة"، مارس 1951م، صفحة 1655.

5) برنار تشارديون في محاكمة رودلف هيس في كراكوف حسب ما أورده فرنشيسك باير في المصْدر الذي سَبَقتْ الاشارة إليه عام 1992م. وللاعترافات المنسوبة لبعض ضباط الإس. إس الألمان، راجِع المصْدر نفْسه، صفحة 8. "تظاهرة الذكْرَى في باريس أمام النصْب التذكاريّ للشهداء اليهود" (لوموند، 20 أبريل 1978م).

6) هنريك ماندلباوم خلال محاكمة رودلف هيس في كراكوف، حسب ما ذكره باير، المصْدر نفْسه، 1992م، صفحة 7.

7) مِن عام 1945م إلى عام 1990م، فُرِض رقْم الأربعة ملايين هذا فرضًا كما لو كان بِقُوَّة القانون. وهذا الرقْم منقولٌ مِن وثيقةٍ سوفييتيَّةٍ بتاريخ 6 مايو 1945م، وقد أُعْتُمِدتْ هذه الوثيقة ودخلت سِجلَّ مُحاكمَات نورمبرج كوثيقةٍ قانونيَّةٍ بفضل المادة 21 مِن ميثاق إنشاء المحكمة. وهي تظهر في الصفحات 241-261 مِن المجلَّد 39 الخاص بالإجراءات الرسميَّة ووثائق محاكمة كبار مجرمي الحرب أمام المحكمة

العسكريَّة الدوليَّة في نورمبرج، 14 نوفمبر 1945م – 1 أكتوبر 1946م. وقدْ تُرجِمَ النصّ الروسيّ الأصليّ للوثيقة إلى الألمانيَّة، وكانتْ تلك الترجمة إلى الألمانيَّة هي التي نُشرتْ في الطبعة الفرنسيَّة. وتقول خُلاصَة المحتوى المنشور في أعلى الوثيقة: "لقد قُتِل أربعة ملايين شخصٍ في مُعْسكر أوشفتز "للإبادة"، وكانوا قدْ رُحلّوا مِن الدول التي تحتلُّها ألمانيا، وقُتِل معظمهم بالغازات السامّة بمجرد وصولهم إلى المعسكر (صفحة 241). والحقيقة أنَّ الوثيقة نفْسها تقول في نصّها باللغة الألمانيَّة: "ليس أقل مِن أربعة ملايين شخْص قُتِلوا بالغاز السامّ في أوشفتز"، وفي النصّ الإنجليزيّ "أكثر مِن أربعة ملايين شخصٍ مِن الدول التي كانت تحتلّها ألمانيا قُتِلوا بالغاز بمجرد وصولهم إلى أوشفتز". وبسبب كثرة عَدد الذين أكَّدوا رقْم الأربعة ملايين، يُمكن البَدء بأسماء السجناء السابقين أمثال شلومو دراجون وتاوبير وأروين أولسوفكا، ومِن بين المحققين هناك يان سين، ومن ممثلي الادعاء بيشالسكي، وأستاذ الهندسة رومان دافيدوفسكي، إلى جانب قضاة المحكمة الشعبيَّة العليا في بولندا وممثلي الادعاء في المحاكم العسكريَّة الأمريكيَّة، وكافة أنواع المؤلفِين والكُتّاب والمؤرِّخين والمسؤولِين عن متحف معسكر أوشفتز، مثل كازيميريز سمولين وداونتا تشيك وفرانشيسك بايبر.

8) الغريب أنَّ معظم محامي الدفاع عن المتهمين في محاكمات نورمبرج أيَّدوا موقف الادعاء، وهكذا، أعلن دكتور جوستاف شتاينباور محامي أرثر سياس- إنكوارت في 19 يوليو 1946م، أمام المحكمة: "لقد ابتلع أوشفتز وحده ثلاثة ملايين ونصف مليون إنسان من النساء والرجال والأطفال". وردَّد قاموس هاشيت الرقْم نفْسه في طبعة عام 1991م، وفي العام التالي خَفَّض هاشيت عدد الذين قُتِلوا في غُرَف الغَاز إلى مليون شخْص.

9) في أبريل 1946م، وقَّع رودلف هيس، أول قائدٍ مِن ضمن ثلاثة قواد لمعسكر أوشفتز، شهادةَ بالإنجليزيَّة في سجنه بنورمبرج أمام الليفتنانت كولونيل الأمريكي سميث بروشارت، تقول: "لقدْ أدرت معسكر أوشفتز حتَّى الأول من ديسمبر عام 1943م، وأقدِّر عَدد الضحايا الذين

أُعدموا وأُبيدوا هناك بالغاز والحرق بمليوني ونصف مليون شخصٍ على الأقل، إضافةً إلى نصف مليون شخْص آخر على الأقل ماتوا بفعل المجاعات والأمراض، وهو ما يجعل العدد الإجمالي ثلاثة ملايين شخص". وقد ظل رودلف هيس هو الشاهد الأول الذي يَعتد به الإباديّون في إثبات وقوع "الهُولُوكُوسْت" إلى أنْ صَدر عام 1983م في لندن كتاب "فيالق الموت"LEGIONS OF DEATH تأليف روبرت بتلر، وفيه يكشف بتلر الستار عن التعذيب الشديد الذي تعرَّض له رودلف هيس، على أيدي سجَّانيه اليهود الذين ينتمون للمخابرات العسكريَّة البريطانيَّة، ويَعترف مؤّلفه بفخرٍ بأنَّه شخصيًّا مَارَس إذلال هيس وتعذيبه، لكي ينتزع مِنه الاعترافات التي أُرغِم على التوقيع عليها. وقد كَشف البروفيسور روبير فوريسون في دراسته "كيف حصل البريطانيون على اعترافات رودلف هيس" تفصيلاً، تزييف الاعترافات مِن خلال تناقضاتها وما تَعرَّضت له مِن حَذْفٍ واستبدالٍ وإضافَة. وفي عام 1993م ورَدًا على سؤالٍ لصحفيٍّ يهوديٍّ حول ما كتبه فوريسون، قال المؤَّرخ الأمريكيّ (الإباديّ) كريستوفر براونغ: "كان هيس دائمًا شاهدًا ضعيفًا جدًّا ومُشوَّشًا". ولم يتردَّدْ المؤرخ نفْسه في القول: "لهذا السبب يَستخدمه المراجِعُون طوال الوقت مِن أجل محاولة التشكيك في ذِكرَى أوشفتز ككلّ". (كريستوفر هيتشنز: "أيُّ تاريخٍ هذا؟"، مجلة "فانيتي فير"، ديسمبر 1993م، صفحة 117.

10) في خِطابٍ منشورٍ في صحيفة "لونوفيل أوبسرفاتور" بتاريخ 30 مايو 1986م، كَتَب ديفيد سسكند، رئيس مركز بروكسل للطائفة اليهوديَّة العلمانيَّة يقول: "عندما يُذكَر رقْم مليون ونصف مليون يهوديّ، فإنَّ هذا مرةً أخرى تزييفٌ للأرقام. لقد أُبيد ثلاثة ملايين يهوديٍّ في أوشفتز-بيركناو". وفي افتتاحيَّةٍ مُخصَّصة لذكْرَى أوشفتز، قالت مجلة "هيريتاج"Heritage أكبر مجلَّة أسبوعيَّة يهوديَّة في كاليفورنيا: "لقد أُستخْدِمتْ كمّيّاتٍ هائلةٍ مِن حبيبات "زيكلون ب" السامة للإجهاز على حياة ثلاثة ملايين يهوديٍّ في أوشفتز"(7 يونيو 1993م). ويُشير هذا التأكيد إلى ما تَتَّصف به المجلة اليهوديَّة المذكورة مِن لامبالاة كاملة،

فقد كانت الصحافة العالميَّة تُردِّد لمدة ثلاث سنوات قبل ذلك، أنَّ هذا الرّقم يُعتبر مِن قبيل المبالغة الهائلة.

11) "وبالتالي، وعلى أساس حساباتي الخاصَّة، فإنَّ العدد النهائيّ لضحايا معسْكر أوشفتز، يَبلغ 2 مليون ونصف مليون شخص"، هذا ما قاله رودلف فيربا تحت القَسَم في السفارة الإسرائيليَّة في لندن، كجزءٍ مِن شهادته في محاكمة أيخمان في القدس في 16 يوليو 1961م. وكان فيربا من الوقاحة عندما قال إنَّ هذا الرقم يتفق مع ما ذكره رودلف هيس في محاكمات نورمبرج، في حين ذكر هيس رقم ثلاثة ملايين شخص، قُتلوا حتَّى الأول مِن ديسمبر 1943م، دون أنْ يُقدّم أيّ تقديراتٍ لعدد الموتَى خلال الأربعة عشر شهرًا التاليَة لذلك التاريخ. فقد قال فيربا في شهادته: "وهكذا تتفق تقديراتي لعدد الموتَى في أوشفتز مع تقديرات رودلف هيس، ورغم أنَّ كلاً مِنّا أجرى حساباته وتقديراته بشكلٍ مُستقلٍّ عن الآخر وباستخدام وسائل مُختلفة، فقد جاءت النتائج متّفقة" (رودلف فيربا وألان بيستك: "لا يمكنني أن أُسامِح"، نيويورك 1964م، صفحة 269-272).

12) مِن المحتمل أنْ يكون هذا التقدير لعدد الموتَى في أوشفتز مِن جانب يهودا باور قد جاء مُتسقًا مع ما كتبه عام 1982م، عن الذين قُتلوا بالغاز فقط، فقد كَتب يقول: "في الفترة مِن أبريل 1942م ونوفمبر 1944م، أُبيد بالغاز السام 2000 شخصٍ من الغجر (في 1944م) وبضع مئاتٍ مِن الأسرى السوفييت، وما بين مليون ونصف مليون إلى ثلاثة ملايين ونصف مليون يهوديّ" (تاريخ الهُولُوكُوسْت"، نيويورك 1982م، صفحة 215). وفي عام 1989م، أي بعد سبع سنوات، قدَّر يهودا باور عدد الموتَى (بالغاز وغير الغاز) بمليون وستمائة ألفٍ، مِنهم مليون و352 ألف و980 يهوديّ (أُنْظر الهامش رقم 16).

13) يُفترَض أنْ يكون ضابط الإس. إس بيري برود عضو القسم السياسيّ (المسمي الجستابو) في المعسكر قد كَتب: "لقد قُتِل في أوشفتز مِن مليونين إلى ثلاثة ملايين شخص، إضافةً إلى آلاف مِن البولنديِين

والروس والتشيك واليوغسلاف.. إلخ" (معسكر أوشفتز كما يراه ضُبّاط الإس. إس، 1973م).

14) "ذكر طبيب الإس. إس فريدريك انتريس، الذي خَدم كطبيبٍ للمعسكر عام 42-1943م، أنَّ عَدد الذين قُتِلوا في أوشفتز يبلغ مِن مليونين إلى مليونين ونصف مليون شخص" (فرانشيسك بايير، المصْدر السابق، 1992م).

15) "سوف نكتفي -بدافع الاحتراز- برقْم 2 مليون ضحيَّة (في أوشفتز)" (ليون بولياكوف "حصاد الحقد"،1974م). أمَّا لوسي دافيدوفيتش فيبدو أنَّها تقصد 2 مليون "يهودي" حسب ما ورد في كتابها "الحرب ضِدَّ اليهود: 1933م-1945م"، نيويورك 1975م.

16) "لم يكنْ هناك قَطّ أربعة ملايين ضحيَّة في أوشفتز [...]. إنّ العدد الكلّي للذين ماتوا هناك [...] في حدود مليون و160 ألفًا [...]. أمَّا عدد اليهود الذين قُتلوا في غُرَف الغَاز فيبلغ مليون و132 ألفًا، إضافةً إلى 80 ألفًا و299 ماتوا في المعسكر" (يهودا باور: "أوشفتز والبولنديّون.. الكفاح ضِدَّ التشويه"، جيروزاليم بوست، عدد 2 سبتمبر 1989م، صفحة 6). ويقول المؤلف إنَّه يأخذ في اعتباره هنا تقديرات جورج ويللرز عام 1983م، لكنَّه قام بتعديل الرقم الذي ذَكره ويللرز وهو مليون و471 ألف و595 إلى مليون و160 ألف ولمعرفة تقديره الشخصي عام 1982م أنْظر الهامش رقم 12.

17) كانت اللوحات التذكاريَّة المعلقة على متحف أوشفتز-بيركناو حتَّى 3 أبريل 1990م تحمل الكلمات التالية "هُنا، من 1940م إلى 1945م، عُذّب وأُغتِيل أربعة ملايين رجل وامرأة وطفل في إطار الإبادة الهتلريَّة". أمَّا النصّ الجديد الذي جاء بعد سنوات مِن المواربة فكان كالتالي: "لعلَّ هذا المكان، حيث اغتال النازيُّون مليون ونصف مليون رجل وامرأة وطفل، مُعظمهم مِن يهود الدول الأوروبيَّة المختلفة، يُصبح إلى الأبد صرخة تحذيرٍ يائسةٍ للإنسانيَّة" (لوك روزنفيج: "أوشفتز، بولندا والإبادة"، لوموند، 27 يناير 1995م، صفحة 1).

18) جورج ويللرز، المصْدر نفْسه، 1993م. للمقارنة مع تقديرات الكاتب نفْسه عام 1973م (أُنظر الهامش رقم 15).

19) أوشفتز [...] عدد [اليهود] الذين قُتلوا: مليون [...]. عدد غير اليهود الذين ماتوا في أوشفتز يمكن تقديره على أساس السجلات وعمليات الترحيل بما لا يتجاوز 250 ألف شخصٍ مُعظمهم مِن البولنديين" (راؤول هيلبرج "تدمير اليهود الأوروبيّين"، نيويورك 1985م، صفحة 895). وعند راؤول هيلبرج يبدو اليهود دائمًا وقد "قُتلوا"، بينما يبدو غير اليهود وقد "ماتوا".

20) "قُتل مليون ونصف مليون شخصٍ على الأقل في أوشفتز-بيركناو" (صفحة 11). "قُتل مليون و110 ألف شخْصٍ على الأقل أو ماتوا في المعسكر. ولكن إذا كان هذا الرقْم يُعتبر حدًّا أدنى، فما هو الرقم الذي يمكننا قبوله كحدٍّ أقصى نَظَرِيّ؟ [...] حوالي مليون و135 ألف [يهودي] ويصل العدد الكلّي لضحايا أوشفتز إلى مليون ونصف مليون" (صفحة 71-72). الجُمْلة مِن الصفحة 11 تظهر على خريطة ضِمن فصلٍ كَتَبه يسرائيل جوتمان بعنوان "أوشفتز: نَظرة كُلّيَّة". والجُمَل مِن صفحتي 71 و72 تَظهر في فصلٍ كَتَبه فرانشيسك بايبر بعنوان "عَدد الضحايا". (يسرائيل جوتمان ومايكل بيرنباوم: "تشريح معسكر الموت في أوشفتز"(1994م). كان العدد الذي ذكره بايبر من قبل يبلغ أربعة ملايين ضحيَّة (أنظر الهامش رقم 7).

21) "يُعتبر رقم الأربعة ملايين ضحيَّة الآن رقمًا "عاطفيًّا"ويجب أنْ يكون حَقًّا في حدود مليون شخص" (جان كلود بريساك: "أوشفتز: آليَّة وتشغيل غُرَف الغاز"، نيويورك 1989م، صفحة 264).

22) "الحقيقة الصارخة التي لا مَهرب مِنها هي أنَّ ما بين 800 ألف إلى 900 ألف انسان قد اندثروا في أوشفتز، في غُرَف الغَاز وفي معسكراته" (جيرالد ريتلنجر: "الحل النهائي"، لندن 1971م، صفحة 500).

23) "مجموع الموتَى: 775 ألفًا [لكنَّ هذا الرقم يُعاني مِن بعض الثغرات ولذا يجب الاحتفاظ برقم الـ 800 ألف ضحيَّة المستخدم حاليًّا". (جان كلود بريساك: محَارق أوشفتز/آليَّة القتل الجماعي"، إصدارات

المركز الوطنيّ للبحث العلمي، 1993م، صفحة 148. ولمعرفة تقديرات بريساك عام 1989 أُنْظر الهامش رقم 21 ولمعرفة تقديراته عام 1994م أُنْظر الهامش رقم 24.

24) "العَدد الكلّي للموتى هو مِن 631 ألفًا إلى 710 ألفًا [...] مِن الترجمة الألمانيَّة للكتاب المشار إليه في الهامش السابق.

25) أُنْظر فرانشيسك بايبر، المصْدر السابق الإشارة إليه، 1992م، صفحة 12-13، والإشارة إلى محاكمة هيس مِن وضع المؤلف.

26) "كتب الموت من أوشفتز"، متحف أوشفتز-بيركناو، 1995م.

27) في عام 1989م إتّهم يهودا باور "مسؤولي الدعاية البولنديين" بقوله "إنَّ بعض البولنديّين يَنشرون أرقامًا خاطئة [...] مِن أجل خَلْق أُسْطورة قوميَّة"، وأدانَ "المفهوم البولنديّ الذي يعتبر البولنديين الأمَّة المصْلُوبة، الأمَّة التي عَانت حقًّا في أوروبا" ("أوشفتز والبولنديون: الكفاح ضِدَّ التشويه"، جيروزاليم بوست، 22 سبتمبر 1989م، صفحة 6). وفي مقالٍ بصحيفة "ذي إندبندنت" البريطانيَّة (3 اغسطس 1990م) كَتب بن هلفجوت، رئيس مؤسسة ياد فاشيم (القدس) يقول: "إنَّ الرقم الذي روّج له النظام الشيوعيّ في بولندا، هو 2 مليون يهوديّ و2 مليون غير يهوديّ مُعظمهم مِن البولنديّين". وقال ليرمان وهو يهوديٌّ وعضوٌ في إدارة متحف أوشفتز التابع للدولة في بولندا "لقد حاول الشيوعيُّون تخليص أوشفتز مِن يهوديته" (قصَّة الشيوعيِّين الزائفة عن أوشفتز، مجلة فيلادلفيا إنكوايرر، 29 مارس 1992م).

28) أُنْظر هامش رقم "25". وإضافةً إلى ذلك يُلاحظ في قائمتنا المختصَرة للتقديرات المتباينة، أنَّ اليهود أنْفسهم عادةً ما يُبالِغون في أعداد أقرانهم اليهود الذين ماتوا في أوشفتز، بما يتجاوز رقم مليون ونصف مليون، لذا فهُم لا يملكون الحقّ في نَسْب مُبالغَاتهم إلى غير اليهود.

29) "في ذكْرَى ملايين الشهداء اليهود والمحاربين الذين أُبيدوا في معسكر أوشفتز-بيركناو على أيدي القتلة مِن الجنس الهتلري 1940م-1945م". هذا النصّ ظَهر على نصْب تذكاريّ، أُقيمَ

حسب ما يَذكر جان كلود بريساك في شتاء 63-1964م، ولذا فَقَد أزيل! (ج. ك. بريساك: أوشفتز: آليَّة وتشغيل غُرَف الغَاز"، نيويورك 1989م).

30) "إنَّني أشعر بالإطمئنان الكبير وأنا أضع الرقم الكلّي في حدود مائة ألفٍ إلى مائةٍ وخمسين ألفًا، وربّما كان الرقم الأول هو الأقرب إلى الدقّة [...]. إنَّ عدد الموتَى اليهود نتيجةً لأسبابٍ طبيعيَّة في أوشفتز يبدو أقل مِن مائة ألف" (آرثر بوتز في نقده لكِتاب "لماذا لم تظلم السماء؟ الحل النهائي في التاريخ" تأليف أرنو ماير، في نشرة معهد المراجَعَة التاريخيَّة، شتاء 1989م. وانْظر أيضًا "بعض الأفكار حول سقطات بريساك: ردٌ على النقد الكبير للمُراجَعَة التاريخيَّة"، المصدْر نفْسه، مايو-يونيو 1993م.

قضيَّة روجيه جارودي والقسّ بيير

بدأتْ قضيَّة روجيه جارودي في يناير 1996م، وقضيَّة القسّ بيير (آب بيير) في أبريل من العام نفْسه. وقد احتلت القضيتان مكانا بارزا في الإعلام إلى أن أُعلن عن تراجع القس بيير في الثالث والعشرين من يوليو. وقد تمثلت أكثر نتائج القضيتين إيجابيَّة في مقالين كتبهما المؤرخ جاك بايناك ونشرتهما صحيفة "لو نوفو كوتيديان" Le Nouveau Quotidien الصادرة في لوزان (في سويسرا) في الثاني والثالث من سبتمبر.

من المؤسف أن روجيه جارودي والقس بيير لم يبديا شجاعة أكبر، فمنذ أن بدأت الحملة الإعلاميَّة العنيفة ضِدَّهما في فرنسا، بدأ الإثنان في التراجع السريع. وأتاحت لهما وسائلهما الماليَّة وما تمتعا به من تأييد في بلدان أجنبيَّة لبعض الوقت، الابتعاد عن فرنسا، فقد ذهب الأول إلى العا لم العربي، والثاني إلى إيطاليا وسويسرا. ويجب ألَّا نقسو عليهما بسبب ذلك، فمن المهم أن نفهم إلى أي مدي تصل تلك الحملات الاعلاميَّة في عنفها، مما يجعل أكثر الرجال صلابة يشعرون بالخوف، خاصة إذا كانوا في مثل عمرهما. وحتَّى ذلك الوقت، كان كلّ منهما قد مر بتجارب قاسية في حياته. وكانا يعرفان جيدا معْنَى الكراهية، خاصة وأنهما مارسا تلك الكراهية تجاه

أعدائهما، فقد كان جارودي يعتبر أن غير الشيوعيين بل وحتَّى غير الستالينيين، ينتمون إلى فصائل أدنى من الانسان، بينما لم يبد القس بيير على مدار مسار نشاطه السياسي شعورًا بالتسامح مع خصومه. ورغم ذلك فقد ظل الرجلان يستمتعان بالتدليل في حياتيهما. ثم فجأة وفي عام 1996م، إنهارت الدنيا فوق رأسيهما.

الطبعة الأولى من كتاب جارودي

في ديسمبر 1995م نشر بيير جيلوم Pierre Guillaume مدير دار "المرفأ القديم" La Vieille Taupe كتاب "الأساطير المؤسسة للسياسة الإسرائيليَّة" لروجيه جارودي. ولتفادي عقوبات قانون فابيوس- جييسو Fabius-Gayssot توخي جارودي عندئذ أقصى درجات الحذر. وقد بيع الكتاب بسعر خاص منخفض "كمطبوعة خاصة مقصورة على أصدقاء نشرة "المرفأ القديم"La Vieille Taupe. ورغم أنه اعتمد في الجزء النقدي المراجع من الكتاب على الإقتباس من كتاباتي الشخصيَّة، إلَّا أنه تحاشي إظهار اسمي فلم لم يظهر إلَّا مرة واحدة فقط (في صفحة 119)، ثم وردت إشارة إلى "البروفيسور"ضحيَّة القمع المناهض لإعادة النظر في التاريخ، ولكن دون التطرق إلى سبب هذا القمع ودون أي إشارة إلى كتب وأعمال هذا البروفيسور.

يحتوي كتاب جارودي على نحو 230 صفحة، خُصص الجزء الأكبر منها للفصول التي تتناول الجوانب الدينيَّة والسياسيَّة، وهو ما يمكن أن يثير حنق بعض أتباع الديانة اليهوديَّة ومعظم الصهاينة. ولكن الصفحات التي أثارت غضب المنظمات اليهوديَّة وأجهزة الاعلام، في فرنسا أولا، ثم في الغرب عموما، هي 75 صفحة جاءت متأثرة بأدبيات مدرسة المراجعة التاريخيَّة، وهي تعتبر قلب الكتاب (الصفحات من 72 إلى 147). هذه الصفحات تتناول "أسطورة العدالة في نورمبرج" و"الحل النهائي" و"الشهادات" و"المحاكمات" و"سلاح الجريمة" (الذي يقال إنَّه "غُرَف الغَاز" النازيَّة) و"أسطورة الهُولُوكُوسْت". ويبدي المؤلف تشكّكه المخلص في "غُرَف الغَاز"، أي في اللب الأساسي للموضوع (صفحة 135). وقد كُتبت هذه الصفحات على عجل، وهي تتكون من عناصر مشتتة. وكان العرض مفككا ومليئا بالأخطاء. ومن الأخطاء البارزة في الكتاب مثلاً ما ينسبه المؤلف إلى المؤرخ البريطاني ديفيد إيرفنج David Irving، فقد كان حريا بجارودي أن يعرف أن إيرفنج ليس مرجعا صالحا سواء في موضوع "الهُولُوكُوسْت"، الذي لم يدرسه إيرفنج، ولا في موضوع مذكرات آن فرانك التي لم يقم قط بتحليلها، بل وكان مهملاً لدرجة أنه أخذ في اعتباره الإشاعة التي تأسست على سوء فهم خطير ومؤداها أن كاتب المذكرات شخص يدعي مائير ليفين.

ومع ذلك، ورغم كلّ جوانب القصور في كتاب جارودي لم يكن هناك مفر من أن يُغضب الكتاب المنظمات اليهوديَّة المصابة بالفعل بهاجس ظهور المراجعين في كلّ مكان، والتي عرفت في جارودي رجلاً لا تؤهله آراؤه السياسيَّة بأي حال لأن يكون "فاشيا". وفضلاً عن ذلك، كان جارودي، الذي تحول من البروتستانتيَّة إلى الكاثوليكيَّة قبل أن يعتنق الإسلام في الثمانينات، يطرح نفْسه دائما كخصم عنيد لأي شكل من أشكال العنصريَّة.

الطبْعة الثانيّة المُنقّحة

بدأت صحيفة Le Canard enchaine ("البطَّة المقيَّدة" وهي صحيفة يساريَّة أسبوعيَّة ساخرة) وصحيفة "لوموند"حملتهما في يناير 1996م، ثم بدأت المنظمات المناهضة للعنصريَّة إعداد العدة لرفع الأمر إلى القضاء. وأخذت أجهزة الإعلام الفرنسيَّة والعالميَّة تردد أصداء ضجيج "قضيَّة جارودي".

وفي 11 مارس، حاول بيير جيلوم، الذي يعمل بالنيابة عن جارودي، إستخدام قنواته المعهودة لطبع الكتاب كما وعد في نشرته "المرفأ القديم" La Vieille Taupe، ولكن هذه المرة للتوزيع العمومي. ولأسباب لست مطلعا عليها، رفضت المطبعة طبع الكتاب، فقام جارودي بطبعه بنفْسه كمنشور على نفقة مؤلفه samisdat.

وفي الثالث من أبريل طرح جيلوم نسخة من الكتاب "للتوزيع العام". وقد ظهر الكتاب مصحوبا بمقدمة وملحق يحتوي بوجه خاص، على قائمة بأسماء الكتب التي صدرت للمؤلف نفْسه أطلق عليها خطأ "بيبلوجرافيا"، أما النص الأصلي فقد تم تعديله بطريقة تخفف من طابعه النقدي المراجع، فقد حذفت منه بعض الفقرات وأضيفت فقرات أخرى وأعيدت كتابة فقرات ثالثة، ورغم هذا لم يتضمن الكتاب أي إشارة تنبه القارئ إلى أن هذه طبعة معدلة. وكانت تسع فقرات في صفحتي 119 و120 من الطبعة الأولى قد تعرضت لسياسة الصمت والاضطهاد المفروضة على مراجعي التاريخ البارزين، وهي الفقرات التي ذكرت أن إسمي ظهر في طياتها مرة واحدة مع أسماء أرثر بوتز وفيلهلم ستاجلتش، وقد اختفت هذه الفقرات في صفحتي 134-135 من الطبعة الثانية مفسحة المجال أمام استعراض المشاكل التي تعرض لها المؤلف، وهي في الحقيقة محدودة جدا، أولاً في عامي 82- 1983م بسبب موقفه المساند للفلسطينيين، ثم في أوائل عام 1996م بسبب الطبعة الخاصة المحدودة من كتاب "الأساطير المؤسسة..."التي صدرت عن دار "المرفأ القديم". واختفت تمامًا أسماء بوتز وستاجلتش وفوريسون من الكتاب. أما سيرج ثيون فلم يظهر إسمه، لا في الطبعة الأولى ولا في الطبعة الثانية، وهو ما يعتبر بالنسبة لكاتب مراجع صدرت أعماله عن دار "المرفأ القديم"أمرا شاذًا.

في الطبعة الأولى، آثر جارودي كتابة كلمة الإعلام بإضافة حرف t كالتالي mediat(s) (وهي إشارة تضامن مع أصدقاء بيير جيلوم المراجعين) [هذا الاستخدام مقصود منه السخرية من أجهزة الاعلام المتحيزة - المترجم]، أما في الطبعة الثانية فقد صحح جارودي كتابة الكلمة فكتبها media(s) دون t والواضح أنه لم يشأ أن يربط نفْسه بناشره المراجع.

دخول القس بيير

في الخامس عشر من أبريل كتب القس بيير خطابا طويلاً في تأييد صديقه جارودي، ظهرت منه في البداية بعض المقتطفات هنا وهناك، وكان يتعين على الجمهور الانتظار حتَّى شهر يونيو لمعرفة محتوياته الكاملة (أنظر فيما بعد "حق الرد" بقلم روجيه جارودي).

وعندي أن هذا المقتطف من الخطاب له دلالة خاصة، فقد جاء فيه:

"بالنسبة لكتابك الجديد، من المستحيل أن أتحدث عنه بكلّ الانتباه المطلوب، ليس فقط بسبب موضوعه الجوهري، بل ومعلوماته المدققة المدهشة أيضًا التي- كما استطعت أن ألاحظ وأنا أتفحصه، تنبني عليها كلّ المقدمات. ويحدثني أناس كثيرون حولي من الموثوق برجاحة عقولهم وكفايتهم وقد أكملوا قراءة الكتاب، عما وصل إليهم منه. إن من الضروري القيام بكلّ ما يمكن عمله، وسوف

أتأكد من ذلك بنفْسي، حتَّى يقبل المؤرخون الذين يؤمنون بالحقيقة مثلك عقد مناظرة معك في المستقبل القريب. إن الإساءات التي وُجهت إليك والتي إستمعت إليها أمر مخجل.

إننا نسمع عن إعتزام البابا في عام 2000م (هل سيكون نفْس البابا؟)، الاعتراف بالخطايا التاريخيَّة [ضِدَّ اليهود] التي صاحبت تعصب الإرساليات المسيحيَّة. وأرجو ألَّا يقلل البابا [في إعلانه المستقبلي] من الدور الذي لعبته كلمتا "قتلة المسيح" في إزكاء العداء للساميَّة، تلك الكلمات التي تفتقر إلى الحس لأن المسيح قدم نفْسه فداء للجميع، للبشريَّة بأسرها.

[...] يبقي من هذه السطور [...] تقديري المخلص واحترامي للعمل الكبير الذي يتمثل في كتابك. إن الخلط بينه وبين ما يُسمّى بـ"المراجعة" revisionism هو إحتيال وتشويه صريح من جانب الجهلاء".

الأمر الذي يتضح من خلال هذا الخطاب أن القس بيير إستمد معرفته بكتاب صديقه من خلال "تفحصه" فقط، وأنه يفرق بين نفْسه وبين أولئك الذين "أكملوا قراءة الكتاب"، وهذا حقه، فمن حقنا إبداء الحكم على كتاب بعد تصفحه بسرعة إذا كنا قد إعترفنا أولاً أننا لم نقرأ الكتاب بأكمله. لكن القس يبدو ساذجا أو أعمي عندما يتحدث عنه "كعمل كبير"ومختلف تمامًا عن "المراجعة"، فربما

يعتبر هو المراجعين حفنة من النازيين الذين ينكرون وجود معسكرات الاعتقال مثلا. أما في الحقيقة، فإنَّ أهم مادة في الكتاب تكشف بشكلٍ واضحٍ تمامًا عن طبيعتة المراجعة.

والفقرة المخصصة للإعلان البابوي المستقبلي لها أهميَّة خاصة، فهي تثبت أن القس بيير أبعد ما يكون عن معاداة اليهود، وأنه ليس من الممكن إتهامه- كما سيفعل كثيرون فيما بعد- بأنه مجرد كاثوليكي رجعي لم يستطع التخلص من آثار التعاليم التي تلقاها في شبابه والتي كانت مشبعة بالعداء لليهوديَّة.

القس بيير في منتصف خشبة المسرح

في الثاني من فبراير نشرت صحيفة "الصليب" La Croix مقالاً بقلم ميشيل كريبي بعنوان "نهاية جارودي"، الأمر الذي أغضب القس بيير من هذا الهجوم الموجه إلى صديقه.

وفي مؤتمر صحفي بتاريخ 18 أبريل كشف روجيه جارودي، في صحبة محاميه جاك فرجاس، أسماء أشخاص معروفين جيدا يؤيدون موقفه، من بينهم القس ميشيل لولون Lelong والكاتب السويسري جان زيجلر وكذلك القس بيير. وعلى طريقته الخاصة نشر نيكولاس ويل هذه المعلومات في صحيفة "لوموند"في 20 أبريل (ظهرت في باريس مساء 19 أبريل).

وعلى الفور قمت من جانبي بإرسال البيان التالي عن طريق الفاكس، إلى كلّ من "لوموند" و"ليبراسيون" و"وكالة الأنباء الفرنسيَّة" في 19 أبريل:

بيان صحفي

"لفت انتباهي في عدد لوموند بتاريخ 20 أبريل مقال نيكولاس ويل تحت عنوان "القس بيير يؤيد الإنحرافات الإنكاريَّة negationist لروجيه جارودي". وإذا افترضنا أن السيد نيكولاس ويل يقول الحقيقة، فإنَّني أسوق هنا ردي على محتوى هذا المقال:

1- إنني سعيد بمسارعة الكثيرين خلال الأشهر الماضية إلى تأييد النصر الذي حققته المراجعة التاريخيَّة.

2- إنني أستنكر أن يكون الأمر قد اقتضي من هؤلاء الإنتظار حتَّى عام 1996م قبل أن يبدأوا في استيعاب ما كان ينبغي أن يكون واضحا وضوحا تاما للعالم كلّه منذ عام 1979م، أي أن الإبادة المزعومة لليهود باستخدام "غُرَف الغَاز" النازيَّة أساسًا، ليست إلَّا أكذوبة تاريخيَّة. وأذكر أنني أكدت على إستحالة وجود تلك المذابح الكيميائيَّة. وفضلاً عن ذلك ففي "لوموند"، بتاريخ 21 فبراير 1979م، وقّع 34 مؤرخا فرنسيا بيانا مشتركا كان يرقي إلى مستوى الاستسلام. لقد ردوا على ردًا هزيلاً بقولهم "ليس من الضروري أن يتساءل المرء كيف كان ممكنا من الناحية العلميَّة وقوع

قتل جماعي من هذا النوع. فمن الناحية العلميَّة كان هذا ممكنا، طالما أنه وقع".

3- كالعادة فإنَّني أتوقع أن يحاول الأشخاص الذين ورد ذكرهم في مقال نيكولاس ويل التذرع بأنهم لم يقولوا حقا ما قالوه، ولم يكتبوا حقا ما كتبوه، وأتوقع أن يندفع هؤلاء الأشخاص أنفْسهم، فضلاً عن ذلك، إلأى الإعلان عن معاداتهم للنازيَّة (ويالها من شجاعة!).

4- إنني أجد أن هؤلاء الأشخاص يلفون ويدورون عندما يتعلق الأمر بهذا الموضوع، فمن الضروري تسمية الأشياء بأسمائها: إن الإبادة الجماعيَّة و"غُرَف الغَاز" مجرد أكذوبة. وأود أن أضيف أنني لو كنت يهوديا لكنت قد شعرت بالعار من قيام الكثيرين جدا من اليهود طوال نصف قرن بنشر أو المساعدة في نشر هذه الأكذوبة التي تبناها الإعلام في العالم كلّه.

روبير فوريسون

وفي اليوم التالي، ثم في الأيام التالية أيضًا، بدأ تراجع الأشخاص الخمسة المعنيين (روجيه جارودي والقس بيير وجاك فرجاس والأب لولون وجان زيجلر) عن موقفهم. فقد أدان جارودي "الفظائع الشاملة"، وقال إنه ليس من الممكن التشكيك في "الهُولُوكُوسْت" لأن معْنَى هذا أن الله كان مسؤولاً عن مذابح اليهود مع اعفاء

النازيين من المسؤوليَّة، وإضافة إلى هذا، ألم يتسبب النازيون في قتل 50 مليونا من البشر؟

وقال القس بيير إن هناك مبالغة كبيرة في عدد ضحايا معسكر "أوشفتز"، فقد ظل يتردد أن عددهم بلغ أربعة ملايين شخص إلى أن تم تعديل الرقم إلى مليون فقط (استقرت إدارة متحف أوشفتز في الواقع على رقم المليون ونصف مليون شخص كما سبق أن أوضحنا)، لكنه أدان "المنكرين والمراجعين باعتبارهم يروجون لنوع من الدجل الثقافي والأخلاقي الذي يجب مكافحته مهما كلّف الأمر".

المحامي جاك فرجاس من ناحيته، أعلن فيما يتعلق بكتاب جارودي أن "تصنيف هذا الكتاب في إطار المراجعة التاريخيَّة هو نوع من التضليل". ونأي الأب لولون بنفْسه عن الساحة، بينما أعلن زيجلر أن "المراجعة لا يمكن الحديث عنها لأنَّها كومة من القمامة".

وأغضب القس بيير "العصبة الدوليَّة لمكافحة العنصريَّة ومعاداة الساميَّة" (ليكرا) التي يرأسها بيير أدينباوم، بعد أن شجب الحملة التي تشنها، مؤكدا على حسن نوايا الكتاب. وقد أكد على ثقته في صديقه روجيه جارودي، وطالب بعقد مناظرة تجمع أصحاب الآراء المختلفة، وقال إنه إذا ثبت بالدليل القاطع أن صديقه مخطئ فسوف يعترف هو بخطئه في تأييده.

في السابع والعشرين من أبريل، نشرت مجلة "النقطة"Le point الأسبوعيَّة مقالاً دقيقًا عن المراجعة التاريخيَّة وعن القضيَّة بأسرها. واستشهد المقال بالبيان الصحفي الذي أصدرته في 19 أبريل. وانتَهَى المقال بعبارة كان القس بيير قد صرح بها لمجلة "الصليب" La Croix قال فيها: "لقد أصبح من غير المحتمل أن توجه على الفور لأي شخص يتفوه بكلمة واحدة في الشؤون اليهوديَّة عبر العصور تهمة العداء للساميَّة". واقترح حاخام فرنسا الأكبر جوزيف سيتروك، عقد مناظرة حول "شوا" أو الهُولُوكُوسْت. وعلى الفور رحبت أنا وهنري روك علانية بالمشاركة فيها. وفي اليوم التالي، سحب الحاخام الأكبر إقتراحه.

وفي التاسع والعشرين من أبريل، نشرتْ صحيفة "ليبراسيون" مقالاً بعنوان "القس بيير يرفض إدانة نظريات جارودي الإنكاريَّة negationist وكاد هذا المقال أن يسبب للرجل العجوز أزمة قلبيَّة مما جعله يصرح بالقول: "إنَّهم لا يقبلون أي حوار، على العكس من جارودي". وسأله أحدهم: ألَّا تشعر بالصدمة بعد أن أبدى رجل منكر مثل فوريسون غبطته إزاء تأييدك لجارودي؟ وكان رده: "إنك أول من يذكر لي ذلك. بالطبع هذا يضايقني، إن فوريسون يمثل تعارضا مع كلّ ما عبرت عنه طوال حياتي". وأضاف أنه في مطار بروكسل، رأي للمرة الأولى منذ فترة طويلة جدا، أناسا يأتون تلقائيا

للقائه وتوجيه الشكر إليهقائلين له: "شكرا على قيامك بتحدي التابو". وأضاف أنه "مقتنع بوجود إرتياح كبير لَدَى الناس. لقد أزيح التابو، ولن يقبل الناس بعد ذلك إتهامهم بالعداء للساميَّة واليهود عندما يشيرون إلى إنحراف أي يهودي عن جادة الطريق". وأضاف: "عندما تمر العاصفة سيقول كثير من الفرنسيين العاديين: لقد أوضح القس بيير الرؤية لنا".

استمرار الهجوم على القس بيير

في البداية أعلنت الكنيسة الكاثوليكيَّة رغبتها في ألَّا تصبح طرفا في هذا الجدل، ثم أعلن المجمع الكنسي لأساقفة فرنسا إستنكاره لموقف القس بيير، وأعاد التأكيد على أن إبادة اليهود حقيقة لا تقبل الجدل، وأدان الموقف الفاضح الذي يكمن في التشكيك في "الهُولُوكُوسْت".

وناشد روجيه جارودي الذي كان "يشعر بالتوتر"القس بيير من خلال العديد من المكالمات التليفونيَّة، أن يهرع إلى مساندته.

وفي الأول من مايو إتصل بي تليفونيا بيير جيلوم، يناشدني المساعدة قائلاً إن جارودي يحتاج بشدة إلى وثيقة معينة، فقلت له إن على جارودي أن يطلبها مني بنفْسه، فرد جيلوم مرتين بقوله: "أنت تعرف أنه لن يفعل ذلك". وعبرت له عن دهشتي من الطريقة التي أعامل بها وأنني لم أتلق حتَّى نسخة من "الأساطير المؤسسة للسياسة

الإسرائيليَّة"، وأن هذا الكتاب في مادته المراجعة، ليس إلَّا تجميعا لبعض الأفكار التي وردت في كتاباتي. وكان رد جيلوم: "هذا أمر واضح". وفيما بعد في برنامج إذاعي في محطة راديو كورتوازي Courtoisie علقت سيدة من المستمعين بقولها: "إن العلاقة بين فوريسون وجارودي هي علاقة بين السارق والمسروق". وكان رد جيلوم: "الكلّ يعرف ذلك"!

في 2 مايو إختار جان فرانسوا كوهين العنوان التالي لمقاله في "حدث الخميس" L`Evenment du Jeudi: "إن الدقيق الذي يغذي الطاحونة يتمثل في جان ماري لوبان وفوريسون، والفضل يرجع للقس بيير". وفي اليوم نفْسه أعلنت الصحافة اليوميَّة أن منظمة "ليكرا" طردت القس بيير من لجنة الشرف فيها.

وفي التاسع من مايو كتب جان لوك علوش في "ليبراسيون" أن هناك هدفا واحدا لدي كلّ من جارودي والقس بيير وفوريسون "هو الهجوم الدائم والأبدي على شرعيَّة دولة اسرائيل". واستشهد بفقرة من المقدمة التي كتبتها للطبعة الثانية من "تقرير لوشتر" في أغسطس 1989م تقول:

"سوف يواصل مروجو الهُولُوكُوسْت في المستقبل المنظور، استخدام المال والسلطة والقُدْرة على صنع الأفلام والاحتفالات التذكاريَّة والمتاحف التي ستصبح، أكثر فأكثر، خالية من المعْنَى،

وسوف يجدون أكثر فأكثر، الوسائل لقمع المراجعين من خلال اللجوء للعنف البدني والحملات الصحفيَّة وسَن القوانين الخاصة، بل ولن يتورعوا حتَّى عن القتل. ورغم مرور خمسين عاما على نهاية الحرب، فإنَّهم سيستمرون في محاكمة من يطلقون عليهم "مجرمي الحرب" في محاكمات هزليّة، وسيرد عليهم المراجعون بالدراسات التاريخيَّة والعلميَّة وبالكتب العلميَّة والأكاديميَّة. هذه الكتب والدراسات ستكون بمثابة الحجارة التي سنستخدمها في "انتفاضتنا الثقافيَّة".

في التاسع من مايو كتب الأمريكي جوزيف سوبران "لو كان القس بيير قد أنكر قدسيَّة المسيح، لكانت الصحافة قد مجدت استقلاليته في التفكير" (صحيفة The Wonderer).

وفي التاسع والسادس عشر من مايو، وفي صحيفة National Hebdo نشر رسام الكاريكاتير كونك، رسمين يعكسان الموقف الراهن: يصور الرسم الأول حراس الحقيقة الرسميَّة وهم يتطلعون عبر منظار إلى كتلة من الأسمنت يعتقدون أنهم دفنوا في داخلها إلى الأبد المراجعة التاريخيَّة، لكن بدأت تظهر فيها بعض الشقوق والتصدعات وأصبحت تهدد بالانفجار وتلويث العالم كلّه. أما الرسم الآخر فيصور بعض زوار المقابر وهم يمرون أمام ثلاثة من شواهد القبور كتبت عليها أسماء فوريسون وجارودي والقس بيير بينما يتهامس المارة "هذا قسم المدفونين أحياء". وكان هذا إنعكاسا لمأزق الرقابة

التي فشلت رغم كلّ الحملات الصحفيَّة القاسية والعنف الجسدي والمحاكمات، في القضاء على المراجعة التاريخيَّة، فهي ما زالت مستمرة، بل وتكتسب قوة أكبر. وقد بدأ ضمير ما يُسمّى بالنخبة يتشكّك في فائدة قانون فابيوس- جيسو الذي أطلق عليه البعض "هديَّة حقيقيَّة للمراجعين" (كذا).

في 13 مايو نشرت حركة "إيماوس" في فرنسا، و"إيماوس الدوليَّة" في الصحف اليوميَّة بتكاليف عالية جدا، إعلانا جاء فيه "تلفت حركة إيماوس النظر إلى أن أي تصديق، أيا كان مصدره، للمراجعة التاريخيَّة هو أمر لا يمكن تحمله"، وإستنكر البيان "دفع الرجل صاحب المواقف النضاليَّة النبيلة إلى الإنحراف عن مجاله ومجالنا".

روجيه جارودي يبحث عن التأييد

أعلن روجيه جارودي أن لديه أصدقاء من الحاخامات من بينهم الحاخام إلمر بيرجر البالغ من العمر 88 سنة والمقيم في فلوريدا، وقال إن إلمر بيرجر "كتب نصا سيكون مقدمة جيدة للطبعة الأمريكيَّة من كتابي". ("المنبر اليهودي" Tribune juif - 16 مايو). وقد لجأ جارودي أيضًا إلى أصدقائه العرب.

وكتب فرانسوا بينيو مقالاً في National Hebdo بتاريخ 16 مايو عما سماه "منشور جارودي"، رسم فيه صورة للإضطهاد المتواصل الذي يعاني منه الكتاب المبتلين بوصمة "اليمين المتطرف" في فرنسا.

ووضع بين قوسين الفقرة التالية: "لن أتطرق لصُلب مادة الكتاب، فالسيد جارودي لا ينتمي إلى دائرتنا، وهناك بعض الأمور المزعجة في كتابه، وأعني استخدامه لاكتشافات البروفيسور فوريسون (وخاصة ما يتعلق بمذكرات آن فرانك) وجهوده البحثيَّة ومجمل أعماله التي دفع من أجلها ثمنا غاليا، بينما لم يخصص له إلَّا مجرد ثلاثة أسطر (في الطبعة الأولى من كتابه) بين قوسين. إنه أمر لا يحتمل".

وفي 23 مايو نشرت "ليبراسيون" رأيها فيما جاء في افتتاحيَّة صحيفة "الأهرام"، وهي صحيفة بارزة تعتبر الناطق غير الرسمي باسم الحكومة المصريَّة. وكانت "الأهرام" قد أعلنت أنَّها تفخر بفتح صفحاتها أمام الكاتب الذي يتعرض للهجوم في فرنسا، وأكدت أن "الحملة الاعلاميَّة منعت جارودي من التعبير بصراحة عن وجهة نظره". وهاجمت "الأهرام" في افتتاحيتها صحيفة "ليبراسيون" بسبب إستخدامها نفْس "أساليب الدعاية الصهيونيَّة" تجاه جارودي في حين أخذت في الوقت نفْسه، تدافع عن حق سلمان رشدي في الهجوم على الاسلام.

وفي 31 مايو أرسل جارودي نشرة إلى أصدقائه استهلها بالتالي: "أصدقائي الأعزاء: أشكركم على الثقة التي أوليتموني إياها فيما يتعلق بكتابي "الأساطير المؤسسة للسياسة الاسرائيليَّة" الذي لم تعثروا فيه على أي أثر "للإنكاريَّة"negationism. إن الذين صنفوني ضمن هذا الإطار الهمجي، إما أنهم لم يقرأوا كتابي أو قرأوه بسوء نيَّة".

وفي اليوم نفْسه نشرت "لوفيجارو" مقتطفات من حديث صحفي مع جارودي. وإذا صَدَق الصحفي تيلي ماريشال، فإليكم هنا أحد الأسئلة التي وجهها لجارودي وإجابة الأخير عليه:

- لماذا نشرت الطبعة الأولى من كتابك عن طريق دار "المرفأ القديم" (أي نفْس دار النشر التي نشرت كتب فوريسون)؟

- بحكم الضرورة. لكني لم أكن أعرف مدير الدار، وإلَّا لما ارتبطت به.

ولمعرفتنا بما درأت عليه المؤسسات الصحفيَّة الكبرى فإنَّنا نشكّ في أن يكون جارودي قد وصل إلى هذا الحد في الجحود.

في 29 مايو أعلنت الصحافة أن "القس بيير غادر بالتأكيد فرنسا متوجها إلى أحد الأديرة في إيطاليا". وسيذهب جارودي فيما بعد لرؤية القس بيير في دير بإيطاليا. وقد صرح للصحافة بأن القس بيير قد وجد أخيراً الوقت لقراءة كتابه و"أن هذه القراءة أراحت القس بيير. وعلق جارودي بقوله: "إنني لم أجد مقالاً واحدًا في الصحف يدحض فرضياتي".

غير أنَّ الموقف تدهور أكثر.

صرح القس بيير لصحيفة "كوريري ديلا سيرا" الإيطاليَّة (حسب ما نشرته "لوموند" بتاريخ 1-2 يونيو) قائلاً: "لقد تدخلتْ الكنيسة الفرنسيَّة لإسكاتي من خلال الحملات الصحفيَّة التي

يوجهها اللوبي الصهيوني الدولي". وقد أثار اختياره لهذه الكلمات ضجّة مدوِّية في العالم.

وفي شهر يونيو نشر الصحفيان ميشيل أنطوان بيرنييه وسيسيل رومان كراسة بعنوان "سر القس بيير"، كشفا فيها أنه قبل نحو ثلاث سنوات، في السابع والعشرين من مارس عام 1993م، التقيا بالقس بيير في مقر استراحته بصحبة اليهوديين برنار كوتشنر وماريك هالتر. وكان اللقاء في إطار سلسلة من الحوارات بين القس بيير وصديقه برنار كوتشنر تمهيدا للنشر في كتاب يعده الإثنان بعنوان "الله والإنسان" (صدر عن لافونت عام 1993م). ورغم ذلك فقد صدرت عن القس بيير بعض التعليقات الجارحة أمام هذين الرجلين فيما يتعلق ببعض الكتب عن العهد القديم والصهيونيَّة، وهي تعلقات لم ينشرها الصحفيان في كتابهما. وقالا إنهما فرضا الرقابة على كتابهما وإنهما يفخران بذلك، غير أنهما إذا كانا قد أديا واجبهما كصحفيين يتحليان بسلوك مسؤول في ذلك الوقت، فإنَّهما لا يمانعان الآن في تلقين القس بيير والمراجعين درسًا في الأخلاق.

جارودي يبحث عن ملجأ

ظهرت كراسة أخرى في شهر يونيو بعنوان "حق الرد: رد على حكم أجهزة الإعلام بالإعدام على القس بيير وروجيه جارودي". في هذه الكراسة التي أصدرها جارودي، قال إن "المراجعة التاريخيَّة

ليست ببساطة سِوى الوجه الآخر لما يطرحه المؤرخون التقليديون المتشددون أمثال فرانسوا بوداريدا. أما بشأن "غُرَف الغَاز" فقد ذّكر القراء بأنه لم يحدث أن أمرت أي محكمة بفحص سلاح الجريمة، ورغم ذلك فقد ظهر "تقرير لوشتر"وكذلك "التقارير المضادة في كراكوف وفيينا"،وأكد أنه "مندهش من أن هذه التقارير لم تنشر ولم تصبح موضوعا للمناقشة والمناظرة العلنيَّة. وأضاف "ثم ما هذا الذي أنكره ؟ إن ما أنكره هو أن يمنح الصهاينة أنفسهم الحق في التقليل من الجرائم التي ارتكبها هتلر عن طريق اختزالها في الإضطهاد الذي وقع لليهود وهو ما لا ينكره أحد. لقد تسببت طموحات هتلر التوسعيَّة في قتل خمسين مليونا من البشر من بينهم 16 مليونا من البولنديين والروس السلافيين كما ذكر البابا يوحنا بولص الثاني في ميامي".

وكما نَرَى، فإنَّ روجيه جارودي يمارس في معاداة النازيَّة موقفا مماثلاً لموقف المحامي جاك فرجاس أثناء محاكمة كلاوس باربي في ليون عام 1987م، حين هاجم فرجاس فرنسا التي وصفها بأنَّها تجرأت على أن تسمح لنفْسها بإدانة عنصريَّة كلاوس باربي بينما تمارس العنصريَّة الإجراميَّة ضِدَّ السود والصفر والعرب من سكان الشعوب التي كانت تستعمرها.

وفي ملاحق كراسته لم يتردد جارودي في إعادة نشر "شهادة قس بروتستانتي"، و"صرخة سجين في معسكرات الإعتقال". وقد اقتبس

من القس روجيه بارمنتييه الجملة التالية من دون أي تحفظ أو تصحيح: "إن "المنكرين"هم نازيو اليوم الذين يرغبون في مراجعة التاريخ من أجل تبرير نازيَّة الأمس". وأضاف القس: "لن أسمح لنفْسي قط بأن أعتقد (بعد قراءة تصريحات القس بيير وكتاب جارودي) أن هذين الأخوين قد تحولا إلى النازيَّة". أما بشأن "السجناء" فقد كَتب بنفْس القَدْر مِن المبالغة مِثل روجيه جارودي: "فليعلم الصحفيين الآن شيئا واحدا: إن معظم السجناء في معسكرات الإعتقال النازيَّة لم يكونوا من اليهود، حتَّى لو كانت كلّ أجهزة الاعلام اعتنقت فرضيَّة أن اليهود فقط هم الذين رُحّلوا إلى المعسكرات، وأبيدوا". واستشهد السجين السابق بأرقام مبالغ فيها للغجر والجنود السوفييت والبولنديين الذين "أبيدوا".

وقد إنبرت مطبوعة إسلاميَّة للدفاع عن جارودي فكتبت تقول: "لا يتشكّك جارودي أبدا في وجود "غُرَف الغَاز"، ولم يسبق قط أن حاول التشكيك في، أو التقليل من خطورة موضوع إبادة اليهود خلال الحرب العالميَّة الثانية. إن الصهاينة يطرحون هنا قضية زائفة ضِدَّ جارودي بسبب الموضوع الوحيد الذي يعيد الكاتب النظر فيه وهو أرقام اليهود الذين أبيدوا"("رسالة الاسلام" Le Message de Islam، يونيو 1996م، صفحة 21).

وكان الأمر قد وصل الآن إلى التحقيق مع بيير جيلوم وروجيه جارودي تمهيدا لتقديمهما للمحاكمة بسبب الطبعة الأولى من

الكتاب. وفضلاً عن ذلك خضع جارودي للتحقيق القضائي بسبب الطبعة الثانية وأيضًا كراسة "حق الرد".

مأزق اليسار المتطرف

في كتاب جماعي صغير صدر في يونيو عن صحيفة "ليبراسيون" بعنوان "الأحرار وأقصى اليسار ضِدَّ الإنكاريَّة" (مطبوعات ريفلكس 1996م) وردت بعض الإشارات والتعبيرات المشوشة حول، أو بالأحرى ضِدَّ بعض الليبراليين واليساريين الذين أبدوا في بعض المواقف، تعاطفهم مع المراجعة التاريخيَّة. وكتب جيل بيرو مقدمة جاء فيها: "لقد كان قانون جيسو هديَّة لا تقدَّر بثمن للمراجعين والإنكاريين"(صفحة 8). وأدان "العصابة المراجعة"(ص 9). وفي صلب العمل وصف الناشر بيير جيلوم بأنه "كاذب" و"شاذ" و"وغد"(ص 57)، ولفت إنتباه القراء إلى أن المحاكمات "تحقق للمراجعين مكسبا دعائيا حقيقيا وغير متوقع" (ص 60). ويجب أن نذكر أنه أدان أيضًا "شاهدا مشكوكا فيه مثل إيلي فيزل"، وأن "ليكرا" أو "العصبة الدوليَّة لمكافحة العنصريَّة والعداء للساميَّة" متهمة "بالمبالغة في أعداد الجثث" لمصلحة إسرائيل (ص 47)، وقد تعرض أيضًا "للأدبيات المنحطة التي ظهرت في قصص معسكرات الإعتقال لبرناداك وشتاينر وجراي وغيرهم والتي تخاطب الغرائز لكي تحقق أرقاما كبيرة في التوزيع مما أضر كثيرا بالبحث التاريخي"(ص 66). وهكذا دبت الفوضي في أوساط اليسار واليسار المتطرف. ورفع

ديديه دينينيكس وهو كاتب متخصص في الروايات البوليسيَّة، راية التطهير المناهض للمراجعة التاريخيَّة في صفوف المثقفين اليساريين (مع إشارة إلى حملة تطهير "الفاشيين" التي بدأت في سبتمبر 1944م). وعاد الأكاديمي فيليب فيديلييه المعروف بولعه بالهجوم والإدانة إلى عرض خدماته.

القس بيير يطلق مناشدته الأولى في 18 يونيو

كشف استطلاع للرأي أجراه معهد لويس هاريس لحساب مجلة "Golias" في السابع والثامن من يونيو أن القس بيير، كما أشارت صحيفة "ليبراسيون" (عدد 11 يونيو)، "ما زال يتمتع باحترام الكاثوليكيين"، وأن كتاب جارودي لا يزال يحقق مبيعات جيدة رغم كلّ مشاكل التوزيع. ورغم ذلك، فقد صودر الكتاب من إحدَى المكتبات في مونترو (سويسرا) يملكها رجل يدعى ألدو فيراجليا، بأمر من قاضية تحقيق تدعى فاليري بارث في مدينة لوزان. وفي الوقت نفْسه وبدافع من التعصب الشديد من جانب القاضية المشار إليها، تمت مصادرة كتابين من كتبي كانا قد طبعا عامي 1982م و1983م ولم يواجها قط متاعبَ قانونيَّة، سواء في فرنسا أو في الخارج، وتعرض كتابًا آخر بعنوان "من هو روبير فوريسون على أي حال؟" من تأليف فرانسوا بوينيو، للمصادرة. وقد وصل الأمر بتلك المرأة القاضية إلى حد إرسال مفتشي شرطة إلى بعض باعة الكتب لتحذيرهم من بيع أي كتب أو مطبوعات نقديَّة مراجعة. وكان القس

بيير في ذلك الوقت قد غادر إيطاليا متوجها إلى سويسرا، وأرسل في الثامن عشر من يونيو رسالة بالفاكس إلى صحيفة "لوموند"، بعنوان "تحيا الحقيقة".

وقد بالغت "لوموند" في نشر المقالات العدائيَّة المحمومة، وكان من حق القس بيير أن يرد على تلك الكتابات، وقد لفت تقاعس الصحيفة عن نشر وجهة نظر المتهمين أنظار القراء، لذا فقد ألمح صحفي من "لوموند"– بتعلمات من رؤسائه– أمام القس بيير إلى إمكانيَّة نشر وجهة نظره. وجلس القس للعمل لمدة ثلاثة أيام في كتابة رد وتوضيح إستغرق إثنتي عشرة صفحة، لم تنشر منها الصحيفة سطرًا واحدًا. وفي هذا المقال، طمأن القس بيير الصحيفة إلى أنه خلال خمسين عاما من الحوار، لم يسبق أن قلل جارودي من شأن الجرائم التي إرتكبها النازيون في حق اليهود. وقال إن "جارودي يواجه الآن أكبر محنة في حياته"، وأشار إلى "الحملة القاسية والمنظمة ذات الإيقاع الواحد والزي الموحد التي يتعرض لها من جانب كلّ أجهزة الاعلام".

وقال القس بيير "لم يسبق لي دون شكّ أن واجهت كلّ هذه المشاكل، أو تعرضت للافتراءات والإهانات أو اتهمت بالعداء للساميَّة"، وأشار إلى العلاقة الطيبة التي تربطه بشيمون بيريز وصديقهما المشترك أندريه سوراكي، وعبر عن حبه لليهود الذين يعتبرهم من أهل النخبة مستخدما كلمة "الزبدة" في وصفهم، بينما

أدان "التسميم الصهيوني". ولم يتعرض القس بيير لمحتوى كتاب جارودي لكنه أكد أنه أتيحت له "في الدير قراءة الكتاب مثار الضَجَّة ودراسته في سلام، ووجدت أنه يخلو تمامًا من أي شيّء يستحق التقريع، ولأنني لست خبيرا في مادة الكتاب، فقد طلبت من إثنتين من أكبر الجامعات الكاثوليكيَّة في أوروبا التكرم بترجمة الكتاب إلى لغتهم، وتكليف ثلاثة من الأساتذة المتخصصين في التاريخ واللاهوت وعلوم التوراه التوصل إلى رأي فيما يحتويه. إن نصحيتهم ستعني الكثير بالنسبة لي أكثر من نصائح "ليكرا" أو من نصائح الكثير من الأصدقاء الممتازين الذين عبّروا لي عن دهشتهم من الكتاب". وتعرَّض القسّ بيير بنفْس القَدْر من الإستنكار لقانون فابيوس-جيسو.

وأرسل ألبرت جاكار وهو من اليسار الليبرالي، خطاب تأييد للقس بيير إلى "لوموند"، لكن الصحيفة رفضت نشره.

وصرح لوستيجيه أسقف باريس وهو نفْسه من أصل يهودي، لصحيفة "المنبر اليهودي" "TRIBUNE JUIVE" الأسبوعيَّة بأنه "يَرى في هذه القضيَّة مضيعة كبيرة للوقت"، ثم ألقي كلمة عامة وجه فيها اللوم والتقريع للقس بيير مبعدا المسؤوليَّة عن الكنيسة. وفيما بعد، في السادس والعشرين من سبتمبر، وبعد "مناقشة حول الهُولُوكُوسْت أعقبت حفل عشاء" في السوربون، أعلن "أن الإنكاريَّة أكذوبة من أكاذيب رجل يقتل أخيه لكي يهرب من مواجهة

الحقيقة". وسرعان ما أعلن صديقه الحالي إيلي فيزل أن "الانكاريَّة خالية من الروح".

الهجوم المناهض للمراجعة

في عددها الصادر في السادس والعشرين من يونيو، أعلنت "لوموند" أن "أيادٍ خفيَّة قامت خلال الأيام الماضية بتعلق ملصقات في الطريق الدائري في باريس تقول: "وماذا إذا كان القس بيير على حق؟".

وفي السابع والعشرين من يونيو، قامت مجلة "حدث الخميس" L`Evenment du Jeudi بتعلق صور على الجدران من غلافها الذي يحمل عنوان "الهُولُوكُوسْت: نصر المراجعة". كانت تلك بالطبع مبالغة مقصودة، فسرعان ما إجتاح الإرهاب باريس أكثر من أي وقت مضى بينما ظل المراجعون ممنوعين من التعبير عن آرائهم والرد على حملة الافتراءات التي ملأت الصحف وأجهزة الاعلام. أما القس بيير وجارودي فقد سعيا إلى الإبتعاد أكثر من ذي قبل، عن هؤلاء "المراجعين"، بل وأصبحا يصفان هؤلاء، أو سمحوا بوصفهم بكونهم أتباعا للنازيَّة.

وفي اليوم نفْسه الذي علقت فيه مجلة "حدث الخميس" ملصق غلافها في الشوارع، أصدرت المحكمة العليا في بوردو حكما بالسجن لمدة شهر (مع إيقاف التنفيذ) على جان لوك لوندي (وهو أب

لأحد عشر إبنا) وتغريمه خمسة آلاف فرنك إضافة إلى وضعه تحت المراقبة لمدة خمس سنوات بسبب قيامه بعرض وبيع كتب المراجعة التاريخيَّة، وأمر القاضي بتدمير الكتب المصادرة من مكتبته.

وفي السادس عشر من يوليو، هاجم أعضاء في عصبة "بيتار" اليهوديَّة المسلحة جورج بيسكوتشي دانيسكو، وهو لاجئ سياسي من رومانيا يدير مكتبة متواضعة في الحي اللاتيني تبيع كتب ومطبوعات المراجعة وخاصة كتاب جارودي، وقاموا بنهب وتدمير ما فيها من كتب (حوالي 2000 كتاب بعضها نادر)، وبلغت الخسائر الناجمة عن الاعتداء ما يقرب من ربع مليون فرنك فرنسي رفضت شركات التأمين دفع فرنك واحد منها كتعويض. ومعروف أن عصبة "بيتار"تتمتع بحماية وزارة الداخليَّة، وكالعادة لم تبذل الشرطة أي جهد للقبض على المعتدين. وكانت العصبة اليهوديَّة المسلحة قد شنت خلال الخمسة عشر عاما الأخيرة أكثر من خمسين اعتداءً مشابها، نتجت عنها أضرار جسيمة في حين ظلت تتمتع بالحماية، وفي الوقت نفسه لم يصب أي يهودي بأي أذى من أي نوع على أيدي الذين يُطلق عليهم "المعادون للساميَّة".

تراجع القس بيير

في 23 يوليو نشرت مجلة "الصليب" نصين بقلم القس بيير وقعهما بتاريخ 22 يوليو. كان الأول خطابا موجها إلى روجيه

جارودي، وفيه ذكّر القس بيير صديقه "بحالة التوتر "التي عاشها الأخير في شهر أبريل، قائلا: "عزيزي روجيه، أنت بالتأكيد تتذكر حالة التوتر التي كنت عليها في أبريل الماضي حين كنت تناشدني المساعدة عبر مكالمات هاتفيَّة عديدة". وقال إنه في ذلك الوقت، لم يكن يعرف شيئا عن "المراجعة" و"الإنكاريَّة"، وإنه فوجئ بالتالي "بالاندفاع العاطفي المجنون الذي شمل أجهزة الإعلام كلّها"، وهو ما نال من كليهما، وإنه من جانبه يجب "أن يوقف كلّ مشاركة له في تلك المناظرة القاسية"، وأكد على ثقته الكاملة في إخلاصه ولكنه "طبقا لما يرد في البيان المرفق، فإنَّ قراري النهائي هو عدم السماح، اعتبارا من اليوم، بظهور إسمي مرتبطا بإسمك بأي طريقة كانت فيما يتعلق بهذا الكتاب".

وكان البيان الموجه إلى المجلة على النحو التالي:

"رغبة في أن أحيا الحقيقة متحررا من الأغلال، وأنا أري كلماتي عن كتاب روجيه جارودي "الأساطير المؤسسة للسياسة الإسرائيليَّة" تُستغل من جانب التيارات التي تقرع بخطورة أجراس العداء للساميَّة وهو ما ناضلت ضِدَّه وسأناضل دائما ضِدَّه، فقد قررت أن أسحب كلماتي، وأن أترك الأمر بأسره بين أيدي العالمين ببواطن الأمور في الكنيسة، وأن أطلب الصفح من الذين ربما أكون قد أسأت إليهم، وأرغب في ترك الأمر كلّه لله حتَّى يكون وحده الحَكم على نوايا الجميع".

وبهذا تراجع القس بيير عن موقفه واعترف بخطاياه، وتضرع إلى العالم أن يغفر له، بل وقد وصل إلى حد وصف نفْسه "بالتحرر من الأغلال". وفيما بعد سيقول للبروفيسور ليون شوارزنبرج: "إنني أطلب منك المغفرة" ("لوفيجارو"22 أغسطس)، بل وسيصل إلى حد استخدام نفْس أساليب الاعلام السائد في الحصول على صفح اليهود وأجهزة الاعلام.

وفي مجلة "حقائق ووثائق"Faits & Documents (بتاريخ 15 أكتوبر) كتب إيمانويل راتييه يقول: "لقد أعلن القس بيير حقا توبته اليهوديَّة (techouva) عن تأييد روجيه جارودي. وبالإشتراك مع "حركة جيل الكوكب العالميَّة"، وهي "فرقة موسيقيَّة إنسانيَّة، يستعد القس بيير لإصدار إسطوانة مدمجة (سي. دي) تتضمن أربع أغنيات هي: "الغفران الكبير" التي تهدف إلى تقديم موسيقي تحث الوعي الإنساني العالمي على رفض القوميات" وتشمل أيضًا أغاني "لا مهرب"، و"صهيون" و"الملك". وفي عدد 31 أكتوبر-6نوفمبر، قدمت "لونوفيل أوبسرفاتور" تغطية للخبر في مقال بعنوان "موسيقي الندم"، حددت فيه المجلة أنه يُنظر للإسطوانة الموسيقيَّة على أنَّها توضيح إيقاعي لقضيَّة جارودي.

ورغم ذلك، إستمر المتطرفون اليهود في إعلان غضبهم، فهم لم يقتنعوا بتراجع القس بيير، فقد ظل مجلس "المؤسسات اليهوديَّة في

فرنسا" ومنظمة "ليكرا"غير راضين بسبب ما عبر عنه القس بيير من "ثقته" في "إخلاص" صديقه جارودي.

الجوانب الفرعيّة للقضيّة

أدت قضيَّة القس بيير- جارودي إلى إعادة ظهور حملة المطاردة والتشويه المعتادة من جانب أجهزة الإعلام بوجه عام، وصحيفة "لوموند" بوجه خاص. وتوالت خلال الأشهر التالية فصول أخرى "لقضايا" أخرى مشابهة في فرنسا، إتُّهم فيها الضحايا بارتكاب الخطيئة القاتلة، أي الإنحراف في اتجاه "المراجعة". ونستطيع أن نذكر على سبيل المثال، حالة أوليفييه بيرنيه أستاذ الفلسفة في جامعة ليون، ومارك سوتيه صاحب فكرة مقاهي الفلسفة، وريمون بودون وبرنار بوجواه، والإثنان من أعضاء الجمعيَّة الفرنسيَّة للفلسفة، ونويل شولمان مدرس الكيمياء في إحدَى المدارس الثانويَّة في مقاطعة إيفلين، وحالة إمرأة رياضيَّة كانت تدرب مجموعة من الفتيات استعدادا لتقديم عرض يجسد صورًا من "الهُولُوكُوسْت" في دورة أطلانطا الأوليمبيَّة، أو مجلة "U Ribombu" الأسبوعيَّة الكورسيكيَّة التي تصدر عن الحكومة المحليَّة في كورسيكا التي تتمتع بالحكم الذاتي، والتي اتخذت موقفا مساندا لجارودي والقس بيير. وكما أشرنا سابقا، فقد انشق اليسار المتطرف واليسار الليبرالي في موقفه وأخذت أجنحته تتبادل الهجوم الشرس والإتهامات بسبب الخلافات بين الأجنحة المختلفة حول القضيَّة.

وتعرض قانون فابيوس- جيسو للهجوم مرة أخرى، في حين دافع عنه شيوعيون متشددون من أمثال جان كلود جيسو وشارل ليدرمان. ونزل إلى الساحة عدد من السياسيين مبدين شراسة في الهجوم على المراجعين الذين حُرموا، كالعادة من حق الرد على تلك الحملات المستمرة العنيفة وعلى كتّاب الأعمدة الصحفيَّة وما ينشرونه من إفتراءات. ودبج المتحدثون الرسميون باسم المنظمات اليهوديَّة خطبًا شديدة اللهجة محذرين من عودة ظهور الوحوش الضارية معبرين عن الغضب الشديد، وهو الإحساس الذي لا يستطيعون فيما يبدو، التخلّي عنه أبدا.

نتيجة إيجابيّة: اعتراف جاك بايناك

جاك بايناك (57 عاما) مؤرخ تقليدي متشدد يميل قليلاً إلى اليسار، وهو مؤلف الكتب التالية: Ravachol et compagnons (رافاشول ورفاقه) الصادر عام 1976م، و"نظرة ثانية على مايو 1968" الصادر عام 1976م، و"الثوريون الإشتراكيون في روسيا (1881م-1917م)" الصادر عام 1979م، و"ثورة جورباتشوف" الصادر عام 1988م. وباعتباره من غلاة المعادين للمراجعة التاريخيَّة من البداية، فقد تعاون مع المؤرخة نادين فريسكو في كتابة سلسلة من المقالات في "لوموند"، كرست للهجوم على بيير جيلوم وروبير فوريسون. وأتذكر أنني اشتبكت معه في نقاش ساخن في باريس في أكتوبر 1980م.

ورغم ذلك، ففي الثاني والثالث من سبتمبر 1996م، نشر جاك بايناك دراسة جيدة مليئة بالمعلومات الدقيقة عن المراجعة التاريخيَّة في ضوء قضيَّة جارودي في مجلة "لو نوفو كوتيديان" الصادرة في لوزان (سويسرا). في هذه الدراسة أكد بايناك أن "المراجعين" الذين يطلق عليهم "المنكرين"Negationsits، لديهم أسباب عديدة للشعور بالسعادة من جراء هذه الفضيحة التي "جعلت المناخ مناسبا لهم"، أما خصومهم، فقد أصيبوا بالذعر بعد أن كانوا يعانون من الإضطراب الفكري، الأمر الذي أصاب بيير فيدال ناكيه بالكرب الشديد، وجعل هنري برنار ليفي "ينغلق على نفْسه"، وبيير أندريه تاجيف "يشعر بالرعب"، وأنه منذ "قضيَّة فوريسون" في 78-1979م، فضّل المؤرخون الانسحاب من الساحة، و"تفرقوا". ووجه اللوم لهؤلاء المؤرخين لأنهم منحوا ثقتهم لجان كلود بريساك، ذلك الصيدلي الريفي و"المؤرخ الهاوي". واعتبر أنهم إعتمدوا بقوة على الشهود في محاولة لإثبات وجود "غُرَف الغَاز"، وهو أمر "غير علمي". أما فيما يتعلق بالدليل العلمي، فقد عاد إلى البيان الذي أصدره المؤرخ اليهودي الأمريكي أرنو ماير عام 1988م وجاء فيه: "إن مصادر دراسة غُرَف الغَاز نادرة ولا يعتد بها". ثم ذهب إلى حد القول إن من الضروري التحلي بالصراحة للاعتراف بأن الوثائق أو الآثار المتبقيَّة والدلائل الثابتة لا يوجد فيها ما يثبت وجود "غُرَف الغَاز". والخلاصة أن بايناك يعتقد أن على المؤرخين من الآن

فصاعدًا، أن يلجأوا إلى البحث عن طريقة أخرى بعد أن أصبح من المستحيل عمليا إثبات وجود "غُرَف الغَاز"، وإقترح بايناك أن يسعي المؤرخون إلى إثبات "إستحالة" عدم وجود "غُرَف الغَاز".

بالنسبة للمطلعين جيدا على الموضوع، لم يكن هناك جديد في هذا الموقف، فقد ظلت تصدر عن المؤرخين المتشددين لعدة سنوات تعلقات مشابهة أو ظلوا يتصرفون كما لو كانوا قد ابتعدوا تمامًا عن موضوع "غُرَف الغَاز" المزعج. لكنها ربما كانت المرة الأولى التي يتخذ فيها مؤرخ متشدد هذا الموقف العلني ويقدم اعترافا صريحا على هذا النحو.

درس قاس

رجلان في الثمانينيات من عمرهما يعتقدان أنهما خبرا الحياة بدرجة كافية وأنهما على معرفة جيدة بالبشر، يكتشفان فجأة بدهشة الأطفال، أنهما كانا يعيشان في الماضي حياة سهلة. وكان عليهما خلال أيام محدودة، الصمود في وجه تجربة غير عاديَّة تفرضها المنظمات اليهوديَّة على كلّ من يدفعه سوء حظه إلى إستثارة غضبهم. لم تكن هناك في هذا الموقف من جانب هذه المنظمات، أيَّة مؤامرة أو تخطيط محكم، بل شيّء ما كامن في الموروث الفكري. وتعرف أجهزة الاعلام الخاضعة لهم بالكامل أنَّها ستدفع الثمن غاليا إذا ما اتخذت موقفا معاكسا لرغباتهم، كما تعرف جيدا كيف تحشد

الآخرِين ضِدَّ "المعادين للساميَّة"، أو بمعْنَى آخر ضِدَّ كلّ من لا يكرهون اليهود ولكن الذين يكرههم اليهود. إن الكراهية المستمدة من العهد القديم هي إحدَى أفظع أشكال الكراهية: فهي كراهية منطلقة محمومة، هستيريَّة لا تعرف حدودًا. إنَّها تخنق ضحاياها بعنفها المفاجئ والمتصل. وهي كراهية لا شفاء منها لأن الذين يعانون منها لا يمكن أن يسمحوا لأنفسهم بكشف الغطاء عن دافعها الحقيقي، ويطلقون العنان بالتالي ولو جزئيا، لغضبهم. وعلى سبيل المثال، فقد استمر الهجوم لعدة أشهر على روجيه جارودي بسبب تقديراته التي "تقلل" من عدد اليهود الذين ماتوا في الحرب العالميَّة الثانية، ولكن كان هذا فقط للاستعراض. أما الدافع الحقيقي فيكمن في شيّء آخر، في الفعل التدنيسي الذي يتمثل في وضع "غُرَف الغَاز" محل الشكّ. وفضلاً عن ذلك، فقد أدي إعلان ذلك الشكّ إلى إبراز الموضوع أو لفت الأنظار إلى أهميته عند الرأي العام. ومن هنا جاء التأكيد على ضرورة التركيز على شيّء آخر.

في 27 أبريل كتبت:

"لقد لاحظت كيف جبن الصحفيون أو صمتوا إزاء موضوع "غُرَف الغَاز". لقد كان يتعين على الصحفيين جميعا إدانة جارودي مباشرة وفورا بسبب تعبيره عن التشكّك في هذا الموضوع. ولكن تلك هي بالضبط مقومات التابو: فأولئك الذين تتلخص مهمتهم في الحفاظ عليه لم يتجرأوا حتَّى على كشف أنه قد إنتُهك. لقد

إنتَهك جارودي قدس الأقداس واكتشف أن الخيمة التي إتخذ منها اليهود هيكلاً وزعموا أن في داخلها "غُرفَة غَاز"، كانت فارغة".

وقد ظلت هذه الملاحظة تنطبق على الأحداث التي تتابعت طيلة الأشهر التالية.

أما فيما يتعلق بالقس بيير، فقد رأينا نفْس الألاعيب القديمة. كان هناك الذين شجبوا عداءه المزعوم للساميَّة وعناده في تأييد صديقه القديم الذي حاد عن الطريق. وكانت جريمة القس بيير هي أنه طالب بمناظرة، وطالب بها بإلحاح وبطريقة بعيدة عن السذاجة. لقد كشف موقف هذا الرجل العجوز طوال الوقت، أولاً وقبل كلّ شيّء، غياب أي مناظرة حول الموضوع، وفضلاً عن هذا، فقد وضع المؤرخين والصحفيين وزعماء المنظمات اليهوديَّة في أكثر المواقف حرجا، فقد دفعهم إلى التذرع بالحجج البالية في رفض مناظرة تفزعهم كما يفزع الناس من الطاعون.

يشعر القس بيير وروجيه جارودي بالاعتزاز الكبير بالنفْس، وتتحلي آراؤهما بنوع من التواضع الزائف، وهما يكثران من الحديث من القلب، عن القلب، ويقدمان نفْسيهما باعتبارهما "متيمين بالمطلق" وهو نوع من المبالغة، ويصرحان بأنهما مدفوعين "بنفْس الدرجة للوصول إلى الحقيقة"، وهو نوع من الوقاحة، فخلال محنتهما حدث كثيرا أنهما أساءا إلى الحقيقة المجردة.

إن التجربة المفاجئة التي ستنسحب عليهما حتَّى نهاية حياتهما، كان يجب أنْ تدفعهما إلى التحلي بِقَدْرٍ أكبر مِن التواضع، لكنهما أطبقا فكيهما. كان جارودي جديرًا بالاستمرار في الكفاح، لكنه لم يعد يستطع أن يطلق عليه كفاحًا من أجل الحقيقة بعد أن أظهر خلال تطور الأحداث وطبقًا لاعتباراتٍ أملاها الخوف، تراجعًا نسبيًّا، أو تخلى بالكامل عن الكفاح مِن أجل الحقيقة التاريخيَّة فيما يتعلق بـ"أسطورة الهُولُوكُوسْت" حسب التعبير الوارد في كتابه. أما القسّ بيير فقد انتهى إلى التخلّي عن كرامته. وأنا شخصيًّا لا أحمل لهما أيَّة ضغينة فقد سبق أن دفعت الثمن وأعرف جيدا الثمن الذي يدفعه المرء في مواجهة قوي الحقد والأكاذيب والحماقة في مجال البحث التاريخي. لكني أشعر بالأسف بعد أن اتخذت قضيَّة جارودي-القس بيير، في المحصلة النهائيَّة، ذلك المنحى. إنني أشعر بالأسف من أجل هذين الرجلين ومن أجل المراجعة الفرنسيَّة، رغم الشوط المتقدم الذي قطعته المراجعة نفْسها خلال هذه القضيَّة في إطار البحث من أجل الوصول إلى الحقيقة التاريخيَّة.

لقد كانت هذه هي المرة الأولى منذ عام 1945م التي يُضطر فيها مؤرخ متشدد مثل جاك بايناك إلى الاعتراف بغياب أي دليل على وجود "غُرَف الغَاز" النازيَّة.

يناير- أكتوبر 1996م

مُؤرِّخٌ مُتشَدِّدٌ يَعتَرف أخيرًا:
لَا يُوجَد دليِلٌ على "غُرَف الغَاز" النازيَّة

أعُود هُنا تفصيلاً إلى جاك بايناك (مواليد 1939م)، وهو مُؤرِّخٌ فرنسيٌّ ومُؤلِّف كُتبٍ عديدة "1"، وأكاديميٌّ يَميل في مَوقفِه إلى اليسَار، وهو يُعادِي عداءً شدِيدًا مُراجِعِي التاريخ (الذين يُطلِق عليهم "مُنكِرِين")، خاصَّةً الكَاتِب المرَاجِع والناشر بيير جيوم وأَنَا. وقد ظلَّ بايناك لعدَّة سنوات، يُؤَكِّد وجود "غُرَف الغَاز" النازيَّة.

ولكن في عام 1996م، اعترَفَ بايناك في مقَالَيْن طويلَين نُشِرا في صحيفةٍ سويسريَّةٍ يَوميَّة، بأنَّه بَعْد النظر بعين الاعتبار إلى كَافَّة جوانب الموضوع، يَجدُ المرء نفْسه مُرغَمًا على الاعتراف "حتَّى لو كان هذا القول يبدو مُؤلِمًا"، بأنَّ "الشهَادَات" المعْروفة جيِّدًا لا تكفي كدليلٍ على وجود "غُرَف الغَاز"، وأنَّه ليس مِن الممكن ببساطةٍ إثبَات وجود "غُرَف الغَاز" علميًّا.

ولكن بسبب غياب أي دليل مباشر، فقد مضى بايناك قائلاً إنه بات من الضروري الآن البحث عن دليل غير مباشر. ولأن المرء لا يستطيع إثبات وجود "غُرَف الغَاز"، فمن الضروري بدلاً من ذلك، إثبات استحالة عدم وجود "غُرَف الغَاز"!

كتب بايناك على وجه التحديد يقول: "إذا كان التاريخ الأكاديمي لا يمكنه بسبب غياب الوثائق، التثبت من الحقائق الواقعيَّة فمن الممكن عن طريق التوثيق إثبات أن عدم واقعيَّة هذه الحقائق هو في حد ذاته غير واقعي" "2".

وقد نشر بايناك آراءه المشهودة هذه في صحيفة "لو نوفو كوتيديان" السويسريَّة في 2 سبتمبر1996م (صفحة 16) و3 سبتمبر 1996م (صفحة 14).

مراوغة المؤرخين

يبدأ بايناك مقاله الأول بإدانة قانون "فابيوس-جيسو" المناهض للمراجعة التاريخيَّة في فرنسا والذي صدر في 13 يوليو 1990م، لأنه يسمح -على حد قوله- "للمنكرين باستخدام ساحات المحاكم كمنابر لأفكارهم". ويلاحظ أن هذا القانون تعرض للنقد من جانب كلود إيمبرت من مجلة "لو بوا"، والمؤرخ بيير فيدال ناكيه الذي قال: "إنني على استعداد لقتل فوريسون ولكن ليس للضغط عليه في المحكمة"!)، ومادلين روبيرويو (الرئيسة السابقة لـ"عصبة حقوق الإنسان")، والمحامي المناهض للمراجعة شارل كورمان، وعديد من النواب البرلمانيين من الحزب الديجولي.

يؤكد بايناك أن لَدَى المراجعين/ المنكرين، سببا للابتهاج خاصة بعد أن "غيرت قضيَّة القس بيير المناخ" لصالحهم. ويلاحظ بايناك

أيضًا أن الفوضي حلت محل القلق في صفوف المناهضين للمراجعة، وأن المؤرخ بيير فيدال ناكيه أصبح يشعر بالحزن، وأن المثقف اليهودي البارز برنار هنري ليفي "تقوقع على نفْسه"، وأن بيير أندريه تاجيف "خائف"، وأن غلاف أحد أعداد مجلة "حدث الخميس" L'Evenement du Jeudi يدلل على "انتصار المراجعين".

يدين بايناك جورج سمبران، المثقف والسجين السابق في المعسكرات الألمانيَّة، ويتهمه بأنه "قتل" بشكل غير مسؤول كتابًا من تأليف فلورنت بريار يهاجم فيه الكاتب الفرنسي المراجع بول راسينييه. ويعتقد بايناك أن اليساريين أصيبوا بحالة من "البارانويا" و"اصطياد الساحرات" و"الفوضي الكارثيَّة" (حسب تعبيرات جان فرنسوا كان). ويلاحظ أن سيمون فيل ودومينيك جاميه يشاركانه الإحساس بعدم الإرتياح إزاء قانون فابيوس- جيسو، وأن "المرء يرفض مناظرة المراجعين".

ويستعيد بايناك التصريح الذي وقعه "34 مؤرخا محترما" ونشرته صحيفة "لوموند" كُبرى الصحف الفرنسيَّة في 21 فبراير 1979م، وهو التصريح المذهل الذي جاء ردا على التحدي الذي أعلنته وإن لم يجب على سؤالي الذي نشر قبل ذلك في الصحيفة نفْسها، والذي طالبت فيه بتفسير كيف كان من المفترض تقنيا أن تعمل "غُرَف الغَاز" النازيَّة الخرافيَّة. هنا يكتب بايناك عن "تهرب" المؤرخين بشكل عام، ويذهب إلى حد إعلان أن "المؤرخين قد تراجعوا".

لا وثائق ولا آثار ولا أدلة

في مقاله الثاني يستنكر بايناك أن يضع مناهضو المراجعة التاريخيَّة ثقتهم في الصيدلي و"المؤرخ الهاوي"جان كلود بريساك، الذي توصل الآن إلى أن عدد اليهود وغير اليهود الذين ماتوا في معسكر "أوشفتز" وصل إجمالاً إلى 600 ألف شخص "3".

ويسخر بايناك من المؤرخ فرنسوا بايرون وزير التعليم الفرنسي الذي يؤيد اللجوء إلى منهج "أقل صعوبة" في التعامل مع التاريخ بعد أن أدرك المصاعب التي تواجه الذين يحاولون إثبات وقوع الإبادة وغُرَف الغَاز. ويَرى بايناك في هذا "مفهوما ضعيفا للتاريخ".

يؤمن بايناك بوجود "غُرَف الغَاز" النازيَّة، لكنه يعتقد أن الذين حاولوا إثبات وجودها لجأوا بإفراط إلى طريقة "غير علميَّة" بدلاً من الاستناد إلى طريقة "علميَّة". ويقول إن الاعتماد الأساسي في تلك الطريقة اللا علميَّة تركز على "الشهادات"، بينما يسود الاعتماد على الوثائق في الطريقة "العلميَّة". غير أنه يضيف في حسرة، إن المرء لا يمكنه إلَّا التحقق من "غياب الوثائق" والآثار والأدلة الأخرى المادِيَّة "4".

ويستعيد بايناك الاعتراف الذي أدلي به عام 1988م المؤرخ اليهودي الأمريكي أرنو ماير الذي يقوم بالتدريس في جامعة برينسيتون حين قال: "إن مصادر دراسة غُرَف الغَاز نادرةً تمامًا ولا

يُعتدّ بها"[5]. ويمضي بايناك قائلاً "إننا لا نملك عناصر راسخة للتحلي بالمنهج التاريخي"، و"إن على المرء أن يبقي صامتا بسبب قلة الوثائق". ويصل بايناك في النهاية إلى تراجع مشهود عندما يقول: "من الضروري الاعتراف بأن قلة الآثار الباقية تشمل عدم القُدْرة على تأسيس حقيقة وجود "غُرَف الغَاز" بشكل مباشر "[6]. وهو عندما يستخدم تعبير "قِلّة الآثار الباقية" فإنَّه يقصد -كما أشرنا بالفعل- "غياب الوثائق والآثار والأدلّة الماديَّة الأخرى".

أدلة المستقبل

تنتهي دراسة بايناك باقتراح يتلخص في التالي: بسبب استحالة إثبات وجود "غُرَف الغَاز"، دعونا نجرب في المستقبل أن نثبت أنه كان من المستحيل ألّا توجد "غُرَف الغَاز"!

هذا مثال على الاعتراف بعدم كفاية الأدلة في الوقت الحالي، وافتراض الثقة في المستقبل. بايناك رجل ساذج، فهو يؤمن بأنه إذا كان مؤرخون كثيرون قد أكدوا بشدة حقيقة فظائع "الهُولُوكُوسْت" و"غُرَف الغَاز"، وأن الكثير من الناجين زعموا أنهم شاهدوها، إذن فقد كانت بلا شكّ موجودة. وهو لا يدرك أن المرء يكتشف مع مرور الوقت، أن التاريخ يمتلئ بالكثير من القصص الخياليَّة. وهو يستمر في الإيمان بوجود "غُرَف الغَاز" تمامًا كما يصر على الإيمان بالشيوعيَّة. غدا سيجد المرء دليلاً على "غُرَف الغَاز". غدا ستتحقق

الشيوعيَّة. غدا سيحصل المرء على وجبة مجانيَّة. غدا سيحصل المرء على دليل على أن الاشتراكيَّة الوطنيَّة هي تجسيد للشر وأن الشيوعيَّة تجسيد للخير.

إن بايناك ينضم إلى "الأربعة والثلاثين مؤرخا محترما" الذين، كما ورد من قبل، نشروا في عام 1979م أكبر المقولات هراء في تاريخ الحياة الأكاديميَّة معلنين: "ليس من الضروري أن يتساءل المرء كيف كان ممكنا من الناحية العمليَّة وقوع الإبادة الجماعيَّة. لقد كانت عمليا ممكنة، طالما أنَّها وقعت". وبهذا يضيف بايناك إسمه إلى قائمة الأربعة والثلاثين مؤرخا الذين اضطروا دون قصد منهم إلى الاتفاق مع المؤرخين المراجعين في نقاط عديدة هامة. ويقودنا هذا إلى طرح السؤال التالي: كيف يمكن أن يستمر القضاة في إدانة المراجعين بسبب تشكيكهم في جريمة لم يتم إثباتها كما يعترف بايناك نفْسه؟

الحرج الذي تسببه "غُرَف الغَاز"

من الواضح تمامًا أن "غُرَف الغَاز" النازيَّة تسبب حرجا أكثر حتَّى لأولئك الذين يؤيدون فرضية وقوع "الهُولُوكُوسْت" أو الإبادة الجماعيَّة لليهود. فمنذ أوائل عام 1984م، حذر بيير فيدال ناكيه أصدقاءه الذين كانوا بالفعل يحاولون التخلّي عن "غُرَف الغَاز" مِن أنَّهم إذا فعلوا ذلك، فمعْنَى هذا "الاستسلام للعدو في العراء" "7".

وفي عام 1987م نشرت مطبوعة دوريَّة مناهضة للمراجعة التاريخيَّة خطابا موقعا من طرف معلمين يهوديين فرنسيين هما إدا زايدل ومارك أسكيون يقولان فيه إن النازيين زيفوا اعترافاتهم وإنهم ذكروا "غُرَف الغَاز" فقط بهدف زرع "قنبلة موقوتة" ضِدَّ اليهود، وهو سلاح لحرف الأنظار بل وللابتزاز" "8".

وهناك أمثلة كثيرة جديرة بالعرض لكنَّني سوف أحصر نفْسي هنا في ثلاثة منها فقط: هي ما قاله إيلي فيزل (1994م) والبروفيسور الهولندي من أصل يهودي بولندي مايكل كروتشيك (عام 1995م)، وأخيرًا اليهودي الأمريكي دانييل جونا جولدهاجن (عام 1996م):

* في 1994م كتب فيزل في مذكراته التي تحمل عنوان "كلّ الأنهار تصب في البحر" يقول: "فلندع غُرَف الغَاز مغلقة أمام العيون المبتهلة والخيال" "9". وهذا يعني بلغة واضحة: "دعونا لا نحاول أن نَرَى أو حتَّى نتخيل غُرفَة غاز نازيَّة"، ويعني ذلك بالضرورة أن فيزل متشكّك تمامًا في شهادات الشهود المزعومين الذين يفترض أنهم قدموا وصفا لما حدث في "غُرَف الغَاز".

* في عام 1995م أعلن مايكل كروتشيك أنه وقع اهتمام شديد بـ"غُرَف الغَاز" النازيَّة وبأعداد الضحايا الذين قتلوا بالغاز. ومضى قائلاً في التواء جدلي، إن الألمان وليس اليهود هم المسؤولون

عن هذا الخطأ. وفي رأي كروتشيك، أن كثيرين جدا من الألمان شاركوا في "القتل الجماعي" لليهود أكثر مما كان يعتقد، وأنه في أماكن كثيرة جدا عبر أوروبا، اشتركت أعداد كبيرة أكثر من العدد المحدود للجنود الألمان، في قتل اليهود في غُرَف الغَاز "10".

* في دراسة بعنوان "جلادو هتلر المرحبون" Hitler's Willing Executioners (1996م) وهو عمل شديد العداء للألمان، كتب دانييل جولدهاجن يقول: "لقد كان قتل اليهود بالغاز ظاهرا ومحسوسا لَدَى الألمان" "11". وفي حديث نشر في العام نفْسه في مجلةٍ أسبوعيَّة استراليَّة قال جولدهاجن: "بالنسبة لي، لا تمثل إبادة اليهود جوهر السؤال في تفسير وقوع الهُولُوكُوسْت.. إن غُرَف الغَاز مجرد رمز. ولكن من العبث الاعتقاد بأن الهُولُوكُوسْت قد حدث دون غُرَف الغَاز" "12".

لقد أصبحت "غُرَف الغَاز" في عام 1996م مجرد رمز!

صحيفة سويسريّة تضرب مثالا

لقد تعرضت خلال السنوات الأخيرة سواء في مقالات أو في أحاديث مسجلة مع إرنست زوندل في كندا، لهذا التحول الذي طرأ على موقف "الإباديّين" فيما يتعلق بـ"غُرَف الغَاز" النازيَّة. وفي نص كتبته في 22 سبتمبر عام 1993م تنبأت بأن المنظمات اليهوديَّة سوف تضطر قريبا إلى التخلّي عن أكذوبة "غُرَف الغَاز" النازيَّة،

بينما تصر في الوقت نفْسه على أن "الهُولُوكُوسْت"حقيقة لا تقبل الشكّ. واتساقا مع هذا قرر المسؤولون عن متحف الهُولُوكُوسْت التذكاري في واشنطن عدم عرض تجسيد مادي لغُرفَة الغاز (باستثناء باب لغُرفَة من غرف التطهير بالغاز ونموذج "فني" عبثي) "13".

إن المقالين اللذين نشرهما جاك بايناك في الصحيفة اليوميَّة السويسريَّة هما مجرد خطوة في مسار هذا المسخ المتمثل في الدراسات التاريخيَّة الرسميَّة (الإباديّة). ويؤكد مقالاً بايناك أن المؤرخين أصبحوا لبعض الوقت الآن، منشقين على أنفسهم. وتدريجيا، أصبح المؤرخون يرفضون الاستنتاجات التبسيطيَّة لمحاكمات نورمبرج بشأن غُرَف الغَاز والإبادة الجماعيَّة.

وعندما يعلن القضاة أن التشكيك في "غُرَف الغَاز" النازيَّة هو تشكيك في "الجرائم ضِدَّ الإنسانيَّة" (التي يُقصَد بها إبادة اليهود) فإنَّهم يكونون على صواب. ومع ذلك، إذا لم يكن هناك أي دليل على وجود سلاح محدد للجريمة، فمن المنطقي ألَّا يكون هناك دليل على وقوع الجريمة. هذا الاستنتاج رغم ما يسببه من حرج للقضاة الذين يتجرأون على إدانة المراجعة التاريخيَّة، ينبع حتما من الموقف الذي اتخذه بايناك، وهو مرة أخرى، موقف ليس غريبا بأي حال عليه، لكنه يمثل اتجاها عاما في الدراسات التاريخيَّة الرسميَّة. إن بايناك يعبر ببساطة وبصوت عال، عما ظل زملاؤه يفكرون فيه في صمت.

وحين نشرت صحيفة "لو نوفو كوتيديان" وهي صحيفة معادية للمراجعة عموما، هذين المقالين لبايناك فقد كشفت هذه الصحيفة عن نفاذ بصيرتها واحترامها لقرائها "14".

ملحوظة:

جاك بايناك: "لا توجد أدلة، ومع ذلك مازلت مؤمنا".

روبير فوريسون: "لا توجد أدلة، لذا فإنّني أرفض أن أؤمن".

الأول: تتوفر له حريّة التعبير.

والثاني: السجن من شهر إلى سنة، وغرامة من 2000 إلى 300 ألف فرنك وغرامات أخرى.

يوليو-أغسطس 1998م

هوامش:

1) مِن بين الكُتب التي أصدَرها جاك بايناك كِتاب "الإرهاب في عهد لينين"(1975م)، و"رافاشول ورفاقه"(1976م)، و"مراجَعة مايو 68"، و"الاشتراكيُّون الثوريُّون الروس مِن 1881م-1917م" (1979م)، و"ثورة جورباتشوف"(1988م). وفي عام 1987م نَشَر بايناك بالاشتراك مع نادين فريسكو مقالاً معاديًا للمراجعة في صحيفة "لوموند" بعنوان "كيف يمكننا التخلص منهم"(عدد 18 يونيو 1987م، صفحة 2).
2) صحيفة "لو نوفو كوتيديان" (لوزان- سويسرا)، 3 سبتمبر 1996م، صفحة 14.
3) "الترحيل: نظَام معسكرات الاعتقال النازيَّة". نُشِر تحت إشراف فرنسوا بيدريدا ولوران جيرفيرو (1995م)، صفحة 196. هنا يُقدِّر بريساك ضحايا أوشفتز مِن 600 ألف إلى 800 ألف شخْص. وهذا تراجعٌ كبيرٌ مِن رقْم التسعة ملايين شخْص كما يقول فيلم "ليلٌ وضباب"، أو أربعة ملايين شخْص حسب تقديرات محكمة نُورمْبِرج، وكما ظلَّ محفورًا على لوحاتٍ مُعلَّقةٍ فوق متحف أوشفتز حتّى عام 1990م (استُبدِلَتْ عام 1995م، بلوحاتٍ تَحمل رقْم مليون ونصف مليون شخْص).
4) عن بريساك أُنْظُر روبير فوريسون: "أوشفتز: تقنيَّة وعمل غُرَف الغَاز"، ربيع 1991م، جورنال أوف هستوريكال ريفيو، وآرثر بوتز: "بعض الأفكار عن بريساك معزوفة بريساك"، مايو- يونيو 1993م، المصْدر نفْسه، وسيرج ثيون: "أكاديميّ فرنسيّ يَرُدُّ على عمل ذائع الصيت مُناهِضٍ للمراجَعَة"، يوليو-أغسطس 1994م (المصْدر نفْسه).
5) لو نوفو كوتيديان، 3 سبيتمبر 1996م، صفحة 14.
6) أرنو ماير: "لماذا لم تظلم السماء؟: الحلّ النهائي في التاريخ"، نيويورك 1989م، صفحة 362.
7) لو نوفو كوتيديان، المصْدر السابق.

8) "السرُّ المشتَرَك"، لو نوفيل أوبسرفاتور، 21 سبتمبر 1984م، صفحة 80.

9) المادة 31، يناير-فبراير 1987م، صفحة 22.

10) إيلي فيزل: "كلّ الأنهار تصب في البحر، مُذكِّرات". نيويورك، راندوم هاوس 1995م، صفحة 74.

11) مايكل كورتشيك: "أُسْطورة القتل الجماعيّ بكفَاءَة"، 15 ديسمبر 1995م. أنْظُر أيضًا روبير فوريسون: "طبعة جديدة لِقِصَّة الهُولُوكُوسْت"، مارس-أبريل 1996م، جورنال أوف هستوريكال ريفيو، صفحة 22- 23.

12) دانييل جولدهاجن: "جلادو هِتْلر المرحبون: الألمان العاديُّون والهُولُوكُوسْت"، نيويورك 1996م، صفحة 521.

13) بروفيل (فيينا)، 9 سبتمبر 1996م، صفحة 75.

14) خلال زيارتي لمتحف "الهُولُوكُوسْت" التذكاريّ في واشنطن في 30 أغسطس 1994م، التقيتُ بمدير الأبحاث في المتحف مايكل برينباوم، الذي قال لي -في وجود شهود- إنَّ "قرارًا اتُّخِذ بعَدَم تقديم أيّ تجسيدٍ ماديٍّ لغُرفَة غازٍ نازيَّة".

15) في مقال باياك في عدد 2 سبتمبر من لونوفو كوتيديان (صفحة 16) هناك ثلاثة أخطاء صغيرة: في العمود الثاني؛ الصحيح هو "فلوران برياير" بدلاً مِن (فلوران راسينييه)، وفي العمود الثالث؛ الصحيح هو جان فرنسوا كان (وليسَ كان)، وفي العمود الرابع؛ الصواب هو "ليس من الضروريّ أنْ نَسأل أنفسنا كيف"، بدلاً من (يسأل المرء إذا).

كلمةٌ إلى القَادة العَرَب

يجبُ التخلّي عن الصمْت إزَاء أُكذُوبة "الهُولُوكُوسْت"*

خَمس ملحوظاتٍ تمهيديّة:

1- إنَّني أقْصد "القادة"، وليس "المثقَّفِين والأكاديميّين والصحفيّين الذين عبَّر البعض مِنهم بالفعل عن رأيه في الموضوع.

2- تُشِير كلمة "هُولُوكُوسْت" (ويَجب أنْ تُوضَع دائمًا بَيْن قوْسين) إلى الأُسْطورة الثُلاثيَّة المكوَّنَة مِن: الإبادة المزعومة لليهود، وغُرَف الغَاز المزعومة، ورَقْم الستَّة ملايين يهوديٍّ المزعوم للضَّحايا اليهود في الحرب العالميَّة الثانية. لقد عَرفَت الإنسانيَّة عبْر مسَار تاريخٍ يَمتلئ بالغضب والدماء والنيران، المِئَات مِن "الهُولُوكُوسْت"، أيّ خسائر فادحةً في البشر وصداماتٍ مُروِّعَة (قُدِّمَت في الاستخدام الأصليّ للكلمة في العَالَم، كما لو كانتْ ضحايا أو قرابين تطلبها بعض القوى الخارقة). غيرَ أنَّ مُعاصِرِينا اعتادوا على الاحتفاظ في عقولهم بهُولُوكُوسْت" واحدٍ فقط، هو ذلك الذي وقَع لليهود. وهو مكتوبٌ اليوم بحروفٍ كبيرةٍ وأَصبَح حدَثًا فريدًا في نَوْعه، فلم تَعدْ

---

* "كُتِبَت هذه الكلمة في 22 مارس 2001م، لإلقَائِها في 31 مارس 2001م أمام مُؤْتَمر بيروت عن "المراجعة التاريخيَّة والصهيونيَّة"، الذي أَلغَت الحكومة اللبنانيَّة انعقاده في آخر لحظة".

هناك ضرورةٌ لكتابة "هُولُوكُوسْت اليهود" بَل يكفِي أنْ تكتب أو تقرأ كلمة "الهُولُوكُوسْت".

ولم يحدثْ أنْ اقتضَى أيّ هُولُوكُوسْت سابقٍ دفْع تعويضاتٍ ماليَّةٍ أو تعويضاتٍ أخرى، تتناسَب مع ما يَزعم اليهود أنَّهم تعرَّضوا له في "الهُولُوكُوسْت" الذي يُصرُّون على تفرُّده وعلى أنَّه حدَثٌ غير مسبوقٍ في التاريخ البشريّ. وكان سَيُصْبح كذلك بالفعل إذا ثبَت أنَّ أضلاعه الثلاثة صحيحة (الإبادة، وغُرَف الغَاز، والستَّة ملايين ضحيَّة).

وإذا كان كثيرٌ مِن اليهود الأوروبيِّين قد عَانَوا وماتوا خلال الحرب المقصودة، دون أنْ تُضاهِي هذه المعاناة ما يعنيه اليهود اليوم عند استخدامِهم مُصْطلح "الهُولُوكُوسْت"، فقدْ عَانتْ شُعوبٌ أخرى كثيرةٌ، خاصَّةً الألمان واليابانيُّون والروس والصينيُّون، مصيراً أسوأ كثيراً مِن مصير اليهود. ولنتَذكَّرْ فقط القنابل الفسفوريَّة أو الذريَّة التي قَتلتْ مليون يابانيٌ وألمانيٌ (إضافةً إلى عشرات الآلاف مِن الجرحى). ومِن المناسب فضلاً عن ذلك أنْ نُضِيف أنَّ ملايين اليهود الأوروبيِّين نَجَوا مِن تلك الإبادة المزعومة، وعاشوا لكي يتمتَّعوا بعد الحرب بالقوَّة والازدهار، كما لمْ يَحدث في تاريخهم كلّه مِن قبل. ولكي يتمتَّعوا بالتميُّز كما هو حَادِثٌ حاليًّا، كان لابُدَّ مِن تضخيم "الهُولُوكُوسْت" المزعوم، والتضخيم بالتَّالي مِن مُعانَاة اليهود، بما يَتجاوز كلّ الحدود والمقايِيس سواءً في الكمّ أو في الكيْف، والتقليل في الوقت نفْسه، مِن مُعانَاة سائر الشعوب الأخرى التي لمْ يُطلَقْ على مُعانَاتِها اسمٌ مُعيَّن.

3- الخداع هو الأُكذُوبة المفروضة، وهي هُنا أُكذُوبةٌ تاريخيَّةٌ، ولأنَّها مِن تزييف كَاذبِين أو مُزيِّفِين يَخترعون الحكايات الغربية، فقدْ صدَّقتْها بالتَّالي أعدادٌ كبيرةٌ مِن الناس، رَوَّجُوا لها، سواءً بحُسْن نيَّةٍ أو بسُوْء نيَّة. وهُنا فَنحْن في مواجهة حفْنةٍ مِن الكاذِبِين وكثرةٍ مِن المتَاجِرِين.

4- الحقيقة المثبَتَة هي المضادَّة لهذه الأُكذُوبة. ولأنَّ كلمة "الحقِيْقَة" لا تزال غامضةً ويُساءُ استخْدامها، فإنَّني أُفضِّل كلمة "الدِّقَّة" exactitude. وتَختَصُّ المراجَعَة التاريخيَّة بمحاولة فَحْص وتَدْقِيق وتَصْحِيح ما هُو مقبول بشكْلٍ عامٍّ، بنَظرةٍ تسعَى إلى تدقيق حَقيْقة شيّءٍ ما، والتَّثبُّت مِن مصداقيَّة أو أصَالة أو صِدْق ودِقَّة نصٍّ مَا أو وثيقةٍ مَا.

5- عَلى حين أنَّ الصهيونيَّة أيديولوجيَّة، فالمراجَعَة التاريخيَّة مَنْهَج. وكمُرَاجِعٍ، فإنَّني لنْ أُصْدِر حُكْمًا على الصهيونيَّة نفْسها (في فَجْر القرْن الحادِي والعشْرين) بَل على استخدامها لخدْعة "الهُولُوكُوسْت".

وإذا كان قادة الدُّول الإسلاميَّة يُفكِّرون في التَّخلّي عن صمتهم بشأن هذه الخدْعة، وإذا كانوا بذلك سَيَتحَدُّون اللوبِي اليهوديّ والصهيونيّ، فسَوفَ يحتاجون بالتالي إلى:

أولاً: وَضْع خصْمِهم في حَجْمه الصحيح. وثانيًا: الاتفاق على استراتِيجيَّةٍ لمواجَهَتِه. وأخيرًا: أنْ يُقرِّروا بدِقَّةٍ النُقْطة التي يُرَكِّزون عليها هُجومَهم. ولمناقشة هذه النقاط الثلاث، سوف أُقَسِّم حديثي إلى ثلاثة أجزاء..

في الجزء الأول؛ ومِن أجل تفادي أيّ شكٍّ فيما يتعلق بهُويَّة الخصوم، وللتأكُّد مِن وضْعهم في حجْمهم الصحيح، سأَعرِض مِن وجْهة نظري، ما قدْ يبدو ظاهريًّا نقَاط الضَّعْف عنْد اليهود والصهاينة، ثُمَّ سأَعْرِض لما أعتقد أنَّها نقَاط ضَعْفهم الحقيقيَّة. وفي الجزء الثاني؛ الذي يَتعلَّق بالاستراتيجيَّة التي يُمْكِن اعتمادها، سأُلخِّص بعض الاستنتاجات المحدَّدة التي تَوصلتُ إليها في نوفمبر 2000م، أثناء زيارتي إلى طهران بصُحْبة مُمثِّلين مِن مركز الدراسات الاستراتيجيَّة في جمهوريَّة إيران الإسلاميَّة. وفي الجزء الثالث؛ سأَشْرَح الهدَف الدقِيق الذي يَجِب إصابَته، أيّ "غُرفَة الغاز النازيَّة السحريَّة" (كما أَطْلقَ عليها لويس فرديناند سيلين Celene).

الخصْم اليهُوديّ والصهْيونيّ:

قدْ يَتظاهر الخصْم المخَادِع بالخوف مِن أشياء لا يَخاف مِنها في الحقيقة. وقدْ يَكشِف عن نقَاط ضَعفٍ لديه ليسَت كذلك حقًّا، ويُحَاول أنْ يُخفِي ما يُسبِّب له القَلَق بالفعْل. وبذلك فإنَّه سيتعرَّض للهجوم في المناطق التي لا يَهمُّه أَمرُها على الإطلاق، ويُبعِد الهجوم

عن المناطق التي تُسبِّب له الألم حقًّا. هنا ليس مِن المهمّ أنْ يكون الخصْم يَهوديًّا أو صهيونيًّا، فاليهود مُتَنوِّعون بِلا شكٍّ (المَثَل اليَدِيشِيّ يقول: يَهوديَّان وثَلاثَة مَعَابِد)، وسياسيًّا لم يَسبقْ لليهود أنْ شَكَّلوا كيانًا مُوحَّدًا ولا حتّى ضِدَّ هتْلَر. ولكنْ دون يهود لَيستْ هناك صهيونيَّة (فالصهيونيَّة عند اليهوديّ مثل المطْرَقة بالنسبة للنَّجَّار). وباستثناء بعْض الحالات النادرة، يَشْعر اليهوديّ بالتضامن مع الصهيونيّ، والصهيونيّ بالتضامن مع اليهوديّ، إذا لاحظ الإثنان أنَّ العامل المشترك بينهما أيّ أُسْطورة "الهُولُوكُوسْت" مُعرَّضة للدمار. ولِذا فإنَّ التفْرِقة المعتادة بين الاثنين غير واردةٍ هُنا.

أولاً: نقاط الضّعف الزائفة عند الخصْم:

1- رغم تَخوُّفِهم الظاهِريّ مِن هجومٍ عسكريٍّ على دولة إسرائيل، لا يَخشى حُكَّام تلك الدولة أو يهود الشتات (الدياسبورا) الذين يؤيّدونهم، مِن القوة العسكريَّة لعدوّهم. فهُم يعرفون أنَّ القوة العسكريَّة الإسرائيليَّة يُمكِنها دائمًا التفوُّق على ذلك العدوّ، بفضل المساعدات التكنولوجيَّة والماليَّة التي تَحصل عليها إسرائيل مِن الخارج خاصَّةً مِن الأمريكيِّين والألمان.

2- إنَّهم لا يخشون حقًّا مِن أنواع العداء لليهوديَّة الذي يُطلَق عليه العداء للساميَّة، بَل على العكس فهُم يَعيشون عليها، لأنَّها تتيح لهم الفرْصة دائمًا للاحتجاج على العداء للساميَّة، بغرض الحصول

على المزيد مِن الأموال مِن يهود الشتات. وبِوَجْهٍ عامّ، يُعتَبَر التبَاكِي ضرورةً حيويّةً لديهم: "كلّما بَكيت أكثر، كلّما حَصلت على مالٍ أكثر، وكلّما حَصلت على مالٍ أكثر، بَكيت أكثر".

3- لا يخشَى اليهود والصهاينة الإدانة التي يُوجِّهها بعض اليهود لـ "تجارة الهُولُوكُوسْت" و"صناعة الهُولُوكُوسْت"، كما فَعَل الكاتبان اليهوديّان بيتر نوفيك ونورمان فنكلشتاين، فهذه الإدانات ليست إلّا نَوْعًا "الكوشار" الذي يَحتَاط دائمًا للأمر بتأكيد حقيقة وقوع "الهُولُوكُوسْت". وسَنُلاحِظ فضلاً عن ذلك، أنّ الاستغلال التجاريّ والاقتصاديّ للمُعانَاة اليهوديّة المفترَضة، يُشكِّل في حدِّ ذاته تجارةً مُربحَة. وقدْ أَصبح نقْد هذا الاستغلال خلال السنوات القليلة الماضية يَتَّخذ مَنْحىً آخر في هذا النوع مِن التجارة، خاصّةً وأنَّ هذا النقْد قاصرٌ فقط على اليهود، فهُم أحرارٌ فيما يقولونه ويطرحونه، على حِين أنَّ أيَّ شخْصٍ مِن "الأغيار" Gentiles يَحْذو حَذْو فنكلشتاين في إدانته لِمافيَا "الهُولُوكُوسْت"، سيجدُ نفْسه على الفوْر ضَحيَّة الحُرّاس الأوفياء لتلك المافيَا.

4- إنّهم لا يَخْشون حقًّا العداء للصهيونيّة في حدِّ ذاته، بَل يَسمَحون في بعْض الحالات بالتعبير عنه.

5- لا توجد لديهم أسبابٌ كثيرةٌ للقَلَق، مِمَّا أَصْبح حاليًا شَكْلاً جديدًا معتادًا مِن أشكال العداء للساميَّة، وهو ما يَتمثَّل في الهجوم

على كلّ الأساطير المؤسِّسَة للسيَّاسة الإسرائيليَّة، فِيمَا عَدا ما أَصْبح أمْرًا أساسيًّا عِنْدَهم؛ أيّ "الهُولُوكُوسْت".

6- لا حاجَة بِهم للخَشْية مِن الاتهام بالعنصريَّة أو النازيَّة، طالما ظَلَّت هذه الاتهامات -حتَّى إذا كانتْ أحيانًا تَستند إلى أسَاس- مُجرَّد شعارات تتردَّد مثل الطقوس بشكلٍ آليّ، وبِلُغَةٍ آليَّة. ومُقَارَنة اليهود بهِتْلر، ثُمَّ القول إنَّ الصهاينة مثْل النازيِّين، يقومون بعمليَّة "إبادة"، ليس أمرًا غير مُستَحَبٌّ على إطلاقه عنْد اليهود والصَّهاينَة، لأنَّه يُساهِم في تعزيز صُورة هِتْلر والنازيَّة التي نَجحُوا هُمْ في تَزيِيفِها. وهو ما يُساهِم في ترسيخ أُسْطورة "إبادة اليهود" بِقُوَّةٍ في ذاكرة الناس أوّلاً وأخيرًا. والواقع أنَّ هِتْلر لم يَكنْ يختلف في وَحْشيَّته كما يَزعُم اليهود عن نَابلْيون، الذي منحَتْه الدعاية الإنجليزيَّة لقَب "الغُول" Ogre. ورغم أنَّ هِتْلر كان عُنْصريًّا ومُعادِيًا لما أُطْلِقَ عليه اليهوديّ الدوليّ (وليس اليهوديّ الصهيونيّ) فإنَّه لمْ يأمرْ قَطّ أو يَسمحْ بِقَتل أيّ إنسانٍ بِسبَب جنْسه أو دِينِه. وفضلاً عن ذَلك، أَصْدَرتْ المحَاكم المدنيَّة والعسكريَّة الألمانيَّة في عَهْده أَحكامًا وصَلتْ أحيانًا إلى الإعدام، على جنودٍ ألمان ضُبَّاط، أو مدنيِّين ثَبتتْ إدانتهم بِقَتْل يَهود (حتَّى فِيمَا يَتعلَّق بجرائم ارتُكِبتْ خلال الحرب، في بولندا وروسيا والمجَر). وهذه إحدَى حقائق التاريخ التي أغفلها تمامًا المؤرِّخُون الإباديّون، وتجَاهلَها للأسف المراجِعُون.

ورغم التحالف الألمانيّ السوفيتيّ (أغسطس 1939م-1941م)، كان هِتْلر مُعَادِيًا بشكلٍ أساسيٍّ للستالِينِيَّة التي أَطْلَقَ عليها "البَلْشَفِيَّة اليَهودِيَّة"، بِسبَب المسَاهمَة البارزة لليهود في البَلشَفيَّة. وكان الجنديُّ الألمانيُّ يُقاتِل وهُو يَعتبر الشيوعيَّة السوفيتيَّة عَدوَّه الأساسيّ.

7- يَسْخر اليهود والصهاينة -ليس مِن دون سبب- مِن الذِين يَتحدَّثُون عن "مُؤامَرةٍ يَهودِيَّة" أو "مُؤامَرةِ أوشفتز"، لأنَّه لَا تُوجد هناك "مُؤامَرةٌ يَهودِيَّة" (تمامًا كما لَا تُوجد مُؤامَرةٌ جِيزوتيّةٍ أو كاثولِيكيَّةٍ أو أمريكيَّةٍ أو شيوعيَّةٍ). ولكن هناك قُوَّةٌ يَهودِيَّةٌ أو نُفُوذٌ يَهودِيّ. وبِنفْس الطريقة ليس مِن الممْكن الحديث عن "مُؤامَرة أوشفتز"، ولكنْ عن أُكْذُوبة أوشفتز، خاصّةً وأنَّ أفكارًا مِن نوع مُؤامَرةٍ أو خُطَّةٍ، هي أَفكَارٌ مُتَأصِّلَةٌ في التقاليد اليهوديَّة، لِذَا يَجب أنْ تَبقى امتِيازًا لهم وَحْدهم، فمِن الخطأ توجيهها إليهم.

المَخَاوف ونقَاط الضّعْف الحقيقيّة عنْد الخصْم:

1- يَخشَى يهود إسرائيل (فلسطين) أسلحة الفقراء (حجارة الأطفال ونِبالهم مِثل تلك التي كان يَستخدمها ديفيد ضِدَّ جوليات العملاق، وأيضًا الهجمات الانتحاريَّة)، كما يَخشَون كلَّ ما يُمكن أنْ يُهدِّد الأفراد والمصالح التجاريَّة. إنَّهم يَخشَون الاستهانة بِقُوَّة بَأْسِهم، ويَخشون أنْ يأتي يومٌ يَجدون فيه أنفْسهم مُضْطَرِين للاختيار بَين حقيبة السَّفر أو الكَفَن.

2- غير أنَّهم يتَوجَّسون مِن "قنبلة الفقراء الذريَّة"، أيّ مِن انهيار أُكذُوبة غُرَف الغاز والإبادة الجماعيَّة والستَّة ملايين يهوديّ، تَحت مَعَاول المراجَعَة التاريخيَّة. إنَّهم يَخشون هذا السلاح الذي لا يقتل أحدًا، والذي لن يفشل -إذا ما أُحسِن استخدامه- في تفجير الأكذوبة الكبُرى مِثل بَالونٍ كبيرٍ مَليءٍ بالهواء السَّاخِن.

3- إنَّهم يَخشَون رؤية أُكذُوبة "الهُولُوكُوسْت" وقد انكشَفتْ أمام العَالَم كلّه، تلك الأُكذُوبة التي سَاهمتْ بعد نهاية الحرب العالميَّة الثانية في إقامة مُستَعمَرةٍ يهوديَّةٍ في فلسطين تُدعَى إسرائيل، في وقتٍ كان العَالَم يَشهَد فيه بدايات أضخم حركة تحرُّرٍ ضِدَّ الاستعمار.

4- إنَّهم يَعرفون أنَّهم إذا خَسِروا "الهُولُوكُوسْت" فمعنى ذلك أنْ تَخسر إسرائيل سَيْفها ودِرعَها الواقي، وتخسر سلاحا سياسيًّا وماليًّا هائلاً للابتزاز. إنَّ معهد "ياد فاشيم" في القدس، وهو متحف لذكرى الهُولُوكُوسْت (ويتمّ حاليًا توسيعه) هو أكثر أهميَّةً بالنسبة لهم مِن حائط المبكى. ويَتعيَّن على كلّ شخصيَّةٍ سياسيَّةٍ تزور إسرائيل لأسبابٍ سياسيَّةٍ أو اقتصاديَّةٍ، زيارة هذا المتحف واسترجاع الفظائع المعروضة فيه، حتَّى يَتشرَّب الإحساس بالذنب لكي يظلَّ طَيِّعًا. وأحيانًا يتم تدبير زيارة لممثِّلي تلك الدول القليلة النادرة التي فَشلتْ محاولات اليهود والصهاينة في تحميلها دورًا سلبيًّا أو إيجابيًّا في "الهُولُوكُوسْت" المزعوم. ومِن المثير للدَّهشَة أنْ نجد المسؤولِين

الإسرائيليِّين يَشْكون مِن صعوبة التعامل مع شركاء لَمْ يتمكَّنوا مِن تطويعهم.

5- إنَّهم يُدركون أنَّه "إذا ما انكَشفتْ أكذوبة الهُولُوكُوسْت فإنَّ السلاح رقم واحد في الدعاية الإسرائيليَّة سوف يَتدَاعَى" (كذا). (مِن خِطابٍ للبروفيسور و. د. روبنشتاين الأستاذ في جامعة ديكين، ميلبورن (أستراليا) إلى مجلة ناشن ريفيو، 21 يونيو 1979م، صفحة 639).

6- إنَّهم يُدركون جيّدًا أنَّه "إذا أمكن إثبات أنَّ "الهُولُوكُوسْت" ما هو إلَّا أُسْطورة صهيونيَّة، فسوف تنهار أقوى الأسلحة في ترسانة إسرائيل العسكريَّة". (نفْس الأكاديمي، في مقالٍ بعنوان "اليسار واليمين واليهود"، مجلة كوادرانت، سبتمبر 1979م، صفحة 27).

7- يشعر اليهود والصهاينة بالدُّوَار مِن مُجرَّد فِكْرة أنَّ الرأي العام قد يَطّلع أخيرًا، على كَمّ الظُّلم الذي وَقَع في محاكمات نُورمِبرْج، واستخدام اعترافاتٍ مُزوَّرةٍ عن وجود غُرَف الغَاز أو شاحنات الغاز، التي لم يكنْ لها في الواقع أيَّ وجود، أو الاعترافات التالية عن أعمال القتل الخرافيَّة التي تُنسب إلى القوَّات الخاصَّة الألمانيَّة، باصطياد الرجال المسنين بمَن فيهم المرضى الذين يُقيمون في بيوت المسنِّين. وبعد أكثر مِن نصف قرنٍ لا يزال تَلقين كلّ العقول مُستَمرًّا: للطلاب مِن المدارس الابتدائيَّة إلى الجامعات، ومِن خلال الكتُب

والصحف والإذاعات ومحطات التليفزيون في كلّ القارات، هذه الوسائل التي تُردِّد تلك المزاعم ليلاً ونهارًا. وفي الوقت نفْسه يتم قَمْع المراجِعِين، خاصّةً في ألمانيا الخاضعة للغزاة المنتَصِرِين (دون أنْ تُوقّع حتّى الآن مُعاهَدة سَلَام). فقد ارتكب هؤلاء المراجِعون الخطيئة القاتلة التي تتمثل في المطالبة ببساطةٍ بالحقّ في التأكّد مِن الاتهامات البشِعة، التي تَخلو مِن كلّ دليلٍ والتأكّد مِن الشهادات التي قُدّمَت على أنّها صادقة، في غياب الفحْص والمطابَقة والاستجواب المضَادّ، والتي تتعلّق بالطبيعة الماديَّة لما يُقال إنَّه حقائق، ودون تحقيقٍ واحدٍ في سلاح الجريمة المزعومة.

8- ولتلخيص الكابُوس الذي يَعيشه هؤلاء اليهود والصهاينة، يَكفي أنْ نُكرِّر العبارة التي نَطَق بها تلميذ بول راسينييه (أي فوريسون نفْسه- المترجم) على الهواء في راديو أوروبّا رقم واحد، قبل عشرين عامًا أمام الصحفيّ يوفان ليفي. وهُنا نَصُّ العبارة التي تَسبَّبتْ في ذلك الوقت في تغريمي أمام القضاء: "إنَّ غُرَف الغَاز الهتلريّة المزعومة والإبادة المزعومة لليهود يُكوّنَان الأكذوبة التاريخيَّة نفْسها التي أتاحتْ الفرصة لأكبر عمليَّة احتيال سياسيّ وماليّ، المستَفِيد الأوَّل منها هو دولة إسرائيل والصهيونيَّة الدوليَّة، وضحاياها هُم الشعب الألمانيّ -وليس قياداته- والشعب الفلسطينيّ بأَسْرِه".

الجزء الثاني: كيف نُعلن الحرب على هذا الصّمت:

1- في نوفمبر 2000م قَضَيتُ أسبوعًا في إيران بدعوةٍ مِن مركز الدراسات الاستراتيجيَّة، وهو كيانٌ يخضع مباشرةً لمكتب رئيس الجمهوريَّة الإسلاميَّة السيِّد محمد خاتمي. لمْ أجرِ أيّ اتصالٍ بالصحافة أو الإذاعة أو التليفزيون في إيران، ولكنّي أجرَيتُ اتصالاتٍ مع بعض الأشخاص المطَّلِعين جيّدًا على المراجَعَة التاريخيَّة. لم أعقدْ أيّ مُؤتمَرٍ صحفيّ عَامّ، لكنّي استمتعتُ بالحوار الذي أجراه معي لعدَّة ساعات رئيس مركز الدراسات الاستراتيجيَّة البروفيسور سوروش نجاد وبعض زملائه. ودُهِشتُ كثيرًا لمعرفة بعض الإيرانيِّين الواسعة بالمراجَعَة التاريخيَّة. وفي الوقت نفْسه تقريبًا، وَصَل المراجِع السويسريّ يرجن جراف إلى إيران. وأسعدني حقًّا أنَّه نتيجةً لهذا النشاط المكثَّف والصِّلَات التي احتفظتُ بها مع السلطات الإيرانيَّة بعد عودتي إلى فرنسا، أنْ تَنشر صحيفة "طهران تايمز" سِلسلةً مِن المقالات في المراجَعَة التاريخيَّة، حَمَل المقال الأول مِنها توقيع البروفيسور سوروش نجاد نفْسه.

2- مُقابِل المعلومات التي زوّدتُ بها رئيس المعهد المشَار إليه، تَوجهتُ له بسؤالٍ حَوْل السبب في عدم وصول أصدَّاء المراجَعَة التاريخيَّة حتَّى الآن إلى الدول العربيَّة والإسلاميَّة. وقد لَخَّص لي هو الأمر في ثَمَاني نقاط. بعْض هذه النقاط، في ضوء الأحداث الأخيرة في فلسطين، لم تعدْ قائمةً بالنسبة لكلّ مِنَّا، وهناك نقاط أخرى

تعكس سوء فَهم. وأخيراً هناك نقاط ما تزال تَتمتّع للأسف بالقُوَّة، مِنها بوجهٍ خاصّ النقطة التالية: في الدول الغربيَّة، التي يجب أنْ تَتّعظ قبل أنْ تَشكو مِن صمت الآخرِين، لا توجد إلَّا حفنَة مِن المراجِعِين الذين يَتصدّون للعمل بأسمائهم الحقيقيَّة ودون تحفظاتٍ أو مناوراتٍ ويسيرون على خُطى بول راسينييه.

3- حاولتُ أن أشرح أنَّ هذا السجلّ المخزِي يرجع أساسًا إلى ما يُمكن أن أُطلِق عليه الخوف مِن اليهود (metus Judaeorum)، الذي يُثيره في كلّ مكانٍ الأنين والتهديد اليهوديّ (وهو ما شَعَر به سيسيرو عام 59 قبل الميلاد). وأضفتُ أنَّ أيَّ شخصيَّة سياسيَّة اليوم، سواءً كانت إيرانيَّة أو لبنانيَّة أو صينيَّة أو يابانيَّة، لا يُمكنها تفادي ذلك الشعور بالخوف في مواجهة جماعة شديدة الثراء والقُوَّة في العالم الغربي، يَمتلك زعماؤها الوسائل التي يُمكِنهم بواسطتها في أيّ لحظةٍ، إغراق أجهزة الإعلام بالحديث عمَّا وَقَع لهم مِن اضطهادٍ وظُلم، لكي يُطالِبوا في النهاية بمُقاطعَة أيّ زعيمٍ في أيَّة دولةٍ لم يُبادرْ بإبداء "الندَم" أو قَاوم المطالب اليهوديَّة.

4- أخذتُ بعد ذلك أستَعْرض السبب الذي يَجب أنْ يَدفع زعماء الدول الإسلاميَّة إلى التخلّي عن صمتهم، وكيف يُمكنهم في رأيي، أنْ يَفعلوا ذلك. ولن أُوضّح هُنا هذه الأسباب، لكنّي سأُلخّص في الكلمات التالية إحساسي بالنسبة للمَسْلك الذي ينبغي سلوكه: يجب على واحدٍ أو أكثر مِن هؤلاء الزعماء عبور حاجز الصمت

بشكلٍ نهائيّ، ودون أيّ تفكيرٍ في التراجع. إنَّ تجربتي الطويلة مع اليهود أو الصهاينة في هذا المقام، أقنَعَتْني بأنَّ المخَادعِين يَرتبكون أمام أيّ شخصٍ يتجرأ على مواجهتهم علانيةً. وإذا تَمكّن المرء مِن التطلع إليه، يَجب مواجهته واستجوابه وجهًا لوجهٍ تمامًا مثل النبيّ الكاذب، وهكذا يَجب التعامل مع إدجار برونفمان، وإيلي فيزل، وسيمون ويزنتال (والإثنان الأخيرَان يَكْرهان بعضهما البعض)، كذلك يجب التصدّي للأكاذيب التي يُطلِقها الحَاخَام مارفين هير، والحَاخَام أبراهام كوبر.

5- حَذّرتُ مُضِيفي مِن اللجوء، حتَّى في المرحلة الأولى، إلى شكلٍ مِن المراجَعَة اللقِيطة التي تؤدي إلى الجَلد بالسيَّاط. وعلى المرء أيضًا أنْ يكون مُطّلعًا على طروحات المراجَعَة التاريخيَّة، فيما يتعلّق بالجوانب الفيزيائيَّة والكيميائيَّة والوثائقيَّة والتاريخيَّة للمراجَعَة، لكي يَتَّخذ موقفًا يَستند إلى أرضيَّة مُراجَعَةٍ قويَّة. وذَكَّرتهم على سبيل المِثال، بأنَّ أُسْطورة "غُرَف الغَاز" النازيَّة قد لاقتْ حَتْفها تقريبًا في 21 فبراير 1979م، عندما كَشفَ 34 مُؤرّخًا فرنسيًّا في "لوموند" عَجزهم عن الرد على التحدّي الذي وَجّهته لهم، بشأن الاستحالة التقنيَّة لتشغيل تلك المجازر الكيميائيَّة. الرأي العامّ لم يَطَّلع على هذا الحدَث، تمامًا كما لم يَطَّلع على سلسلة الهزائم والكوارث التي أحَاقتْ بمجموعة مُؤرِّخِي "الهُولُوكُوسْت" منذ عام 1985م (تاريخ المحاكمة الأولى لزوندل في تورنتو). والآن الأمر يعود إلى زعماء الدول

الإسلاميَّة في الكشف عن معلوماتٍ كهذه ما تزال خافيةً على الناس.

6- في هذه الدول المختلفة، يجب على معاهد الدراسات التاريخيَّة وعِلم الاجتماع والدراسات السياسيَّة أنْ تُسلّح نفْسها بقسمٍ يتخصّص في المراجعة التاريخيَّة. وسوف تتيح امكانات البحث ومواد الأرشيف للدارسين مِن العَالَم كلّه، الذين اضُطروا لمغادرة بلادهم بسبب آرائهم المراجِعة أو اتجاهاتهم، مِن العمل جنبًا إلى جنبٍ مع زملائهم مِن العالم الإسلاميّ. ويجب أنْ يتعاون وزراء الثقافة والتعليم والخارجيَّة والإعلام في هذا المشروع ذِي الأفق الدوليّ.

7- إذا ما أخذنا في الاعتبار أنَّ معُتنقِي ديانة "الهُولُوكُوسْت" يُؤيّدون ويُحافِظون على الكذب والحقد، يُصبح مِن الضروريّ تأسيس حركةٍ على المستوى العالميّ بإسم "الحركة ضِدَّ أكاذيب "الهُولُوكُوسْت" ومِن أجل الصداقَة بين الشعوب".

8- سيكون مِن المناسب أنْ نُحاول تحقيق بعض التوازن في العلاقات الدوليَّة عن طريق دعوة الممثّلين السياسيِّين أو الاقتصاديِّين مِن الدول العُظمَى لتلقينهم درسًا في التواضع. هؤلاء الناس الذين لم يَكفُّوا عن تلقين باقي العَالَم دروسًا في الأخلاق، يجب أنْ يتم تذكيرهم بأنَّهم يُظهِرون الخنوع أمام المافيا الدوليَّة، المتخصصة في الأكاذيب والدجل وازدراء حقوق الإنسان، وأنَّ على ما يُسمّى

بالمجتمع الدوليّ، الذي لا يَكفّ عن التباكي على تلك الحقوق، أنْ ينظر في هذه الحقوق مِن زاوية ما يتعرَّض له المراجِعُون قبل اتهام الدول العربيَّة أو الإسلاميَّة بالتعصب والظلاميَّة. إنَّ مثل هذه الاتهامات قد تتحول ضِدَّ الدول التي تحظر على مواطنيها تسليط الضوء على بعض النقاط التاريخيَّة، بسبب عدم قُدْرتها على تحمل الدعوة لإعادة النظر في الأسطورة التي تَحوَّلت إلى تاريخٍ رسميٍّ وأصبحتْ في حماية القانون.

9- يُتيح الوسيط الجديد القويّ للمعلومات "الإنترنت"، الانتشار السريع للمراجَعَة التاريخيَّة، وهي فرصةٌ جيّدةٌ للمثقّفِين العرب والمسلمين، الذين يتأثرون كثيراً بالأيديولوجيَّة السائدة في الجامعات الغربيَّة التي يَدرسُون فيها عادةً، للتخلّص مِن العقاقير الهُولُوكُوسْتية.

10- خُلاصة القول؛ إنَّ الشعور بالقلق الشديد مِن جانب الزعماء اليهود والصهاينة، في مواجهة انتفاضة الشباب الفلسطينيّ، الذي يعيش أسوأ الظروف، ومن نشاط المراجِعين المحرومِين تمامًا مِن كلّ شيّء، على العكس مِن المافيا الهُولُوكُوسْتية الهائلة التي تَمتلك مصادر دَعْمٍ ماليَّةٍ لا تَنْضب، يُذكِّر المرء بالخوف الموروث الذي يَشعر به الغنيّ في مُواجهة الفقير، ويَشعر به المستعمرون والسَّادة أمام عَبِيدهم. إنَّ القادة اليهود والصهاينة يَنُوحون ويُهدّدون ويَضربون. إنَّهم يَرون أنفسهم بعيون الأثرياء (لكنَّهم ليسوا أثرياء بما فيه الكفاية

بالطبع!)، في حوذتهم كلّ أنواع الأسلحة (أسلحة القُوّة الفتّاكة وأسلحة الابتزاز). وهُم يَعرفون كيف يَجعلون قادة الدول المتقدّمة يَخشون بَأْسَهم. ويُدرِكون بوجهٍ خاصّ، أنَّ القادة الألمان خاضِعون لهم، مُستعدّون حتَّى لتقديم دماء الجنود الألمان ضِدَّ أعداء إسرائيل، ومستعدون لزيادة تدابيرهم القمعيَّة ضِدَّ المراجَعة. ورغم ذلك، يسيطر على اليهود والصهاينة الخوف مِن الاضطرار لمواجهة شجاعة أولئك الذين لم يعدْ لديهم ما يخسرونه في الانتفاضة المزدوجة: الفلسطينيَّة والمراجَعَة. يشعر الأثرياء والأقوياء بالغضب وهُم يَرون أنَّ مِن الممكن هزيمتهم على أيدِي الفلسطينيِّين رُمَاة الأحجار، والمراجِعِين الذين لا يَملكون إلَّا أقلامهم.

الهدف الرئيسي: غُرفة الغاز السحريّة:

دَعونا نتعلَّم أنْ نُحدّد هدفَنا. دعونا لا نبعثر جهودنا. دَعونا نركّز انتباهنا على قلب الخصْم. إنَّ مركز الخدعْة الكُبرى التي تَتشكّل منها ديانة "الهُولُوكُوسْت" ما هي إلَّا أُكذوبة أوشفتز. وفي قلب أكذوبة أوشفتز تَقع "غُرفَة الغاز" الخرافيَّة. وهذا هو الهدف الذي يَجب ضَرْبه. إذا رَفع المتظاهرون العَرَب أو الفلسطينيّون لافتاتٍ كُتب عليها "الهُولُوكُوسْت أكذوبة يهوديَّة" أو "الملايين الستَّة أكذوبة"، فربما يُخيف هذا عُتاة الصهاينة، لكنَّ هذه الأشكال تظلُّ غامضةً، إنَّها أقل وضوحًا وأقلّ دِقَّة وأقلّ تأثيرًا مِن القول إنَّ "غُرَف الغَاز مُجرّد أكذوبة".

لا أحد يَستطيع أنْ يُطلعنا -سواءً في أوشفتز أو في أيّ مكان- على عيّنةٍ واحدةٍ مِن تلك المحازر الكيميائيَّة. لا أَحد يستطيع أنْ يَصِف لنا بدِقَّةٍ شَكْل غُرفَة غازٍ وكيفيَّة عملها. لَمْ يتمّ العثور لا على أثرٍ لها، ولا على دليلٍ على وجودها، لا وثيقة ولا رسم.. لا شيّء، إلَّا بعض "الأدلة" الهزيلة العرضيَّة التي تتلاشي كالسراب بمجرد أن تقترب منها، والتي أضطر حتَّى المؤرخين اليهود أنفسهم إلى التخلّي عنها في السنوات الأخيرة.

أحيانًا.. كما في أوشفتز، يتم إطلاع السياح على "غُرفَة غاز" يزعمون أنه أعيد تصميمها، لكن المؤرخين والمسؤولين عن متحف أوشفتز أيضًا، يعرفون جيدا حسب كلمات المؤرخ الفرنسي المناهض للمراجعة التاريخيَّة إريك كونان "أن كلّ شيّءٍ فيها زائف"(صحيفة الإكسبريس، 19-25 يناير 1995م، صفحة 68). ومع ذلك فاليهود سعداء الحظ. فالعالم يصدقهم، فلا أحد يطلب مشاهدة تلك الأعجوبة التكنولوجيَّة المسماة غُرفَة الغاز النازيَّة الحقيقيَّة المزعومة، أو تلك المجزرة الكيميائيَّة الهائلة. تخيل أن شخصا ما قال لك أن هناك طائرة تستطيع حمل ألفين أو ثلاثة آلاف راكب والطيران بهم من باريس إلى نيويورك في نصف ساعة (طبقا للهراء الإباديّ كان يتم إبادة ما بين ألفين وثلاثة آلاف يهودي في غُرفَة الغاز في أوشفتز خلال نصف ساعة). ولكي تصدق ذلك، ألن تطلب أن تري على الأقل صورة لهذا الشيّء الذي يمثل قفزة

تكنولوجيَّة لا نظير لها من قبل؟ ألسنا في عصر العلوم الدقيقة والسمعيَّة البصريَّة؟ لماذا هذا الحرج المفاجئ عندما يتعلق الأمر بغُرفَة الغاز؟ عند النصابين لعبة سهلة. فهم يعرضون علىك ما يشبه "جراج" منزلك أو غُرفَة الدوش في منزلك ويقولون لك: "في هذا المكان كان النازيون يقتلون اليهود في مجموعات مكونة من مائة أو ألف شخص". وتصدق أنت ذلك. إنهم يعرضون عليك كومة من الشعر البشري كتلك التي يمكن أن تراها في دكان الحلاق أو صانع الباروكات ويقولون لك دون أي دليل: هذا هو شعر ضحايا "غُرَف الغَاز". إنهم يعرضون علىك كومة من الأحذية علقت فوقها لوحة تقول: هذه "أحذية ضحايا غُرَف الغَاز". إنهم يعرضون علىك صورا فوتوغرافيَّة لجثث وتعتقد أنت أنَّها جثث ضحايا "غُرَف الغَاز". ويجعلونك تقف أمام أفران المحارق وأنت ترتجف، في حين أن هذه المحارق ليست فريدة من نوعها بل وما تزال موجودة في معظم المدن الأوروبيَّة الحديثة.

إنني أعرف طريقة فعالة لإثبات أن "غُرَف الغَاز" المزعومة لقتل اليهود بغاز الهيدروسيانيك لم يكن ممكنا لها أن توجد. وهذا يستلزم -كما فعلت أنا عام 1979م- القيام بزيارة غُرَف الغَاز في السجون الأمريكيَّة، أو من جهة أخرى، الإطلاع على الطبيعة المعقدة لغُرفَة الغاز وتركيبها المعقد والإجراءات الصارمة التي كانت تتخذ قبل إعدام شخص واحد بالغاز في الأربعينيات أو الخمسينيات في سجون

كارسون سيتي (نيفادا) وبالتيمور (ماري لاند) أو بارشمان (مسيسبي). هذه الإعدامات تحديدا كانت وما تزال تجري بغاز الهيدروسيانيك في غرف إعدام شديدة الخطورة لدرجة أن استخدامها في إعدام سجين واحد يتطلب احتياطيات هائلة وتعقيدات تكنولوجيَّة (بغض النظر عما تحقق حديثا من تقدم تكنولوجي أو توفر في شروط الأمان).

بخصوص هذا الموضوع دعونا نستمع إلى سيلين Celine.

إنني أعتبر لويس فريديناند سيلين (1894م-1961م) أعظم عبقري في الأدب الفرنسي في القرن العشرين. إن قوته وروعته ورؤيته الشفافة، كانت أمرا لا نظير له. غير أنه عاش للأسف حياة قاسية. فمن ذلك اليوم في عام 1937م عندما بدأ يعبر عن مخاوفه من إندلاع حرب عالميَّة جديدة، جلب على نفْسه الشقاء. وكان قد جُرح جرحا خطيرا في الحرب العالميَّة الأولى، وكان يخشَى مذبحة جديدة بكلّ مشاعره وكيانه. أما اليهود من جهتهم، فلم ينظروا للأمر بهذه الطريقة. وكان معظم زعمائهم يطالبون بحملة ضِدَّ هتلر. وقد أدان سيلين تلك الرغبة المحمومة لمعاقبة ألمانيا وذلك السعار المتطرف، وقد رأي الكارثة تلوح في الأفق، وفيما بعد عندما تعهدت بريطانيا وفرنسا بدخول الحرب ضِدَّ ألمانيا، كان بوسعه أن يشير إلى "تلك الأغطية الناعمة التي ترقد عليها فرنسا". وفي عام 1944م نجا سيلين من حكم صدر عليه بالإعدام من طرف اليهود والشيوعيين

أساسا، ثم هرب إلى ألمانيا التي كانت تحتضر في الأشهر الأخيرة من الحرب، ثم إلى الدنمارك حيث قضي عاما ونصف عام في السجن في ظروف قاسية.

وبعد عودته إلى فرنسا عاش منبوذًا، ففرنسا أرض تقسو على كتابها العظام. والوضع ما يزال كذلك اليوم، فبعد ستين عاما على صدور ثلاثة من كتبه في 1937م و1938م و1941م، وهي كتب هجائيَّة ساخرة، لا تزال هذه الكتب تحاط بالازدراء من جانب اليهود، ولا تزال ممنوعة من النشر بحكم الأمر الواقع. فليس هناك قانون يحظر نشرها، لكن الكلّ يعرف أن المنظمات اليهوديَّة ستقلب الدنيا إذا سمحت أرملة سيلين -التي لا تزال على قيد الحياة- بنشرها. إنه القانون غير المكتوب للتلمود الحديث.

أما الأمثلة الأخرى على ذلك الامتياز اليهودي فهي معروفة. ويكفي هنا أن نسوق حالة الأكاديمي الذي كتب ذات مرة كتابًا مُراجِعًا، وهو برنار نوتين الذي لم يسمح له منذ عام 1990م بإلقاء المحاضرات في كلّيَّة ليون دون صدور أي قانون أو قرار إداري أو حكم قضائي بمنعه من التدريس. واليوم في نفْس الجامعة، جاء الدور على البروفيسور جان بول ألار، الذي أُقصِيَ عن التدريس بسبب قيامه قبل خمس عشرة سنة بالإشراف على أطروحة مراجعة. فقد شنت ضِدَّه حملة تنقيب في ماضيه أتت ثمارها.

في الماضي كان اليهود يسارعون إلى الاحتجاج إذا ما اتهموا بمطاردة المراجعين كما تُطارد الحيوانات المفترسة، منكرين أنهم يقومون بدور من هذا النوع. أما اليوم فلم يعودوا بحاجة إلى إخفاء سلوكهم المشين، بل أصبحوا يتفاخرون بمسؤوليتهم عن مثل تلك الأعمال العنيفة.

في الأول من مارس 2001، جاء عنوان إحدَى المقالات التي نشرتها مجلة "أكتوإليتيه جويف"(الأحداث اليهوديَّة) كالتالي: "الحملة مستمرة لاصطياد جان بول ألار"، ووصل محتوى المقال إلى درجة التحريض على القتل. فالمنظَّمات اليهوديَّة تَستعرض دون مُبالاة قُدْرتها على أنْ تبدو شديدة البَأس.

وفي حالة جان بول ألار، يبدو أنَّها تُحقّق هدفها: حديثًا فقط وتحت الضغط والإجهاد الشديد الذي تَعرَّض له، لَزَم هذا البروفيسور المستشفى يُعاني مِن أزمة قلبيَّة ومِن فقدان القُدْرة على الكلام بشكلٍ طبيعيّ. وفي سِجّلٍ آخر نَجَح اليهود وأصدقاؤهم في محاولاتهم لطَرْد المؤرِّخ وعالم الاجتماع الفرنسيّ المراجِع سيرج ثيون، مِن المركز الوطنيّ للبحْث العلميّ، وذلك بطريقة استبداديَّةٍ ومكشوفةٍ يَتردَّد أكثر أصحاب العمل غُرورًا في اللجوء إليها مع أكثر مرؤسِيهم تواضعًا، وإلَّا اضطروا لدفع غرامات ماليَّة ضخْمة.

ولن أتعرض هنا للمعاناة التي يتحملها المراجعون الذين اضطروا إلى النضال علانية بأسمائهم الحقيقيَّة، وأكثرهم إثارة للإعجاب بذكائه وشجاعته في رأيي، هو الألماني إرنست زوندل الذي استقر في كندا لمدة أربعين سنة، وخاض نضالاً هائلاً ضِدَّ لوبي "الهُولُوكُوسْت" الدولي، مستهدفا بوجه خاص تحقيق العدالة لوطنه المتضرر. ودونه كانت المراجعة التاريخيَّة ستظل تعيش في منطقة شبه مظلمة. لكن ليس بوسع المرء أن يسبح في شلالات نياجرا، فقد اضطر زوندل مؤخرا تحت ضغوط التحالف السياسي والمالي والقضائي وبالرغم من بعض الانتصارات المدويَّة التي حققها، إلى مغادرة كندا.

إذا كنت في نهاية هذا الحديث قد استدعيت إلى الذاكرة، العبقريَّة الرفيعة لمؤلف "رحلة إلى منتصف الليل"، فلأن سيلين بضربة واحدة من ضرباته العبقريَّة، أبدي شكّه بالفعل بعد خمس سنوات فقط من نهاية الحرب العالميَّة الثانية، في أن تكون الإبادة المزعومة لليهود مجرد خرافة، أو عملاً من أعمال الخداع. ويجب القول إنه منذ عام 1945م، تدفق الكثير من اليهود الذين كان يُعتقد أنهم هلكوا، من أوروبا الوسطي على فرنسا وليس على أي بلد أوروبي آخر أو حتَّى فلسطين، مضيفين عددهم إلى أعداد أبناء الطائفة اليهوديَّة التي نجا أربعة أخماس أبنائها من الترحيل إلى المعسكرات خلال الحرب. وفي نوفمبر 1950م، بعد أن قرأ سيلين العمل الأول الكبير لبول راسينييه "أكاذيب عوليس" كتب إلى صديقه ألبير باراز يقول:

"إن راسينييه رجل شريف تمامًا {...}. إن كتابه المثير للإعجاب، سيثير ضَجَّة كبيرة.. ففضلاً عن كلّ شيّءٍ، فهو يميل إلى إلقاء الشكّ على غُرفَة الغاز السحريَّة. وهو أمر ليس بالهين. فسوف يندفع عالم بأسره مليئ بالحقد، للعواء في وجه محطم الأصنام. لقد كانت غُرفَة الغاز كلّ شيّءٍ، وقد بررت كلّ شيّءٍ!

وبدورنا دعونا نبدي إعجابنا بتلك الرؤية الثاقبة الشفافة للأشياء، تلك النبوءة.

حقا إنَّها غُرفَة الغاز السحريَّة. وكما قلت من قبل، لم يتمكن أحد قط من أن يقدم لنا صورة أو حتَّى رسما، في الرد على التحدي الذي وجهته أمام الجميع في ستوكهولم. لم يتمكن أحد من شرح آليَّة عمل "غُرَف الغَاز"، ولم يقل لنا أحد كيف أمكن للألمان في أوشفتز أن يلقوا حبيبات الزيكلون ب من خلال تلك الفتحات المزعومة في سطح "غُرفَة الغاز"، آخذين في الاعتبار أن تلك الغُرفَة ما هي إلَّا غُرفَة باردة كانت تستخدم لحفظ الجثث في انتظار حرقها، ولم يسبق أن كان في سقفها ثقب واحد من تلك الثقوب، وهي الحقيقة التي مكنتني من التوصل إلى الاستنتاج المكون من أربع كلمات: لا ثقوب.. لا هُولُوكُوسْت!

لم يمكن لأحد كشف اللغز الذي تتضمنه الرواية الرسميَّة عن دخول فرق من اليهود تحت قيادة الألمان (من المتعاونين معهم) غُرفَة

غاز عملاقة بعد أن تم إعفاؤهم من القتل، لإخراج جثث أقرانهم اليهود الذين قتلوا بالغاز المزعوم. ووضعها يوما بعد يوم، في أكوام متفرقة مكونة من آلاف الجثث. من الصعب التخلص من غاز حمض الهدروسيانيد بالتهوية، وهي عمليَّة تستغرق وقتا طويلا. فهذا الغاز يتسرب وتتخلف بقاياه في الجدران والطوب والمحارة والخشب والطلاء.. وقبل كلّ ذلك، في الجلد والأغشية المخاطيَّة للإنسان. وهكذا لا يستطيع المرء أن يدخل أو يتحرك في مناخ كهذا مشبع بالسم القاتل، فالتعامل مع الجثث المشبعة بالغاز السام يمكن أن يقتل كلّ من يلمسها. وفضلاً عن هذا، وهو أمر معروف للمتخصصين في مجال التطهير والتعقيم، من الضروري في مثل هذه الظروف، أن يتفادي الإنسان بذل جهد جسماني كبير، فإذا ما بذل هذا الجهد فسوف يسرع من التنفس وهنا سيسمح المرشح الموجود في القناع الواقي من الغاز الذي يرتديه الإنسان بنفاذ كميَّة من الغاز السام مما يؤدي إلى قتل الذي يرتديه.

وأخيرًا، لم تمكن أحد من أن يشرح لنا كيف كان أمكن لهؤلاء اليهود المتعاونين sonderkomman إخراج جثث رفاقهم في الديانة، وكيف كان ممكنا القيام بذلك وهم يأكلون ويدخنون (حسب رواية منسوبة إلى رودلف هيس القائد المعروف لمعسكر أوشفتز)، لأنه إذا كنت قد فهمت جيدا، فإنَّهم لم يكونوا يرتدون حتَّى أقنعة، وكانوا يدخنون وسط سحب الغاز السام القابل للاشتعال. ومثل الزهرة

الخياليَّة التي حلم بها الشاعر الفرنسي الرمزي ستيفان مالارميه (1842م- 1898م) الذي كتب عن "الزهرة المفقودة من كلّ باقة"، كانت غُرفَة الغاز النازيَّة القادرة على القيام بأعمال خارقة "مفقودة من الواقع كلّه"، وهي تبقي حقا سحريَّة، ولكنه سحر شرير ومثير للغثيان، فهي ليست سِوى كابوس مستقر في العقول اليهوديَّة في حين يعمل كبار كهنة "الهُولُوكُوسْت"من جانبهم على جعل ذلك الوهم البشع يسيطر على العالم بأسره، وإبقائه في حالة أقرب إلى التنويم، فحياتهم تعتمد عليه.

مرة أخرى كان سيلين على حق عندما أضاف إلى غُرفَة الغاز السحريَّة قوله إنه "أمر ليس هينا". ومضى قائلا: إنَّها تبرر كلّ شيّء. ودونها لكانت خدعة الهُولُوكُوسْت قد انهارت تمامًا. إن بيير فيدال ناكيه الرسول الحزين الذي يمثل المؤرخين المناهضين للمراجعة التاريخيَّة اعترف بنفْسه بالكثير من هذا مشيرا إلى أن بعض أصدقائه الذين أصبحوا يشعرون بالقلق من الحملة، كانوا في طريقهم للتخلّي عن موضوع "غُرَف الغَاز" المرهق في هدوء. لكنه أخذ يتوسل إليهم ألَّا يفعلوا ذلك موجها إليهم تلك الصيحة التحذيريَّة: "عفوا.. إن هذا سيكون استسلاما للعدو في الفضاء المكشوف" (لونوفيل أوبسرفاتور، 21 سبتمبر 1984م، صفحة 80).

يقال إنَّ غُرفَة الغاز هي الدليل الوحيد الملموس -وإن كان يستحيل العثور عليها- على الإبادة الجماعيَّة التي لم تقع قط.

وفضلاً عن هذا، فإنَّها توصف لنا بوقاحة كما لو كانت متسقة ومخطط لها وذات طبيعة صناعيَّة وحشيَّة قادرة على الإنتاج بكفاءة تجعلها جديرة بأن يطلق عليها "مصنع الموت".

وأخيرًا فإنَّ سيلين على حق عندما يخلص إلى القول "إن عالما بأسره من الأحقاد سيحرض على العواء في وجه محطم الأصنام". ومن جانبي يجب أن أضيف، أنه منذ أكثر من نصف قرن بعد ذلك التكهن أو النبوءة، ارتفع العواء أكثر وأكثر، ولم يتوقف ولو للحظة واحدة ضِدَّ محطمي الأوثان أي المراجعين الذين أصبحوا يوصمون في فرنسا اليوم بالكلمة البربريَّة "الإنكاريين" في حين أنهم لا "ينكرون" أو ينفون شيئا، بل إنهم يؤكدون في نهاية أبحاثهم، أن الأكذوبة التاريخيَّة العملاقة تترنح.

الخلاصة

يُحلّق شبح المراجِعِين ليلاً ونهارًا على حُرّاس القانون اليهوديّ، وأولئك الذين أَطْلَق عليهم سيلين "مؤسسة الشهداء". وتقف هذه المؤسسة بشراسةٍ ضِدَّ المراجِعِين الذين يَسعون إلى حماية أنفسهم مِنها. إنَّها تدفع البعض مِنهم إلى الانتحار، وتُنزِل بهم العقاب الجسديّ والإصابات والتشويه البدنيّ. إنَّها تَقتل البعض وتُرغم البعض الآخر على العيش في المنفى. إنَّها تُشعل النار في المنازل وتُحرق الكُتب. يُنفّذ وصاياها رجال الشرطة والقضاة وسلطات السجون.

إنّها تُمارس الضغط وتَبتز وتَسرق. إنّها تُطلق كلاب الصحافة علينا، وتَطردنا مِن وظائفنا وتُساعد في توجيه الإهانات لنا.

مِن جانبنا على حَدّ علمي، لَم يَسبق أنْ وجّه أحدٌ ضربةً إلى أيٍّ مِن حُرّاس القانون الدائمين. في ميونيخ في 25 أبريل 1995م، أنهى مُراجِع ألمانيّ حياته بحرق نفْسه حيًّا. وقدْ فَعل ذلك احتجاجًا على "شلالات الكذب" التي تَنهمر على شعبه. وفي الخِطاب الذي تَركه قبل انتحاره، قال إنَّه يَأمل في أنْ تُصبح النار التي قَضَت على جسده منارةً للأجيال القادمة. وقد بَادرتْ الشرطة الألمانيَّة إلى اعتقال الأشخاص الذين جَاءوا لوضع باقة مِن الزهور في البقعة التي ضَحّى فيها رينهولد اليستنر بحياته. وفي 13 مايو 2000م، أنهى البروفيسور الألمانيّ فيرنر فيفنبرجر المتخصص في العلوم السياسيَّة والبالغ مِن العمر 58 سنة، أنهى حياته بعد أنْ ظلّ يَتحمل لعدَّة سنواتٍ القضيَّة التي رَفعها ضِدَّه صَحفيٌّ يهوديٌّ في فيينّا، بدعوى أنَّ الكتابات الأكاديميَّة للبروفيسور تَفوح منها رائحة المراجَعَة (التي يطلقون عليها بالطبع النازيَّة الجديدة).

يَحيَا المراجِعون حياةً شاقّةً، ويَعيش الفلسطينيُّون مأساةً. ويُواجه الأطفال الفلسطينيُّون بوجهٍ خاصٍّ مصيرًا مؤسفًا. إنَّ القتلة الإسرائيليين هم عن جدارةٍ، وَرَثَة طياريّ السلاح الجويّ الأمريكيّ، والقوات العسكريَّة التي مَارستْ، طوال التاريخ الإنسانيّ، القَتْل والتمثيل بالجُثث وتمزيق الأوصال أو تجويع الأطفال، في ألمانيا أولاً، ثُمَّ

في أماكن أخرى في أوروبّا، ثُمَّ في اليابان وفي فيتنام وفي مُعظم الدول الآسيويَّة، ثُمَّ في الشرق الأدنى والأوسط، وهي ما تَزال موجودةً في أماكن أُخرى مِن العالم، حيث يَتلقّى الجنديّ الأمريكيّ الأوامر مِن سادته بمطاردة "هتلر" الجديد ومَنْع "إبادة" جديدة.

يَستمع كثير مِن الزعماء المسلمين إلى تضرّع المراجِعين والفلسطينيِّين. إنَّ مِحْنتنا مُتشابهةٌ وانتفاضتَنا مُتطابقةٌ.

هل يتَخلّى هؤلاء الزعماء أخيراً عن صمتهم إزاء أكبر أكذوبة في التاريخ الحديث: أيّ أكذوبة "الهُولُوكُوسْت"؟

هل يُدِينُون أكذوبة "غُرَف الغَاز" النازيَّة! فعلى الأقل لمْ يَصل أيّ زعيمٍ مِن الزعماء الذين انتصروا في الحرب العالميَّة الثانية، في الانحناء إلى دَرجة الاقرار بوجود "غُرَف الغَاز". فخِلال الحرب، في خِطاباتهم وفيما بعد في مُذكراتهم، لمْ يَذكر ديجول أو تشرشل أو أيزنهاور مرةً واحدةً، ذلك الرعب الشيطانيّ الذي تَمَّ تزييفه بوسائل الدعاية أثناء الحرب. وقبل ربع قرن مضى، أَطلق البروفيسور الأمريكيّ آرثر بوتز وَصف "خدعة القرن العشرين" على تلك الخدْعَة الكُبْرَى. وقد ولَّى ذلك القرن، ويجب أنْ تختفي خدْعَته الكُبْرَى في مزبلة التاريخ.

إنَّ المأساة الفلسطينيَّة تَتطلَّب ذلك، والمِحْنة التي يَعيشها المرَاجِعُون تجعل منها ضرورةً، وقضيَّة الإنسانيَّة ككُلٍّ تجعلها واجبنا التاريخيّ

والسياسيّ والأخلاقيّ، يَجِب إدانة الخدْعة الكبرى. إنَّها تُوَلِّد الكراهية والحرب. ومِن مصلحة كلّ قادة الدول الإسلاميَّة التخلِّي عن صمتهم إزاء خدْعة "الهُولُوكُوسْت".

مُلحَق 1

بَعض التعلِيقَات الأوّليّة حَوْل حقُوق حُريّة التعْبِير*

بِقلم: نعوم شومسكي

الملاحَظات التالية مُلاحظاتٌ أجدها عاديّةً، الأمر الذي يجعلني ألتمس عفو القُرّاء الذِين قد يُطالعونها. ومع ذلك، وإذا كان هناك سببٌ لكتابتها، وهناك بالفعل سببٌ، فإنّه يعود إلى بعض الجوانب المثيرة للانتباه في الثقافة الفرنسيّة.

وقبل أنْ أتطرّق إلى صُلْب الموضوع الذي طُلِب منّي التعليق عليه، أجد مِن الضروريّ أولاً أنْ أُقدِّم بعض الأيضَاحات.

لقد حَصَرت ملاحظاتي في مجالين فقط؛ أوّلُهمَا: موضوع مُحدَّدٌ وضيّقٌ يَتعلّق بحُرّيّة التعبير عن الرأيّ والمعتَقَد، ونَشْر ما يَتوصّل إليه المرء مِن استنتاجات. وليس لديَّ هنا رأيٌ في كتابات روبير فوريسون أو نُقّاده، فأنا لست مُطّلعًا إطّلاعًا كافيًا على هذه الكتابات، أو على ما تتناوله مِن قضايا ليسَتْ لديَّ مَعْرفة خاصةٌ بها. ثانِيهِمَا: أنَّ

* نُشِرَتْ كتقديمٍ لكتاب روبير فوريسون "مُذكّرةٌ في الرّدّ على أولئك الذين يتّهمونني بتزْييف التاريخ" الصادر عام 1980م.

لديّ بعض الآراء القاسية (ولكنْ التي أراها جديرةً بالذِّكْر) عن بعض شرائح الانتلجنسيا الفرنسيَّة، التي أثبتَتْ إنَّها لا تُقيم أيّ وزنٍ للحقيقة أو للعقل، نتيجةً لما توصلت إليه مِن خلال تجربةٍ شخصيّةٍ سيّئةٍ وقَعت لي، لنْ أتطرّق لها هُنا.

والمؤكَّد أنَّ ما أقوله لا ينطبق على كثيرٍ مِن الذين حافظوا على التزامِهم بالقيم الثقافيَّة. ولا يتسع المجال هنا للعَرْض التفصيليّ. وإذا كنتُ أرى أنَّ ما أعرضه هنا مِن ملاحظاتٍ هامٌ وجديرٌ بالاهتمام، إلَّا أنَّني لا أودُّ أنْ يُسَاء فهْم ملاحظاتي أو تفسيرها خارج الإطار المحدَّد لها.

لقد طُلِب منّي قبل فترةٍ التوقيع على عريضةٍ تُدافع عن حَقِّ روبير فوريسون في "حُريَّة الكلام والتعبير عن الرأيّ". ولم تتطرّق هذه العريضة بأيّ شكلٍ إلى طبيعة أو مستوى أو صحَّة أبحاث فوريسون، لكنَّها اقتصرت على الدفاع عن الحقوق الأساسيَّة الراسخة في المجتمعات الديموقراطيَّة، وتُطالب الجامعات والسلطات الرسميَّة بأن "تَفْعَل كلَّ ما في وسعها لضمان سلامة فوريسون وممارسته حقوقه المشروعة". وقد وقَّعتُ عليها دون أدنى تردُّد.

وأثار توقيعي على العريضة عاصفةً من الاحتجاج في فرنسا، فقد نَشَر كاتبٌ ستالينيٌّ سابقٌ غَيَّر ولاءه وإنْ لم يستطع التخلُّص مِن نَهْجه الفكريّ، مقالاً في "لونوفيل أوبسرفاتور" يُزيِّف بشكلٍ تامٍ

مضمون العريضة، وسط فيضٍ مِن الأكاذيب التي لا تستحق التعليق. واعتَبرتُ هذا مِن جانبي على أيّ حالٍ أمرًا طبيعيًّا. لكنّي دُهِشت كثيرًا عندما قرأتُ في مجلَّة Esprit (عدد سبتمبر 1980م) أنَّ بيير فيدال ناكيه يَرى أنَّ العريضة "فضائِحيَّة" scandaleuse، مُشيرًا بشكلٍ مُحدَّدٍ إلى توقيعي عليها، (وسوف أتجاهل هُنا مناقشة مقالٍ في المجلَّة نفْسها كتبه رئيس تحريرها، لأنَّه مقالٌ لا يستحقّ التعليق، على الأقل مِن جانب أولئك الذين حافظوا على التزامهم بالقيم الأساسيَّة للحقيقة والنزاهة).

يَذكُر بيير فيدال ناكيه سببًا واحدًا يجعله يرى أنَّ توقيعي على العريضة "فضائحيّ"، حين يَزعم أنَّ العريضة تُظهِر "ما توصَّل إليه فوريسون من نتائج كما لو كانت اكتشافاتٍ جديدة". وهو قولٌ عارٍ مِن الصحة، فقد ذكرتْ العريضة ببساطةٍ أنَّ فوريسون قدَّم "نتائج أبحاثه" وهو أمرٌ لا خلاف عليه، فليست هناك إشارةٌ مباشرةٌ أو ضمنيّةٌ إلى قيمة هذه النتائج أو مدى صحَّتها. ربما وَقَع فيدال ناكيه في هذا الخطأ بسبب اعتماده على الترجمة الفرنسيَّة. فمِن الممكن بالطَّبع أنْ أقول أنَّ شخصًا ما عَرَض "نتائج أبحاثه"، دون أنْ يتضمَّن هذا أيَّ شيّءٍ عن طبيعتها أو مدى صحَّتها، وتكون العبارة طبيعيَّة تمامًا في هذا السياق. أعتقد أنَّ هذا كان مُجرَّد سوء فهمٍ للنَّصِّ مِن جانب فيدال ناكيه الذي كَتَب ما كَتبه، وفي هذه الحالة عليه أنْ يتراجع علانيةً عن اتهامه لي بأنَّني (مِن بين آخرين)، إرتكبتُ فعلاً

"فضائحيًّا" بتوقيعي على عريضةٍ تُطالب بحماية الحقوق المدنيَّة نُوقِّع كلّنا على عرائِضَ مثلها بكثرة.

إنَّني لا أرغب في الجدل مع أفراد. فلنفترض إذنْ أنَّ شخصًا ما وَجدَ هذه العريضة "فضائحيَّة"، ليس على أساس خطإٍ في القراءة، ولكن بسبب ما تقوله بالفعل. ودعونا نفترض أنَّ هذا الشخص يجد أفكار فوريسون عدوانيَّةً أو حتّى مُقزِّزةً، ويرى أنَّ اشتغاله بالعمل الأكاديميّ فضيحةٌ. ودعونا نفترض أكثر مِن ذلك، أنَّه على صوابٍ في تلك الاستنتاجات، وكونه على صوابٍ هو أمرٌ لا يعنينا هُنا في هذا السياق. إذنْ يجب أنْ نستنتج أنَّ هذا الشخص يعتقد أنَّ العريضة "فضائحيّةٌ"، لأنَّه يرى ضرورة حرمان فوريسون مِن حقوقه الطبيعيَّة في التعبير عن نفْسه، وأنَّه يجب أنْ يُمنَع مِن التدريس بالجامعة، وأنْ يتعرَّض للمضايقات أو حتّى للعنف.. إلخ.

موقفٌ كهذا هو موقفٌ شائِعٌ. إنَّها المواقف التقليديَّة مثلاً عند الشيوعيِّين الأمريكيِّين كما عند أقرانهم في كلّ مكانٍ بلا شكّ. مِن البَدَهِيّ عند أولئك الذين تَعلَّموا شيئًا مِن ثقافة القرن الثامن عشر (فولتير مثلا)، أنَّ الدفاع عن حُريَّة التعبير لا يقتصر على الأفكار التي تروق لنا، بل إنَّ الأفكار الأكثر هجائيَّةً تستحق دفاعًا أكثر صَلَابة.

ولم يَعد الدفاع عن الحَقِّ في التعبير الحرِّ المتَّفق عليه بشكلٍ عامٍ أمرًا ذا أهميّةٍ كبيرةٍ، فقد أصبح هذا كلُّه مفهومًا تمامًا في الولايات

المتَّحدة التي لم تَعرِف شيئًا شبيهًا بقضيَّة فوريسون. أمَّا في فرنسا التي لم تترسَّخ فيها التقاليد الليبراليَّة على نحو ما حدَث في أمريكا، والتي عَرَفتْ لسنواتٍ عديدةٍ تيّاراتٍ شموليّةٍ عميقة عند الانتلجنسيا (ظاهرة المتعاونين مع النازيَّة، تأثير اللينينيَّة وفروعها، النموذج شِبْه المجنون لليمين الثقافيّ.. إلخ). فالأمور تبدو مختلفةً تمامًا.

إنَّ قضيَّة فوريسون شديدة الأهميَّة بالنسبة للذين يهمُّهم أمر الحالة التي وصلتْ إليها الثقافة الفرنسيَّة. وهنا تقفز المقارنة التالية إلى الذهن: لقد سبق أنْ وقَّعتُ على الكثير مِن عرائض الاحتجاج –التي بلغت مدىً بعيدًا– تضامنًا مع المنشقِّين الروس أصحاب الآراء الفظيعة، أو المؤيِّدين بقوَّةٍ للفظائع الأمريكيَّة في فيتنام، أو للسّياسة التي يُمكن أنْ تُؤدِّي إلى حربٍ نوويّةٍ، أو أصحاب الآراء الدينيَّة الشوفينيَّة التي تُريد إرجاعنا إلى عصور الظلام، دون أنْ يَصْدر أيُّ اعتراضٍ مِن أَحَد. وإذا كان أحدٌ قد اعترض لكنتُ قد نظرتُ إلى موقفه بنفْس الازدراء الذي تستحقه آراء الذين يدينون عريضة تأييد حقوق فوريسون المدنيَّة ولنفْس السبب.

إنَّني لا أقرأ الصحافة الشيوعيَّة، لكنّي أشكُّ في أنَّ القوميساريين الشيوعيِّين يقفون وراء ذلك التفتيش المحموم في العرائض عن عباراتٍ يُمكِن إساءة تفسيرها بخبثٍ، في محاولةٍ لتجريد تلك الجهود الرامية إلى الاحتجاج على قمع حقوق الإنسان مِن مصداقيَّتها. بالمقارنة، فإنَّني عندما أطالِبُ بضرورة ضمان حقوق فوريسون المدنيَّة بِغَضِّ النظر

عن آرائه، يُعتبر هذا "فضيحةً" وتقوم القيامة في فرنسا. ويبدو سبب التفرقة شديد الوضوح. ففي حالة المنشقِّين الروس، تُرحِّب الدولة (أو دُوَلُنا) بتأييدهم لأسبابها الخاصّة، التي لا حاجة بنا إلى القول إنَّها لا تتعلق بالدفاع عن حقوق الإنسان. في حالة فوريسون، فإنَّ الدفاع عن حقوقه المدنيَّة ليس مبدًا سياسيًّا يحظى بالترحيب الرسميّ، بَل على العكس مِن ذلك، ولهذا فإنَّ بعض قطاعات الانتلجنسيا التي تَصْطفُّ وتسير على دقَّات الطبول، لم ترَ حاجةً لاتِّخاذ الموقف الذي رَحَّبتْ به دون تردُّدٍ في حالة المنشقِّين السوفييت. قد تكون هناك عوامل أخرى في فرنسا: عُقْدة الذنْب المترسِّبة عن المواقف المشِينة لقطاعاتٍ ثقافيَّةٍ كبيرةٍ في عهد حكومة فِيشي، أو الفشل في الاحتجاج على الحروب الفرنسيَّة في الهند الصينيَّة، أو التأثير الستالينيّ الثابت والمبادئ اللينينيَّة الأكثر عموميَّةً، والطابع الغريب الملتبِس لبعض التيَّارات الثقافيَّة في فرنسا فيما بعد الحرب، التي ترى أنَّ المسار العقلانيّ شيّءٌ ينتمي للماضي الغامض، وتَحوُّل الاتجاهات المعادية للساميَّة إلى العنف.

وتقفز إلى الذهن هنا مقارنةٌ ثانيةٌ، فرغم أنَّني ليس لديَّ الكثير الذي يُمكن أنْ أقوله عن الانتلجنسيا في الولايات المتَّحدة، التي لا تختلف كثيرًا عن غيرها في أيّ دولةٍ أخرى، إلَّا أنَّ المقارنة بين ردّ الفِعْل إزاء قضيَّة فوريسون في فرنسا، وبين ردّ الفِعْل هنا في الولايات المتَّحدة على الظاهرة نفْسها قد يكون مفيدًا. في الولايات المتَّحدة،

لم يتعرَّض آرثر بوتز (الذي يعتبره البعض بمثابة فوريسون الأمريكيّ) لذلك الهجوم العنيف الذي تَعرَّض له فوريسون. وعندما عَقد أنصار نظريَّة "عدم وقوع الهُولُوكُوسْت" مؤتمرًا دوليًّا حاشدًا في الولايات المتَّحدة، كما حدَث قبل عدَّة أَشهُر، لم نشهد تلك الهسْتِيريا التي شهدتها فرنسا إبَّان قضيَّة فوريسون. وعندما يدعو الحزب النازيّ الأمريكيّ إلى مسيرةٍ في مدينة سكوكي ذات الأغلبيَّة اليهوديَّة بولاية إلينوي -وهو استفزازٌ واضحٌ- يُدافِع الاتحاد الأمريكيّ للحُرِّيَّات المدنيَّة عن حقِّهم (رغم الغضب الشديد بالطَّبع مِن جانب الحزب الشيوعيّ الأمريكيّ). وحسب عِلمي يحدث نفْس الشيّء في انجلترا وأستراليا، وهُما دولتان مثل الولايات المتَّحدة، لديهما تقاليد في الحُرِّيَّات المدنيَّة. لقد تَعرَّض بوتز بالطَّبع للهجوم الشديد وأُدِين هو وزملائه بقسوةٍ، ولكن دون أيّ هجومٍ على حرِّيَّاتهم المدنيَّة على قَدْر عِلمي. ولايقتضِي الأمر في هذه الدول كتابة عريضةٍ كتلك التي وجدها البعض في فرنسا "فضائحيَّة". وإذا وُجِدَت مثل هذه العريضة، فمِن المؤكَّد أنَّها لن تتعرض للهجوم خارج نطاق دوائر غير مؤثِّرة. هذه مقارنةٌ هامّةٌ تكشف لنا الكثير ويجب أنْ نُحاول فهْمها. قد يُجادل البعْض بالقول إنَّ شبح النازيَّة والعداء للساميَّة أكثر خطورةً في فرنسا، وأعتقد أنَّ هذا صحيح، لكنَّه ببساطةٍ، انعكاسٌ لنفْس العوامل التي أدَّت إلى سيطرة اللينينيَّة على قطاعاتٍ كبيرةٍ مِن الانتلجنسيا الفرنسيَّة لفترةٍ طويلةٍ، وازْدِرائِها لمبْدأ الحُرِّيَّات المدنيَّة

اليوم، وتعصُّبها الحاليّ في قرْع طُبول الحملات الصليبيَّة ضِدَّ العالم الثالث. هناك باختصار، تيارات شموليَّةٌ مُتغَلغِلةٌ تتَّخذ أشكالاً مختلِفةً، وأعتقد أنَّ هذا الأمر جديرٌ بمناقشة أشمَل.

دعوني أُضيف ملحوظةً أخيرةً حول عداء فوريسون للساميَّة. فالملاحَظُ أولاً أنَّه إذا كان فوريسون مُعاديًا متطرِّفًا للساميَّة أو مِن أنصار النازيَّة، (وقد عُرضتْ لي هذه الاتهامات في مراسلاتٍ خاصّةٍ سيكون مِن غير المناسب أنْ أتطرَّق إليها تفصيلاً هُنا) فإنَّ هذا لا يُبرِّر بأيّ حالٍ عدم الدفاع عن حُقوقه المدنيَّة، بَل على العكس، فالدفاع عن هذه الحقوق يصبح أكثر ضرورةً، فقد ظلَّ هذا الدفاع -مرَّةً أخرى- لسنواتٍ أو لقرونٍ أمرًا بديهيًّا، أيّ أنَّ أكثر الآراء غرابةً يجب أنْ تَدفعنا أكثر إلى الدفاع بقوَّةٍ عن حُرّيَّة التعبير. فمِن السهل أنْ ندافع عن حُرّيَّة التعبير عند الذين ليسوا في حاجةٍ إلى مِثل هذا الدفاع. وبعيدًا عن هذه النقطة الجوهريَّة، هل مِن الصحيح أنَّ فوريسون مُعادٍ للساميَّة أو نازيّ؟ لقد ذَكرتُ مِن قبل أنَّني لم أطَّلع إطِّلاعًا جيّدًا على كتاباته وأبحاثه. ولكن مِن خلال ما قرأتُ -أساسًا بسبب شراسة الهجوم عليه- لم أعثر على أيّ أثرٍ أو دليلٍ يُؤيّد هذا الاستنتاج، كما لم أجد أيّ دليلٍ في صُلْب المواد التي قرأتها عنه، سواءً مما هو مُتاحٌ الاطلاع عليه، أو فِيما وصلني بشكلٍ شخصيّ. إنَّني أرى حسب ما أستطيع أنْ أقرّر، أنَّه رجلٌ ليبراليٌّ غير مُسَيَّسٍ بدرجةٍ ما. والذين يتَّهمونه بالعداء للساميَّة يَدعمون اتِّهامهم

له بالقول –كما قالوا لي في مراسلاتٍ خاصّةٍ– إنَّ زملاء له مِن أيام الدّراسة يَذكُرون أنَّه تفوَّه ببعض العبارات المعادية للساميَّة في الأربعينيَّات، وأنَّه كَتبَ خِطابًا يُفسّره البعض بأنَّه كان يفوح بالعداء للساميَّة وقت الحرب الجزائريَّة. وأنا مُندهشٌ قليلاً مِن أنَّ بعض الناس الجادّين يُمكن أنْ يُوجِّهوا تُهَمًا مِن هذا النوع –حتّى بشكلٍ خاصّ– ويَعتبرون أنَّ هذا أساسٌ كافٍ لمعاقبة شخصٍ ما، والحكم الأبديّ عليه بالعداء للساميَّة.

إنَّني لم أطَّلع مِن بين ما نُشِر على أيّ شيّءٍ يُؤيّد تلك التُّهَم. ولا أعتزم مواصلة البحث، ولكن لنفترض أنَّنا قُمنا بتطبيق نفْس المعايِير على الآخرِين، ألَا يَدفعُنا هذا إلى التساؤل: ماذا كان موقفهم إبَّان الحرب الفرنسيَّة في الهند الصينيَّة، أو ماذا كان موقفهم مِن الستالينيَّة في الماضي؟ ربَّما لا نكون في حاجةٍ إلى إضافة المزيد.

كمبردج، ماساشوستس

11 أكتوبر 1980م.

مُلحَق 2

البَحْث عن زُولَا*

فَرغتُ لتوّي مِن قراءة تعليقٍ كَتبَه روبرت تومبس على قضيَّة دريفوس في عدَد أوّل مايو مِن "مُلحَق التايمز الأدبيّ".

ما هي عَلاقة هذا الموضوع التاريخيّ بالحاضر؟ إنَّني أعرف أنَّ هناك رجالاً في أوروبَّا اليوم مِثل إميل زولا، صَدَرت ضِدَّهم أحكامٌ بدَفْع غراماتٍ ماليَّةٍ أو بالسجن بسبب كتابَاتِهم. ولذا ومِن أجْل المساهمة في "النقاش العام" بدافع "المصلحة العامّة"، توجهتُ إلى الميكروفون وقُلتُ: "إنَّ كلَّ عصرٍ يحتاج إلى زولا، ولكنْ أين هو زولا اليوم؟".

عندما يَكتب بروفيسور خِطابًا إلى صحيفة "لوموند" (في 29 ديسمبر 1978م) ويُوقَف عن التدريس في جامعة ليون بسبب هذا الخِطاب، ويُحْكَم عليه بالغرامة أو السجن، فأين كان زولا في ذلك الوقت؟ بالتَّأكيد لم يكنْ في فرنسا. إنَّني أقول "إنَّه كان هُنا في الولايات المتَّحِدة، وهو أستاذٌ في اللُّغويَّات. لقد كَتبَ نعوم

*رسالة نُشِرَت في صفحة "بريد القُرَّاء" في الملحْق الأدبيّ لصحيفة "التايمز" بتاريخ 26 يونيو 1998م.

شومسكي مُدافِعًا عن حَقِّ البروفيسور فوريسون في الكتابة والتعبير عن آرائه ومُعتقَداته.

وعلى العكس مِن عصر زولا، لم ينقسم المجتمع الأمريكيّ حول موقف شومسكي في الدفاع عن حُرّيَّة التعبير.

لم تُبطِلْ أيُّ مَحْكَمةٍ الحكم الذي صَدَر على فوريسون، بَل على العكس؛ فقد حُرِم مِن منصبه الجامعيّ، وتمَّ تغريمه مُؤخَّرًا طِبْقًا لقانون "فابيوس- جيسو" الذي يُعاقِب كلّ مَن يُجادِل فيما يُسمى بـ "الجرائم ضِدَّ الإنسانيَّة" بقضاءٍ، مِن شهْر إلى سنتين في السجن، وغرامةٍ مِن ألفين إلى ثلاثمائة ألف فرنك.

لقد قَالتْ جيتا ماي رئيسة جامعة كولومبيا: "أعتقد أنَّ هذه قضيَّةٌ فارغَة" ثُمَّ مَضَتْ.

في 16 يناير عام 1941م، أَعلَن الرئيس روزفلت "إنَّنا نتطلع إلى عالمٍ يقوم على الحرّيَّات الأربْع الرئيسيَّة، أُولى هذه الحرّيَّات حُرّيَّة الكلام والتعبير في كلّ مكانٍ في العالم..."

أين زُولَا في عَصْرنا اليوم؟

المُخْلِص جون روبرت

مُؤرِّخٌ دبلوماسيّ ومُؤلِّف عَددٍ مِن الكتب، مِن بينها كتاب "وراء وعْد بلفور: الأصول الخفيَّة للأزمة الحاليَّة في الشرق الأوسط".

المحتويات

مقدمة: بقلم أمير العمري 3

مدخل إلى المراجعة التاريخيَّة 25

آليَّة عمل "غُرَف الغَاز" 119

كيف حصل البريطانيون على شهادة رودلف هيس؟ 131

فيلم "شوا" لكلود لانزمان:
مزيج من الشهادات الزائفة والتناقضات 157

إيلي فيزل: شاهد زائف بارز 175

شاهد على محاكمات الهُولُوكُوسْت الكبرى:
سقوط مطارنة الهُولُوكُوسْت وظهور تقرير لوشتر 187

لماذا لم تظلم السماء؟ الحل النهائي في التاريخ 241

متحف الهُولُوكُوسْت الأمريكي التذكاري: هذا التحدي الجديد . 251

شهود على "غُرَف الغَاز" في أوشفتز 261

كم عدد الموتَى في أوشفتز؟ 285

قضيَّة روجيه جارودي والقس بيير 303

مؤرخ متشدد يعترف أخيرًا:
لا يوجد دليل على "غُرَف الغَاز" النازيَّة 339

كلمة إلى القادة العرب:
يجب التخلّي عن الصمت إزاء أكذوبة "الهُولُوكُوسْت" 351

ملاحق:

1- بعض التعليقات الأوليَّة حول حقوق التعبير:
بقلم نعوم شومسكي 381

2- رسالة من قارئ: البحث عن زولا 391